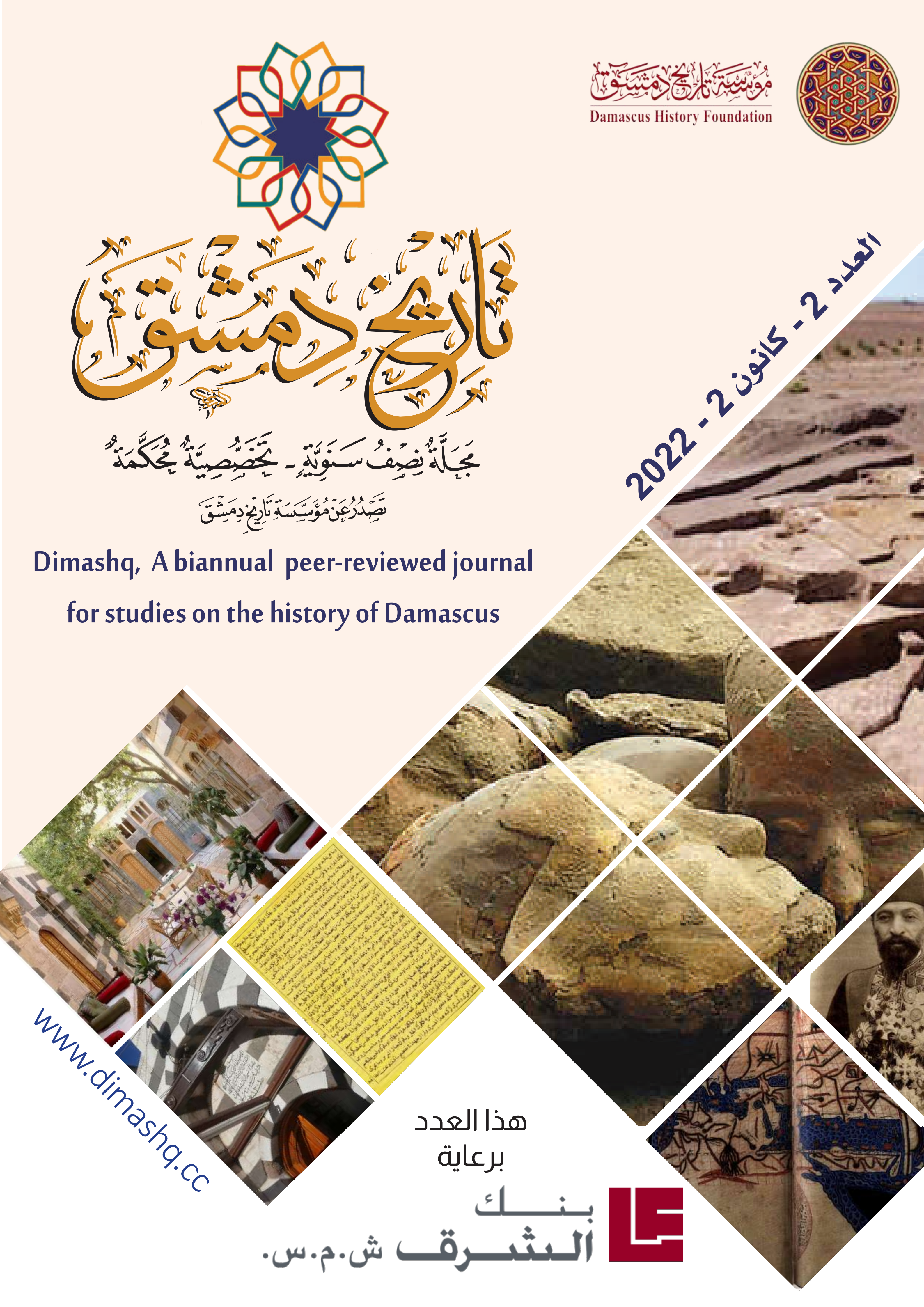


مؤسسة تاريخ دمشق
Damascus History Foundation
تاريخ دمشق
مجلة نصف سنوية - تخصصية محكمة
تصدر عن مؤسسة تاريخ دمشق
Dimashq, A biannual peer-reviewed journal
for studies on the history of Damascus
العدد 2 - كانون 2 - 2022
www.dimashq.cc
هذا العدد
برعاية
بنك الشرق ش.م.س.



انتقلنا إلى فرع جديد
دمشق المالكي جادة عبد المنعم رياض
جانب المالكي أفينيو (ماسة مول سابقاً)

أغراض المجلة وأهدافها

- العناية بتاريخ مدينة دمشق الذي يمتد على أكثر من عشرة آلاف عام، والتَّأريخ له.

- استدراك التقصير في الدراسات المعاصرة، وتوجيه الأنظار إلى الأحداث المهمة.

- استقصاء وجه مدينة دمشق تاريخيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً وعمرانيّاً وعلميّاً وفنيّاً ووثائقيّاً.

- إبراز صورة دمشق في كلِّ العصور التّاريخيّة: القديمة والعربيّة الإسلاميّة والحديثة والمعاصرة.

- تفسير الأحداث التاريخية واستقصاؤها، وبيان آثارها، على أسس علميّة منهجيّة.

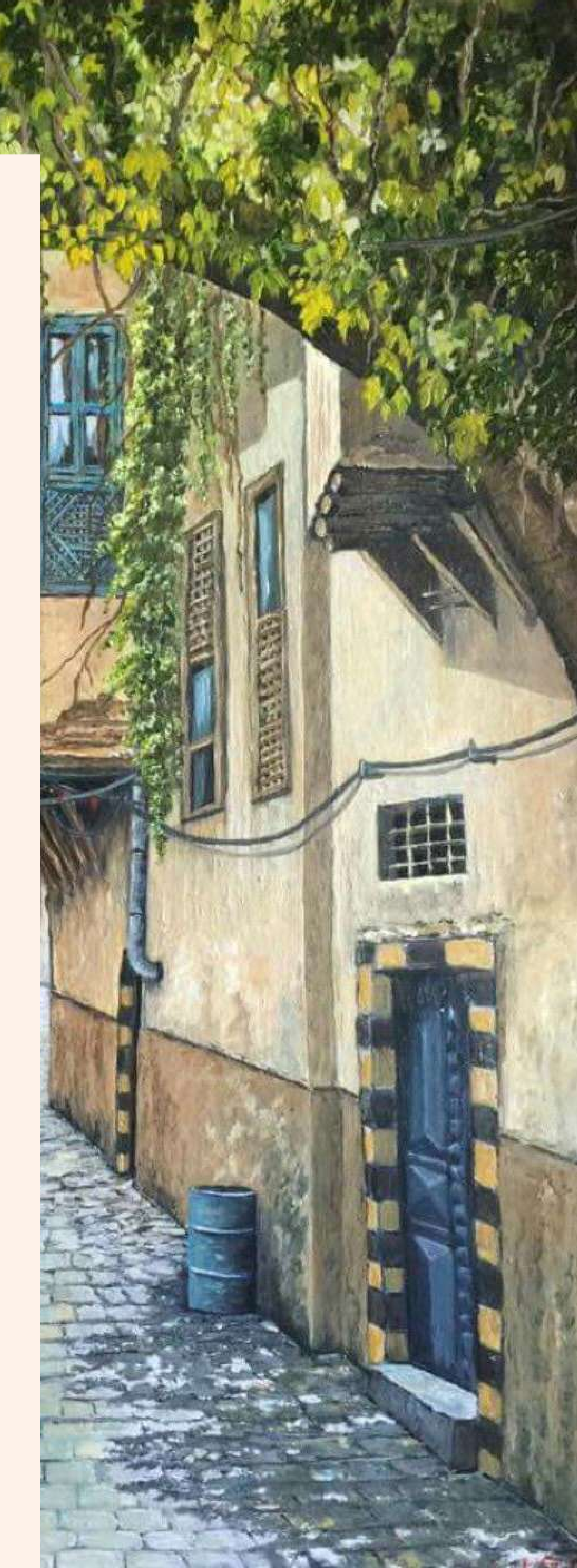
- توجيه الباحثين المعاصرين إلى الموضوعات التاريخية التي تستحقّ الدراسة، وتعزيز الانضباط العلمي والمنهجي والأصالة والجدِّيّة في كتابة البحوث، ومناقشة الظواهر التاريخية.

- إيجاد مصدر علمي ثقافي يتَّصف بالمصداقيّة، ويكون مُتاحاً أمام المهتمين بحضارة دمشق وتاريخها.

- الإفادة من خبرات الباحثين والمختصين وأساتذة الجامعات في تعميق الثقافة التاريخية، وإظهار جوانبها، وتطوير المعارف التاريخية ومناهج دراستها.

- إتاحة المجال أمام طلاّب الدِّراسات العليّا في الماجستير والدكتوراه للمشاركة بأبحاثهم ودراساتهم في المجلة.

- التعاون مع هيئات علميّة داخليّة وخارجيّة تتَّصف بالأكاديميّة والموثوقيّة والمصداقيّة.



إدارة التحرير:

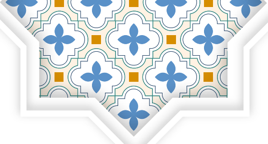
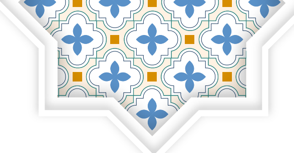
• الموقع الالكتروني: www.dimashq.cc

– تُرسل البحوث والمراسلات باسم رئيس التحرير على أحد البريدين الالكترونيين:

publishing@dimashq.cc
dimashq@damascus-foundation.org

– يمكن متابعة تفاصيل قواعد التوثيق على موقع مجلة تاريخ دمشق أو موقع مؤسسة تاريخ دمشق:

www.dimashq.cc
www.damascus-foundation.org





مؤسسة تاريخ دمشق هي مؤسسة وطنية غير حكومية وغير ربحية، تُعنى بتاريخ مدينة دمشق، من خلال إطلاق مشاريع وبرامج بغاية الحفاظ على وثائق مدينة دمشق وجمعها وتصنيفها، إضافة إلى البحث عن حقيقة تراث المدينة وتاريخها وأنماط العيش فيها وإعادة تصويب ما شابها من أخطاء، وحفظها من الضياع والاندثار.

أشهرت المؤسسة بقرار وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل رقم ١٠٤١ تاريخ ١٨ نيسان ٢٠١٧.

أهداف المؤسسة

توثيق تاريخ مدينة دمشق وما يتعلق بها عبر العصور من خلال جمع صور وقصص وأوراق ووثائق تتعلق بتاريخ المدينة.

إقامة المعارض والمتاحف والفعاليات التوثيقية التي تعنى بتاريخ مدينة دمشق، وذلك من خلال مختلف الوسائل المتاحة سوآءا كانت مادية أو الكترونية.

إطلاق برامج وجوائز سنوية تشجيعية للمؤرخين الشباب والأكاديميين، للبحث في تاريخ مدينة دمشق.

إقامة البرامج التدريبية في مجال التوثيق والأرشفة والبحث العلمي والتاريخي.

إقامة الندوات والمحاضرات والفعاليات والأنشطة المختلفة التي تعنى بتاريخ مدينة دمشق عبر العصور.

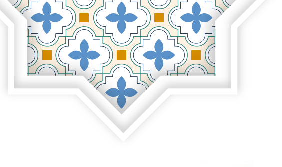
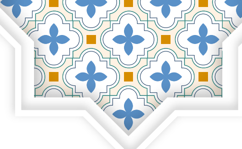
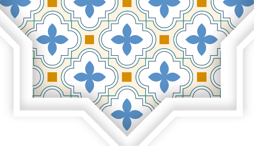
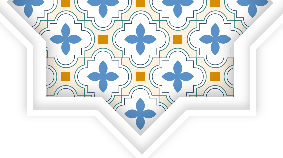
إطلاق بوابة إلكترونية تعنى بتاريخ مدينة دمشق بلغات عديدة إضافة للعربية، يتم من خلالها نشر أبحاث ومقالات تاريخية عن مدينة دمشق، ونشر صور و مواد سمعية وبصرية وأفلام وثائقية تعنى بتاريخ مدينة دمشق.

إبرام الاتفاقيات ومذكرات التعاون مع مؤسسات سورية محلية أخرى والتعاون معها ومع المؤسسات الأكاديمية المحلية المرموقة، بما يعزز تبادل الخبرات مع هذه المؤسسات وبما يسهم في استمرار تطوير عمل المؤسسة.

بناء مكتبة متكاملة تشكل أرشيفا لتاريخ مدينة دمشق تضم نسخا من كل ما نشر عن تاريخ المدينة من كتب ومجلات ودوريات وصحف ووثائق قديمة وعملات وطوابع قديمة، لتوضع في خدمة الباحثين والمجتمع.

التواصل مع المؤسسات التي تعمل في نفس المجال في الدول العربية والعالم، وابرام الاتفاقيات و مذكرات التعاون لتبادل الخبرات بما يسهم في استمرار تطور عمل المؤسسة وخبراتها البحثية.

مؤازرة المؤسسات الرسمية المعنية والمبادرات الهادفة إلى توثيق تاريخ سورية عموما أو مبادرات مماثلة لمؤسسة تاريخ دمشق تخص مدن سورية أخرى







The Damascus History Foundation is a non-governmental non-profit Syrian organization dedicated to the history of Damascus. The DHF carries out a broad spectrum of programmes aimed at collecting, classifying and preserving historical documents pertaining to the city of Damascus. In addition, DHF seeks to design and implement inclusive research projects on the history of Damascus with the aim of preserving the city's heritage and its authentic way of life.

The DHF was founded per decision #1041 of the Syrian Minister of Social Affairs and Labor on 17 April 2017.

Damascus History Foundations aims to…

Document the history of Damascus through the collection of relevant photographs, manuscripts, private papers and official documents.

Launch exhibitions, galleries and documentary initiatives on the history of Damascus through using any available sources.

Design and launch promotional programmes and awards for young historians and academics interested in working on the history of Damascus.

Design and implement training programmes in the fields of documentation, archiving and historical research methods.

Organise seminars, lectures and other activities centred on the different aspects of the history of Damascus.

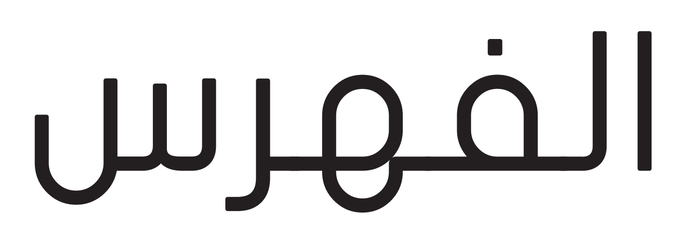
Launch an electronic platform dedicated to the history of Damascus in order to facilitate the publication of photographs, audio-visual material, academic articles and other relevant material on the history of Damascus.

Cooperate with other local Syrian organisations and academic institutions, in order to exchange knowledge and experience, to the benefit of all parties.

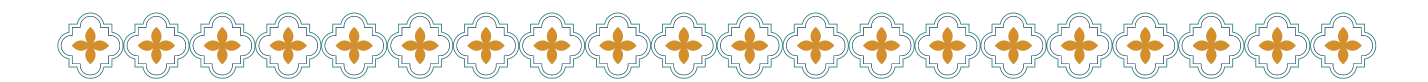
Build an inclusive library dedicated to the history of Damascus, with the aim of collecting all published works on the topic, in addition to magazines, periodicals, news papers, official documents and stamps. DHF will make these material available to researchers and students, and to the general public.

Cooperate with organisation working on similar topics across the world in order to share knowledge and experience.

Support relevant government insinuations and initiatives aimed at documenting the history of Syria and Damascus.



الفهرس



الجماجم المُقَولبة وعبادة تقديس الأجداد 10
د. فردوس محمد الخطيب

دمشق قبل الحملة الفرنجية الصليبية الثانية وخلالها 28
الدكتور أسامة شحادة

دمشق في عهد نور الدِّين محمود بن زنكي 44
شريف مُوفَّق رجب

العَبَقُ الشَّاميّ في شعرِ نزار قبّاني 68
الدكتور شوقي المعرّي

ابن فضل اللّٰه العُمري الدِّمشقي الألمعي الذي لم يشتهر 96
أ.د عمار محمد النهار

الوقف على خدمات التعليم بدمشق في عصر المماليك 116
د. أسماء خالد معاذ

أسرة شمدين آغا ودورها في دمشق في القرن التاسع عشر 134
أ. م د. علي صالح حمدان حامد

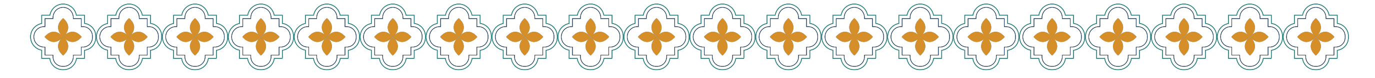
من قتل أمير الحج الشامي؟ حياة عبد الرحمن باشا اليوسف ومقتله سنة ١٩٢٠م 152
الدكتور سامي مروان مبيّض

أوراق عن عائلة العابد بخطّ المؤرِّخ الدمشقي عميد الأسرة 168
أ.د مفيد رائف العابد

الحمامات العثمانية في حي الميدان الدمشقي دراسة تاريخية أثرية 176
الدكتورة فاطمة هنداوي



Content



Molded skulls and the cult of ancestors 10

Dr. Firdous Muhammad Al-Khatib

Damascus Before and during the Second Crusade 28

Dr. Osama Shehadeh

Damascus during the era of Nur al-Din Mahmod Bn Zanki 44

Shareef Moufak Rajab

Levantine fragrance in a Poetry of Nizar Qabbani 68

Dr. Chawki almaari

Ibn Fadlallah Al-Omari Al-Dimashqi The unrecognized brilliance 96

Prof. Ammar Mohamed Al-Nahar

Endowment on education services in Damascus In the era of the Mamluks 116

Dr. Asma Khaled Moaz

The Shamdin Agha family and its role in Damascus in the nineteenth century 134

Dr. Ali Salih Hamdan Hamed

Who killed the Emir of Hajj? The life of Abdul Rahman Pasha al-Yusuf until World War I. 152

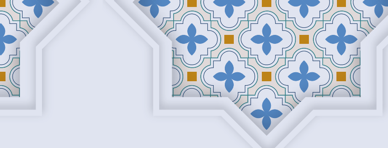
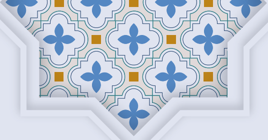
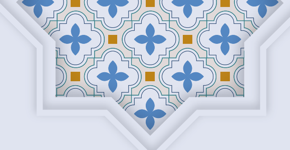
Dr.Sami Moubayed

Papers on the Al-Abed family In the handwriting of the Damascene historian, the head of the family 168

Prof. Dr. Mufeed Raif Al-Abed

The Ottoman Baths in Al-Midan neighborhood of Damascus Archaeological study 176

Dr. Fatima Hindawi


الاستهلال

صدر العدد الأول من مجلة تاريخ دمشق، وما زلنا نعيش مع الأصداء التي تلقَّيناها من القرَّاء والباحثين والمتخصِّصين والغيورين، ومعظمها كال لنا بالمديح الكبير والثناء العميم على المبادرة الفريدة بإطلاق مجلة متخصِّصة بتاريخ دمشق وكل ما يتعلَّق بها، وشمل الثناء الأبحاث النَّوعية التي احتواها ذلك العدد، وشهرة كاتبيها وإبداعهم في مجال التاريخ والأدب والجغرافيا.

وفي الوقت نفسه همس عدد من الغيورين ببعض الملاحظات، آملين استدراكها في الأعداد اللاحقة، فكنَّا آذاناً صاغية لهذه التنبيهات، وتعاملنا مع الصحيح منها والمنطقي، وتجاوزنا تلك الملاحظات التي لا تصح أو تلك التي لا تتَّصف بالواقعية.

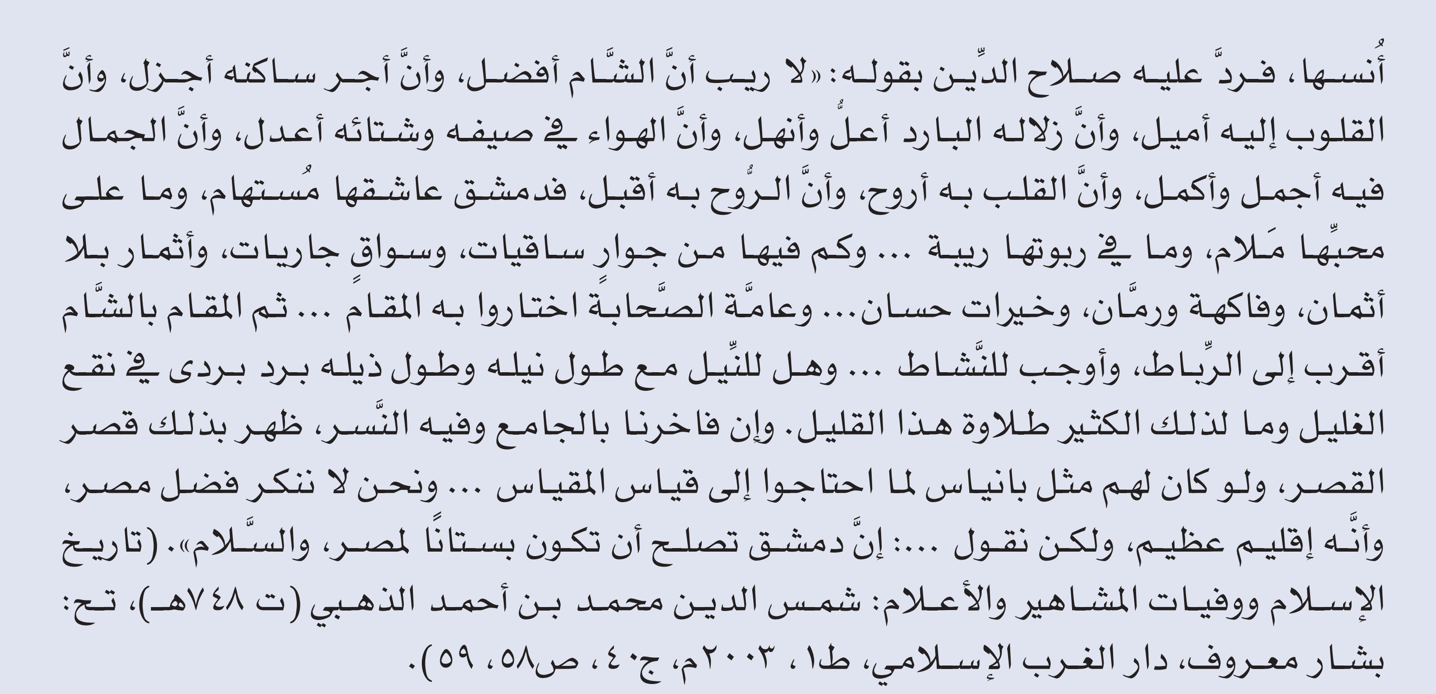
ولن نتردَّد باستقبال أي ملاحظة، وقبول الصحيح والمقبول منها، ما دام ذلك يصبُّ في مصلحة البحث العلمي، ويُطوِّر من عملنا، ويُغني مسيرة دراساتنا عن مدينتنا الحبيبة دمشق.

ومع إطلاق العدد الثاني من مجلة تاريخ دمشق فإننا نتعهَّد بالثبات على ما تعهَّدنا به من الالتزام بنهج المصداقية والعلمية والأكاديمية والموضوعية قدر الإمكان، ونتعهد بوضع أنفسنا موضع المسؤولية أمام أمانة تاريخية كبيرة مرتبطة بتاريخ دمشق المديد المجيد.

ولا بد من الإشارة والتَّنبيه أنَّنا نتعامل مع جميع الأبحاث التي تصل إلينا بمكيال واحد، دون تمييز أو انتقاء، فمقياسنا هو المنهجية والتوثيق والمصداقية، لذلك اعتذرنا عن عدد من البحوث التي تجاوزت ذلك، ولم تكن قابلة للتصحيح والتطوير، على حين تمسَّكنا بما هو جدير بالنشر، وإن كلَّفنا الكثير من الجهد في التدقيق والتصحيح والتعديل.

ونقتطع في هذا الاستهلال كلاماً للقائد التَّاريخي صلاح الدين الأيوبي، يُفضِّل فيه مدينة دمشق على ما سواها، فهذا واعظٌ يكتب إليه يُشوِّقه إلى مصر ويصف محاسنها ومواطن



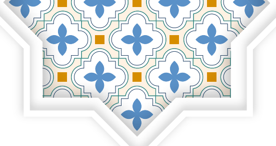
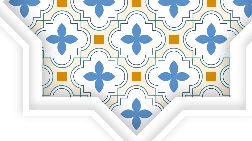
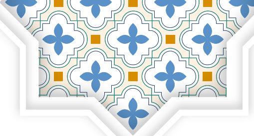
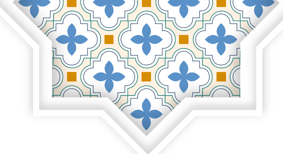


أُنسها، فردَّ عليه صلاح الدِّين بقوله: «لا ريب أنَّ الشَّام أفضل، وأنَّ أجر ساكنه أجزل، وأنَّ القلوب إليه أميل، وأنَّ زلاله البارد أعلُ وأنهل، وأنَّ الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأنَّ الجمال فيه أجمل وأكمل، وأنَّ القلب به أروح، وأنَّ الرُّوح به أقبل، فدمشق عاشقها مُستهام، وما على محبِّها مَلام، وما في ربوتها ريبة ... وكم فيها من جوار ساقيات، وسواقٍ جاريات، وأثمار بلا أثمان، وفاكهة ورمَّان، وخيرات حسان... وعامَّة الصَّحابةً اختاروا به المقامً ... ثم المقام بالشَّام أقرب إلى الرِّباط، وأوجب للنَّشاط ... وهل للنِّيل مع طول نيله وطول ذيله برد بردى في نقع الغليل وما لذلك الكثير طلاوة هذا القليل. وإن فاخرنا بالجامع وفيه النَّسر، ظهر بذلك قصر القصر، ولو كان لهم مثل بانياس لما احتاجوا إلى قياس المقياس ... ونحن لا ننكر فضل مصر، وأنَّه إقليم عظيم، ولكن نقول ...: إنَّ دمشق تصلح أن تكون بستانًا لمصر، والسَّلام». (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تح: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م، ج٤٠، ص٥٨، ٥٩).

ونستغل هذا الاستهلال لندعو إلى وقف التَّغنِّي بمدينة دمشق بالأقوال، والتَّوجه إلى تحقيق الوثائق والنُّصوص التَّاريخيَّة الدِّمشقيَّة ونشرها، ودراسة تاريخ دمشق وعمارتها وأبنيتها الَّتي تعدُّ بالمئات، آملين أن تكون مجلَّتنا حافزًا نحو تصحيح مسار الاتِّجاه العلمي في الدِّراسات الدِّمشقيَّة. ونردِّد هنا ما قاله المؤرِّخ الشَّيخ محمد أحمد دهمان عام ١٩٤٧: «درهم عمل خير من قنطار كلام» (انظر المروج السندسية الفيحية في تلخيص تاريخ الصالحية: محمد بن عيسى بن كنَّان الصالحي (ت ١١٥٣هـ)، نشره محمد دهمان، دمشق، مطبعة التَّرقي، ١٩٤٧، ص (أ)).

وأخيراً: ها نحن نضع بين أيديكم العدد الثاني من مجلة تاريخ دمشق، ومع أبحاث جديدة متميزة، تشتمل على تواريخ دمشق القديمة والعربية الإسلامية والحديثة، ولكُتَّاب متخصِّصين، آملين أن تنال القبول، وأن تُحقِّق الأهداف المرجوة، وأن تخدم مسيرة الدراسات البحثية الدمشقية.

المدير ورئيس التحرير

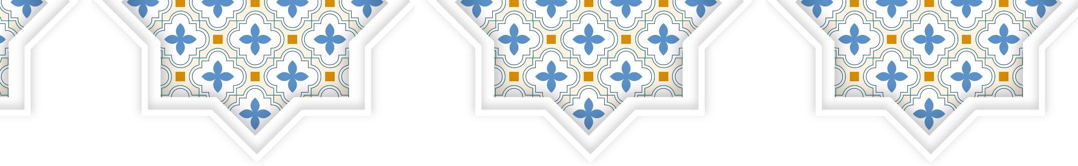








Molded skulls and the cult of ancestors

An archaeological study on the Neolithic hills of Damascus

Dr. Firdous Muhammad Al-Khatib



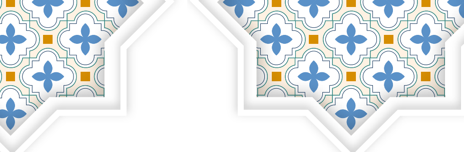
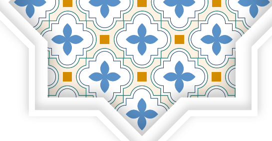
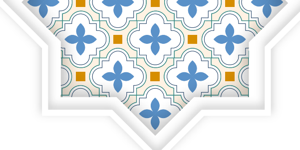


الجماجم المُقولبة وعبادة تقديس الأجداد

دراسة أثرية على تلال دمشق العائدة للعصر الحجري الحديث

د. فردوس محمد الخطيب(1)

(1) دكتوراه في تاريخ الشرق القديم من جامعة دمشق، محاضرة في كلية الهندسة المعمارية في جامعة دمشق، ومركز فخري البارودي.

ملخص البحث

يتناول البحث الدور الذي أدته مناطق الاستقرار البشري الأول في منطقة دمشق، والعائدة إلى العصر الحجري الحديث، أو ما بات يعرف بالمدة النيوليتية، حيث منحتنا نتائج تنقيبات البعثات الأثرية العاملة في مواقع غوطة دمشق (تل أسود وتل الرماد والبحارية) وثائق مهمةً جداً عن المعتقدات الدينية المرتبطة بوجود الجماجم المقولبة، والأفكار الروحية حول حقيقة عبادة الأجداد من خلال تقديس جماجمهم.

تمهيد:

من المعروف أن علماء التاريخ والباحثين في المجال الأثري يتفقون –بما لا يقبل الشك– على قدم تاريخ منطقة دمشق وما حولها، إلا أن الوثائق التاريخية المكتوبة حول المدينة في عصور ما قبل التاريخ قليلة جداً، وتكاد تكون نادرة في حقيقة الأمر، وهذا الأمر جعل الباحثين عن تفاصيل الحياة بشتى مجالاتها يتَّجهون إلى الوثائق الأثرية التي تُقدِّم لنا تأريخاً علميّاً دقيقاً لمنطقة دمشق وسماتها الحضارية عبر التاريخ.

وقد شاركت منطقة دمشق وتلالها الأثرية في صياغة جزء مهم جداً من تاريخ بلاد الشام وحضارتها في العصر الحجري الحديث(٢)، فقدمت لنا غوطة دمشق معلومات مهمة جداً عن بدايات استقرار الإنسان القديم وأنشطته الاقتصادية الأولى ومعتقداته الدينية، حيث تقاربت الأفكار وتشابهت المعتقدات في التلال الدمشقية التي انتشرت فيها عادةُ تقديس الأجداد بعبادة جماجمهم المقولبة، كما دلَّت الكشوف الأثرية في أسود وتل الرماد وتل البحارية، مع المعتقدات التي عرفتها أريحا بفلسطين وشاتال هويوك بتركيا العائدة للفترة التاريخية ذاتها، لتبقى هذه المراكز الحضارية الثلاثة شواهد هامةً على العصر الحجري الحديث حتى اليوم.

أولاً _ المكتشفات الأثرية المرتبطة بتقديس الأجداد في منطقة دمشق:

بدأت الدلائل الأكثر قدماً للاستقرار البشري المرتبط بالزراعة وتدجين الحيوان، في منطقة دمشق، تأتي من المواقع الأثرية القريبة من بحيرة العتيبة ومنخفض الهيجانة، والتي كانت حياة السكان فيها مرتبطة بشكل رئيسي بوجودهما واتساعهما، كما في تلال أسود وتل الرماد وتل البحارية، التي تؤكد أن دمشق قدمت أدلة استثنائية وهامة جداً لميزات العصر الحجري الحديث، كمستوطنات بشرية للاستقرار والزراعة وبدايات التدجين، وظهور سمات فنية مميزة في هذه المنطقة.

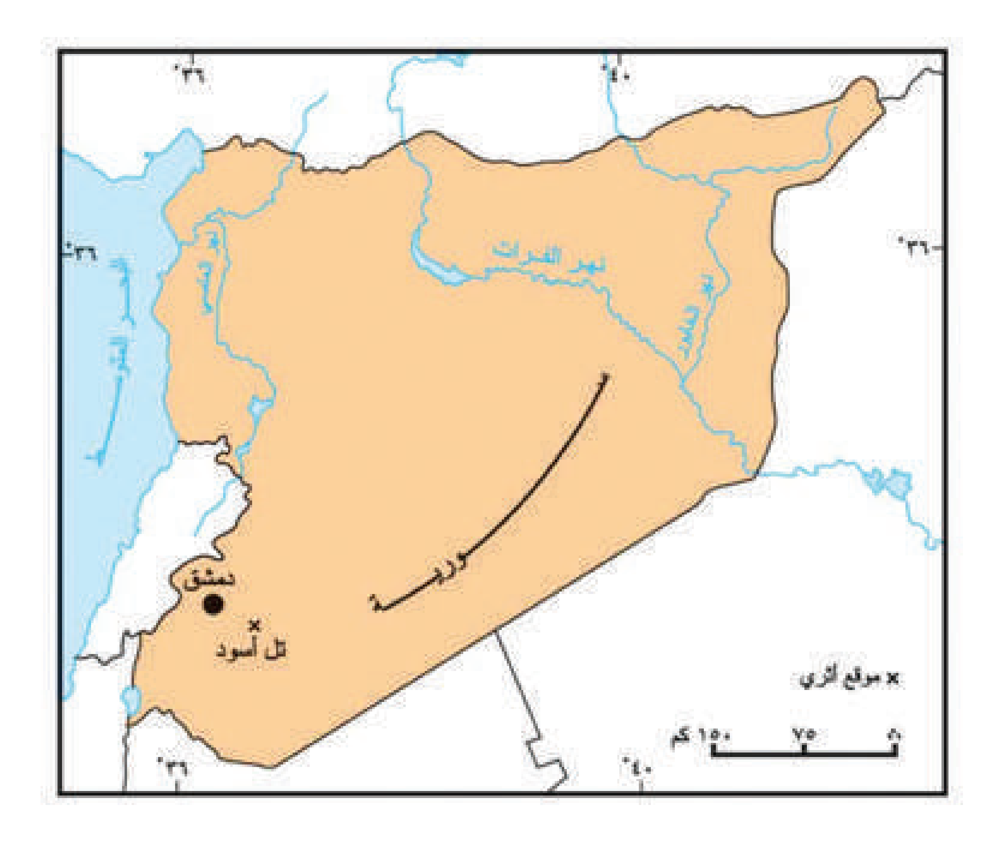
تل أسود: يقع تل أسود الأثري في غوطة دمشق في منطقة جنوب شرقي مدينة دمشق بحوالي ٢٠ كم، إلى الشرق من بلدة جديدة الخاص، ومساحة التل قرابة ٥ هكتارات، ويتبع اليوم إدارياً لناحية النشابية بريف دمشق.

---

(2) العصر الحجري الحديث أو العصر النيوليتي هو عصر الاستقرار البشري والزراعة وتدجين الحيوانات، وقد بدأت ثورة النيوليت تدريجيّاً حوالي10000 ق.م، عرفت في تلال غوطة دمشق حوالي9000ق.م في تل أسود وتل الرماد 6200 ق.م، وتل البحارية 6000ق.م.







سُمِّي تل أسود بهذا الاسم لتربته المكونة من الرماد الضارب إلى السواد، اكتشف التل العالم الأثري الفرنسي هنري دوكنتسون في عام ١٩٦٧، حيث قاد أولى حملات التنقيب فيه بين عامي ١٩٧١-١٩٧٢، ثم أُعيد التنقيب في الموقع بين الأعوام ٢٠٠١-٢٠٠٦، بجهود بعثة أثرية فرنسية-سورية، بقيادة دانيال ستوردور وبسام جاموس.

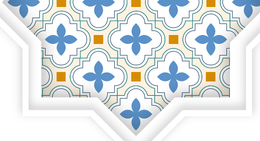
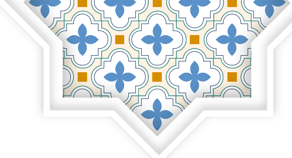
عُثر في التل على سويتين حضارتين رئيسيتين أكدت نتائج الفحم ١٤ على أن السوية الأولى تُؤرَّخ بحوالي ٧٧٩٠-٧٦٩٠ ق.م(٣)، وهي ذات بنية غضارية، كُشف فيها عن بيوت سكنية بسيطة مبنية ضمن وسط طبيعي غنيّ بالموارد الطبيعية، وهي عبارة عن أكواخ دائرية غير منتظمة الشكل واسعة وكبيرة، بعضها محفور في عمق الأرض بمسافة ١٣م تقريبًا، والبعض الآخر مبني فوق سطح الأرض، أما مادة البناء فهي من اللبن والطين والقصب، ومما عُثر عليه داخل هذه البيوت مصاطب وأفران وحفر أساسات لتثبيت الأعمدة، والعديد من أحجار الجرش والأواني الحجرية، فيما عثر بشكل متفرق على أحجار أوبسيديان (السبج) والعقيق والسيتاتيت، والمميز اتجاه هذه البيوت نحو الشرق مما يجعلها محمية من الرياح الغربية المؤثرة على منطقة التل.

تؤكد لنا الوثائق الأثرية أن سكان تل أسود من أوائل الذين مارسوا الزراعة المروية المعتمدة على مياه البحيرات القريبة، لعدم كفاية مياه الأمطار، وعرفوا تدجين الحيوانات كالماعز والخراف والخنازير والثيران، حيث ازداد لاحقاً تدجين الحيوان في وقت تناقص فيه الصيد البري والنهري، دون أن ينتهي كون المنطقة تمتاز بمنخفضاتها وبحيرتها، التي زادت من فاعلية الأنشطة الاقتصادية التي وفرتها البيئة الطبيعية المحيطة للسكان المحليين.

السوية الثانية الأحدث تاريخيّاً في التل تُؤرخ بـ ٦٧٧٠-٦٥٩٠ ق.م(٤)، وعُثر فيها على رؤوس نبال ومناجل،

(3) الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد: جاك كوفان، ص49.

(4) Leroi-Gourhan Arlette, Van Zeist Wilhem, Cauvin Marie-Claire, De Contenson H., Bakker-Heeres Johanna. A.H. Tell Aswad (Damascène), Vol. 5. pp. 153176-.

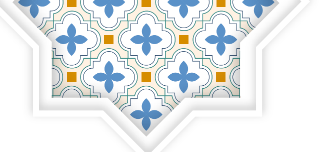
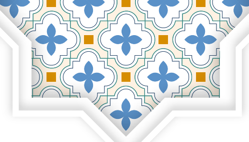
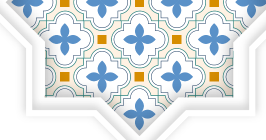
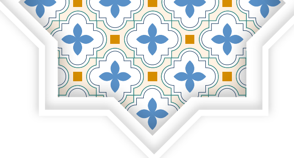






البيت الدائري في تل أسود

ودمى إنسانية وتماثيل لنساء تُجسِّد عقيدة الربّة الأمّ، التي انتشرت في الغالبية العظمى من تلال المشرق العربي، وعلى كامل البقعة الجغرافية السورية والرافدية الملاصقة لها، والتي تؤكد قدسية دور النساء في الحياة الاجتماعية والسياسية. فمن المعروف أن عبادة الربة الأم قد ارتبطت في جميع المواقع التي عُثر فيها على دلائل أثرية لدمى أنثوية بعبادة مظاهر الخصوبة في الشرق القديم بشتى صورها، كخصوبة الأرض وخصوبة المرأة وخصوبة الطبيعة، وقد بات من المؤكد أن انتشار القطع الأثرية الدالة على الربة الأم في جميع المواقع الأثرية المعروفة في منطقة دمشق منذ الألف الثامنة ق.م، كما في غالبية المواقع السورية العائدة إلى الفترة التاريخية ذاتها، ليست ظاهرة فنية في المرتبة الأولى بل هي ظاهرة دينية كرسها الفن، ارتبط فيها مفهوم التقديس الديني للنساء بقدرتهن على منح الحياة، من خلال فكرة الخلق المرتبطة بالإنجاب وحفظ استمرارية البشر، فالأنثى بالنسبة لساكني تل أسود هي الأصل في الكون، ومنبت كل حياة فيه، لتأثيرها في خصب الطبيعة ولدورها في عملية التكاثر واستمرار الحياة البشرية، من خلال إنجاب الأطفال وإرضاعهم وحمايتهم حتى مراحل متقدمة من حياتهم، بالتأكيد فهذه الميزات لنساء الفترة النيوليتية دفعت المجتمع لتقديسها وعبادتها وتمثيلها بهيئة دمى صغيرة لنساء كان بعضها مقتنيات شخصية لربات البيوت تبقى ملازمةً لهن لغرض الحماية أثناء الحمل والولادة.

كان لمكتشفات تل أسود أهميةٌ كبيرة لكثافة ما تم العثور عليه من مكتشفات جنائزية، أوضحت لنا الأفكار الدينية والطقوس التي رافقت سكان هذه المنطقة خلال حياتهم إلى لحظات الموت والدفن وما بعد مرحلة الموت، لقد تم العثور في مدافن تل أسود على جثث لقرابة ١٠٠ شخص محفوظة

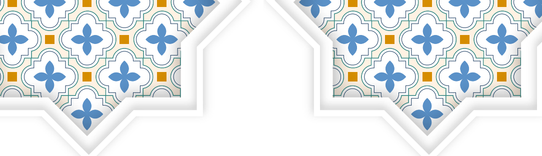
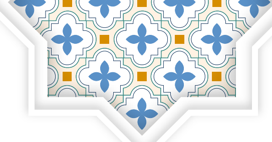
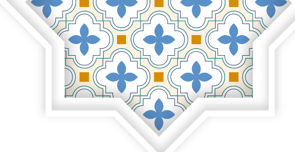


دمى صغيرة تمثل عقيدة الربة الأم- تل أسود

بشكل جيد جدًا، و كان هؤلاء الموتى يُدفنون في البيوت في حفر بدائية أو مستودعات تُفصَل بداخلها الجماجم عن الهياكل العظمية، هذا وكان يختلف مكان دفن الأطفال حديثي الولادة والفتيان عن الكبار، حيث يدفنون في الأماكن الأكثر خصوصية في البيوت، كما تختلف طريقة الدفن أيضاً (فردي- مزدوج-جماعي)، لاعتبارات اجتماعية في غالب الأحيان، أما وضعية الدفن فكانت تتم بوضع الجسد على الجانب الأيسر، أو بالوضعية الجنينية التي كان الجسد فيها يُسجَّى على جانبه الأيمن بوضعية الانكماش الجنيني، واليدان موضوعتان على الوجه، والركبتان على ارتفاع الكوع الأيمن، كما وُجد الكوع الأيسر في غالبية الهياكل المدفونة منحنياً نحو الأسفل في اهتمامٍ واضح بكل تفصيلٍ من تفاصيل الشعائر الجنائزية المتبعة محليّاً، كما عُثر في تنقيبات عام ١٩٧١ علىً جيب في الأرض مملوء بالتراب، ووُجد فيه على عمق ٢,٥٠م جمجمة مفردة مع هيكل عظمي، وأربع جماجم مفردة، اثنتان منهما لطفلتين صغيرتين(٥)، وعندما بدأت أعمال البعثة الفرنسية السورية في الموقع عام ٢٠٠٠ عَثرت على مجموعة من الجماجم المقولبة والمطلية باللون الأحمر والقار، وأعينها منزلة بالصدف، وجميعها مدفونة تحت أرضيات البيوت السكنية(٦).

كما قدم لنا تل أسود في تنقيبات لاحقة كشف عنها دانييل ستوردور وبسام جاموس في عام ٢٠٠٨-٢٠٠٩ تسعةً من الجماجم المقولبة الواضحة جداً، ما تزال هذه الجماجم تحتفظ بالفك السفلي والأسنان وأعينها مغمضة، الوجه حقيقي وناعم جداً، والأهداب ممثلة بشريط من القار،

(5) هنري دوكونتسون: تل أسود في غوطة دمشق، الحوليات الأثرية السورية، ص188.
(6) محمود حمود: شعائر الدفن وطقوسه القديمة في منطقة دمشق والجنوب السوري منذ العصور الحجرية وحتى العصر الآرامي، ص94-96.

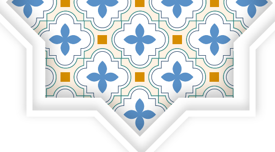
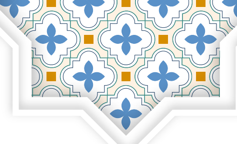
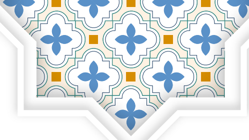
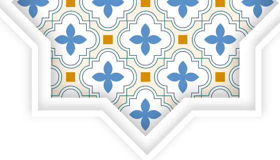




الجماجم والهياكل العظمية المكتشفة في مدافن تل أسود

أنوف الجماجم طويلة، والأذنان كبيرتان، وتظهران عبر انحناء نحو الخارج لطرف الجسم(٧)، الجماجم التي عثر عليها في التل كانت مقولبة بالجص ومطلية بالمغرة الحمراء وسط قبور جماعية(٨) ، كما احتوت هذه القبور الجماعية على عدد من الهياكل العظمية البشرية على مسافات متباعدة، أحد هذه الهياكل هي لشاب صغير مُمدَّد على جانبه الأيسر بوضعية الثني، ويده اليمنى موضوعة فوق الجمجمة في وضعية جديدة نسبيّاً، حيث تقلُّ الوضعيات المشابهة لهذه الوضعية في التلال القريبة المعروفة، بينما مكتشفات أخرى داخل هذه القبور أظهرت هيكلاً عظميّاً لشابٍ بالغ، تم نزع فكه السفلي، ثم وضعه بجانبه، لتبدو حالة نزع الفك السفلي للجماجم أو الإبقاء عليها تَحظى بأهمية ملحوظة، كون بعض الهياكل كان يحافظ على بقاء الفك، بينما يُنزع ولا يُعثر عليه بجانب جماجمَ أخرى، ويُنزع ويُدفن ملاصقاً لجماجم في مواضع مغايرة، كما أنه لا يمكننا التكهُّن بالأسباب التي دفعت السكان لهذا الأمر فيما لو كان لأسباب تقنيةٍ خاصةٍ بحالة القولبة والتجصيص، أو لاعتبارات فلسفية دينية محلية.

(7)- Des crânes surmodelés à Tell Aswad de Damascène (PPNB – Syrie), Vol. 29 N°2. pp.109115-.

(8) منطقة دمشق والثورة النيوليتية: دانييل ستوردور وبسام جاموس، الحوليات الأثرية السورية، مج51-52، ص87-91.

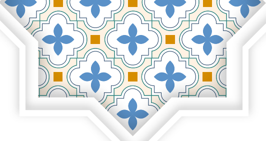
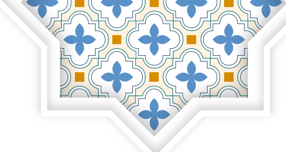


نماذج من الجماجم المقولبة من تل أسود

-تل الرماد:

يقع التل جنوب غربي دمشق بحوالي ٢٥ كم، بالقرب من بلدة قطنا بريف دمشق، تقارب مساحته ٣ هكتارات، ويعود إلى ذات الفترة التاريخية التي يعود إليها تل أسود حيث تؤرخ مكتشفاته بحوالي٦٢٠٠ ق.م[٩]، وتأتي تسميته كتوصيف لنوعية تربته السوداء المشابهة لتربة تل أسود أيضًا، فالتل يتربَّع فوق هضبة بازلتية في أسفل جبال لبنان الشرقية، حيث كان من اللافت قيام مستوطنة زراعية في منطقة بعيدة عن منخفضي العتيبة والهيجانة، معتمدة بشكل أساسي على الزراعة البعلية تبعاً للأمطار الهاطلة في المنطقة، أول ما تم التعرف على التل الأثري كان في عام ١٩٣٦، إذ قام بأول أسبار أثرية فيه الموظف الفرنسي في مصلحة الجمارك كومبان، مع الضابط الفرنسي بوتو، واستطاعاً العثورَ على عدد مهم من القطع الأثرية في التل، بدأت البعثات الأثرية الرسمية المختصة بالتنقيب العلمي في التل في عام ١٩٦٣ وحتى ١٩٧٣، بقيادة الآثاري الفرنسي الذي عمل في تل أسود هنري دو كونتنسون، حيث عُثر على ثلاث سويات أثرية تعود للعصر الحجري الحديث، تُؤرَّخ أقدمُها بنحو ٦٢٥٠- ٦٠٠٠ق.م، والسوية الثانية ٦٠٠٠- ٥٨٠٠ ق.م، والثالثة ٥٨٠٠- ٥٥٠٠ ق.م، كشفت تنقيبات تل

(9) الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن ق.م، جاك كوفان، ص78.

الرماد عن مستوطنة زراعية بدأت بيوتها على شكل أكواخ دائرية غير منتظمة البناء، أرضياتها مكلّسة أو مرصوفة بالطين في الطبقات الأولى وبالحجر في طبقات أحدث، كما اختلفت أشكالها ومساحتها وسماكة جدرانها، وتعدّدت وظائفُها السكنية أو الخدمية لاحقاً، وتمَّ العثور فيها على الكثير من الأدوات الحجرية والدمى الطينية لنساء، في إشارة إلى التشاركية مع ما يجاورها من مناطق استقرار بشري في عبادة الربة الأم كمظهر من مظاهر الخصوبة .



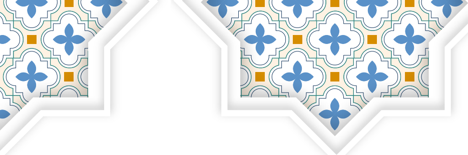
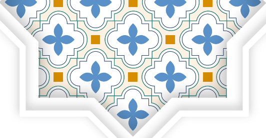
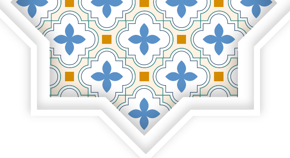
دمية طينية لامرأة جالسة من تل الرماد-المتحف الوطني في دمشق(١٠)

قدمت لنا مكتشفات تل الرماد معلومات هامة جداً عن طقوس جنائزية مرتبطة أيضاً بعبادة الجماجم البشرية المقولبة والمطلية باللون الأحمر، لكن جماجم تل الرماد تميَّزت بكونها متطاولة بشكلٍ وسطي، فيما كان الجبين عريضًا تتراوح سماكة جماجم البالغين بين٥-٩مم في الحدبات الجبهية و٥-١٠مم في اليافوخ و٦-٨مم في الحدبات الجدارية، وتعتبر هذه السماكة طبيعية، في حين تظهر الجبهات الأمامية لجماجم النساء أضعف من الجبهات الأمامية للرجال(١١).

لقد تم التعامل مع هذه الجماجم بالطرق المتعارف عليها، حيث فُصلت عن الجسد، وتم تجصيصها أي تغليفها بالجص، بعد نزع أسنانها، مع المحافظة على ملامحها الأصلية، وتصديف العيون، ومسح

(10) فنون العصر الحجري: مجموعة من المختصين، ص11

(11) دراسة انتروبولوجية للعظام البشرية في تل الرماد، دينز فيرمباخ، الحوليات الاثرية السورية، مج19، ص153.

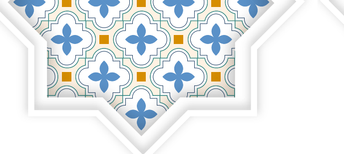
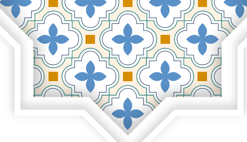
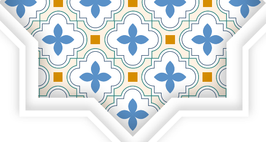
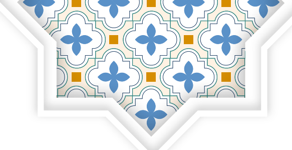

الحواجب بالقار الأسود، وطلائها في مراحلها النهائية بالمغرة الحمراء، لون الحياة، في إشارة واضحة إلى الحياة بعد الموت، كانت هذه الطقوس تتم من قبل أخصائيين يُتمُّون عمليات القولبة لجماجم الموتى، ليكون آخرَ مرحلة من مراحل عملهم اختيارُ الموضع المناسب الَذي ستُدفن به جماجم هؤلاء الأجداد، ويتم ذلك حسب رغبة أقرباء المتوفَّى، وغالباً ابنه الأكبر الذي يحمي جماجم أجداده ويحافظ عليها، تأكيداً على أحقيته لوراثتهم ودوره بحماية مكانتهم بعد الموت. ووُضعت هذه الجماجم في مواضع شتى ملاصقة لسكن البشر، إما داخل البيوت أو في حفر خاصة بها قريبة من المساكن، أو تحت الأساسات أثناء بناء المنازل، دون أن تُجمع مع قبور الموتى الاعتيادية.



جمجمة مقولبة مطلية بالكلس من تل الرماد (٢٠X٤٠ سم) –المتحف الوطني في دمشق.(١٢)

لقد اتَّفقت آراء الباحثين والعاملين في المجال الأثري بأن الطقوس الخاصة بالجماجم المقولبة في تل الرماد لم تكن بالسهولة التي يمكن افتراضها، بل كانت هذه الجماجم أثاثاً جنائزيّاً يتم معاملته بعناية واهتمام بالغين، فيُحفر لها حفرٌ تُخبَّأ بداخلها تحت أرضيات المساكن، وتُعرَض خلال المناسبات والطقوس الدينية الخاصة بالعائلة(١٣)ضمن هالة قداسية كبيرة، لا تقل أبداً عن تلك الطقوس

(12) فنون العصر الحجري: مجموعة من المختصين، ص9.
(13) هنري دوكونتيسون، وليم فان لير: أسبار تل الرماد عام1963م، مجلة الحوليات الأثرية، مج14، ص275-284.

الجنائزية التي قام بها المصريون في مراحل متقدمة، بل يُمكن أن نصفها هي والأفكار المصاحبة لها بأنها أكثر تطوُّراً فيما لو قارناها بالفارق الزمني الفاصل بين حضارتي المنطقتين، ومع أن جميع ما عُثر عليه من جماجم في تل الرماد كانت مجصصة ومقولبة ومطلية بالمغرة الحمراء، إلا أنه تم العثور على جماجم أخرى غير مجصصة أيضاً(١٤)، اعتُقد أنها لأناس عاديين ليسوا من طبقات اجتماعية رفيعة، حيث لم تسمح لهم طبقتهم الاجتماعية وحالتهم المادية بالقيام بقولبة جماجم أجدادهم، هذا إذا استثنينا أن معتقداتهم الفكرية والدينية هي التي لم تجعلهم يتبعون هذه الطقوس، باعتبار أن الأفكار الدينية لجميع السكان كانت متشابهة، ولم تختلف حتى بينهم وبين السكان في تلال سكنية على بعد جغرافي منهم، كتل أسود وتل البحارية، إذ لم تتم الإشارة إلى أية بوادر انقلاب على الطقوس والعادات الدينية التي اتبعها ساكنو منطقة دمشق، بجميع مناطق الاستقرار فيها، خلال هذه الفترة الزمنية على العموم، وفي تل الرماد خصوصاً.

المميز في الجماجم التي عُثر عليها في تل الرماد أنه تم العثور على عدد كبير منها ضمن مجموعات منفصلة مغروسة في الأرض هي على الشكل التالي:

١-جمجمة لطفل مرتكزة على لوح حجري من حجر البازلت مستطيل الشكل.

٢-ثلاثة مخازن احتوت على جماجم منزوعة الهياكل، ضمَّ المخزن الأول ثمانيَ جماجم، خمسةً منها جماجم أنثوية، واثنتين ذكرية، وواحدة لطفل، وضمَّ المخزن الثاني ثلاث جماجم لامرأتين ورجل، والمخزن الثالث على اثنتي عشرة جمجمة مجصصة لرجال ونساء(١٥).



نموذج من الجماجم المقولبة المكتشفة في تل الرماد(١٦)

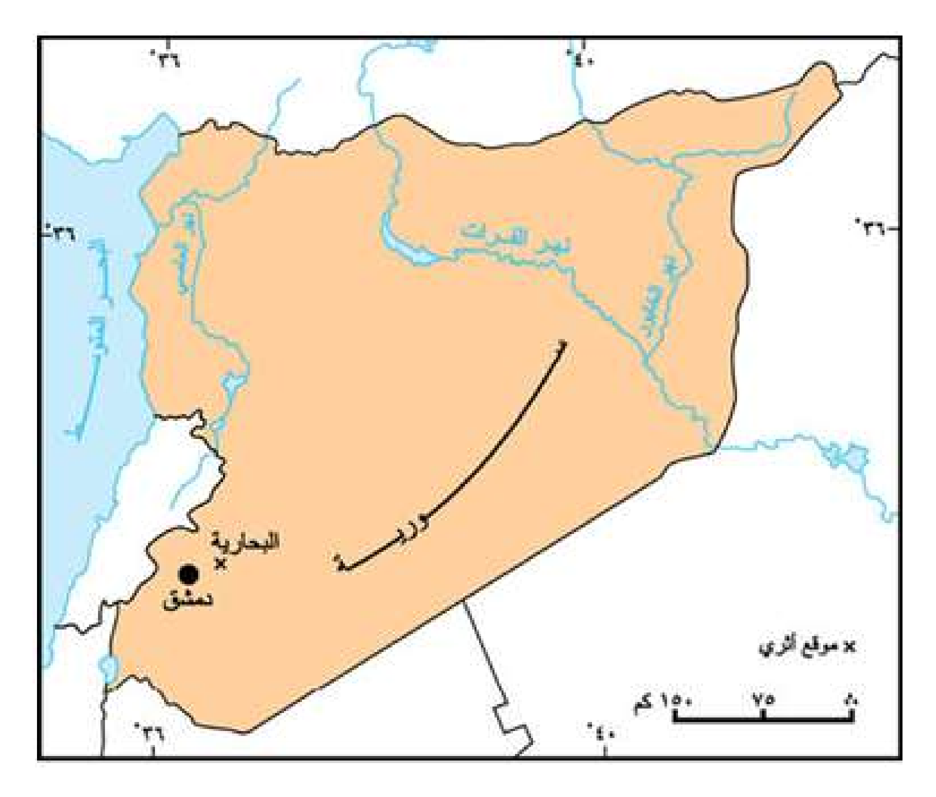
(14) شعائر الدفن وطقوسه القديمة في منطقة دمشق والجنوب السوري منذ العصور الحجرية وحتى العصر الآرامي: محمود حمود، ص98.
(15) خالد محمود أبو غنيمة: أساليب الدفن خلال العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، مجلة دراسات تاريخية، العدد 75-76، من ص3-49، ص20.
(16) شعائر الدفن وطقوسه القديمة في منطقة دمشق والجنوب السوري منذ العصور الحجرية وحتى العصر الآرامي: محمود حمود، ص96.





الجماجم كانت محفوظة في حفر بيضوية، جدرانها من الطين غير المشوي، داخل أوان بيضاء خشنة، تم الفصل بين الأواني بواسطة كرات طينية للحفاظ عليها بحالة سليمة(١٧)، وعُثِّر عليها تحت أساسات بيت صغير من بيوت تل الرماد(١٨)، حيث لا يُستغرَب وجوُد هذا التآلف الأسري الواضح من خلال تلاصق هذه الجماجم ودفنها سوياً رجالاً ونساءً وأطفالاً، بل ما يُثير الاهتمام هذا العدد الكبير، حتى إنه ليبدو أن الأسرة كاملةً كانت تحرص على اتباع شعائر القولبة للحفاظ على صورة الأجداد مستمرةً في أذهان كل من سيأتي بعدهم.

-تل البحارية:

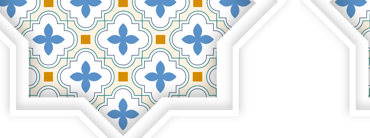
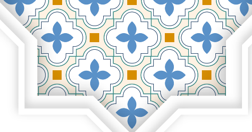
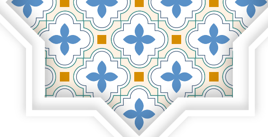


تل أثري يقع في غوطة دمشق على بعد ٢٥ كم شرق دمشق، يتبع لناحية النشابية بريف دمشق، تم التنقيب فيه ببعثة وطنية سورية بدأت أعمالها عام ١٩٩٦.

عُثر في البحارية على ثلاث سويات أثرية يعود تاريخ أقدمها إلى الألف السادس ق.م، فيما أُرِّخت السوية الثانية بالألف الخامس ق.م(١٩). تميَّزت بيوت تل البحارية بشكلها الدائري، الذي اتُبع نمطُه المعماري في العصر الحجري الفخاري الحديث، فالبيت ذو مدخل مستطيل ينفتح في الواجهة على الغرف الدائرية المقسَّمة، قُسِّمت في الداخل إلى غرف للسكن، وأخرى كمطابخ، وُجد في بعضها أفران لشي الفخار، بدليل المصاطب الموجودة لوضع الأواني الفخارية بعد شَيِّها، وقد فُرشت أرضيات هذه البيوت بالكلس أو الطين المدكوك (البلوك الطيني)، بينما بُنيت جدرانها بالطين المقولب، وسقوفها من الطين والخشب.

عُرفت في تل البحارية عبادةُ الإلهة الأم، فكانت تظهر الملامح الأنثوية في الدمى المكتشفة بشكل واضح، إضافةً إلى دمى لطيور وحيوانات، كالخنازير والثيران والكلاب أيضاً، في حين ظهرت طقوس الدفن الجماعي والفردي في القبور التي تم الكشف الأثري عنها في التل، والعائدة إلى الألف السادس

(17) هنري دو كونتنسون، وليم فان لير: أسبار في تل الرماد، ص275-284.
(18) جاك كوفان: ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ص70.
(19) شعائر الدفن وطقوسه القديمة في منطقة دمشق والجنوب السوري منذ العصور الحجرية وحتى العصر الآرامي: محمود حمود، ص103.


ق.م، وعُثر على هياكل عظمية مُسجّاة بوضعية القرفصاء، فالأيدي والأرجل بعضها فوق بعض، والوجه يتَّجه نحو الغرب، بينما لوحظت فكرة تغيير جهة الدفن، فاتجهت بعضُ الوجوه نحو الشرق خلافاً للهياكل السابقة التي دُفنت نحو الغرب.

اللافت للنظر أيضاً نوعية الأثاث الجنائزي الذي عثر عليه في مدافن البحارية، المتمثل بالأدوات الفخارية والصوانية، كما وُجدت كتلٌ من الطين، جُهِّزت لتُوضع فوق الرؤوس، أو تُفرَش ليوضع عليها الجسد، أو كفواصل بين الهياكل، مع خرز من الطين والحجارة، وبعض الحجارة كانت على شكل هلال قمري وعليها بعض الرسومات، في حين كانت مدافن أخرى تعتمد الوضعية الجنينية في الدفن، مع وجود ما يُشبه الوسائد كان يوضع عليها رأس المتوفى.

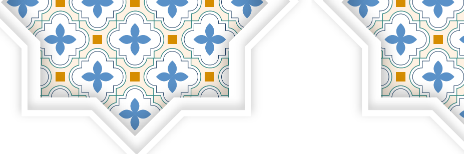
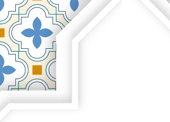
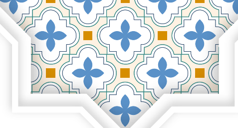
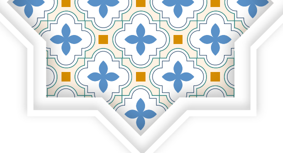


هياكل عظمية من مدافن البحارية

ومما عُثر عليه في مدافن تل البحارية يمكننا تأكيد وجود عبادة الأجداد، عبر تقديس جماجمهم التي وُجدت مفصولةً عن الجسد، ومدفونةً تحت أرضيات البيوت، موضوعة في حفر دائرية، محاطة بالفخار المكسور أو الحجارة متوسطة الحجم، للفصل بين الجماجم، وتحقيقاً لعامل الحماية.

الطريقة الجنينية في مدافن البحارية

إن من المُميَّز والمختلف

أيضاً في مكتشفات تل البحارية أنه تم العثور على أجزاء من حيوانات مدفونة إلى جانب الهياكل البشرية، فتمَّ العثور على جماجم حيوانية مدفونة بعناية في حفر مليئة بالرماد، وأخرى محاطة بقطع الفخار لحمايتها والفصل بينها وبين ما تبقى من موجودات المدفن، حيث وُجدت جماجم لخنازير برية دُفنت تحت أرضيات البيوت في طقوس مشابهة لطقوس دفن جماجم البشر، لدرجة العثور على هياكل عظمية حيوانية مُفتَّتة إلى جانب الهياكل البشرية.



هياكل عظمية حيوانية من مدافن البحارية

في مدفن آخر عُثر على هيكل عظمي لطفل، وبالقرب منه قرن ماعزٍ (٢٠)، كما وُضعت قرون لثيران ضمن جدران المعبد، وهذا ما يشير إلى اعتقادات دينية وفكرية هامة آمن بها سكان البحارية قديماً، فمن المؤكد أن كل هذه الموجودات الحيوانية المدفونة بعناية تشير إلى انتشار عبادات تدعو إلى تقديس الحيوان(٢١) رأفةً به أو رهبةً منه أو تقديراً لما يقدمه للبشر أو لكل هذه الأسباب مجتمعةً.

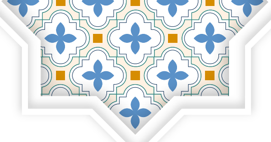
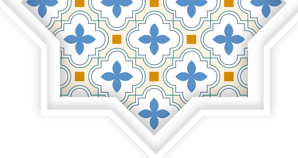
ثانياً ـ المعتقدات الفكرية والدينية حول الجماجم المقولبة:

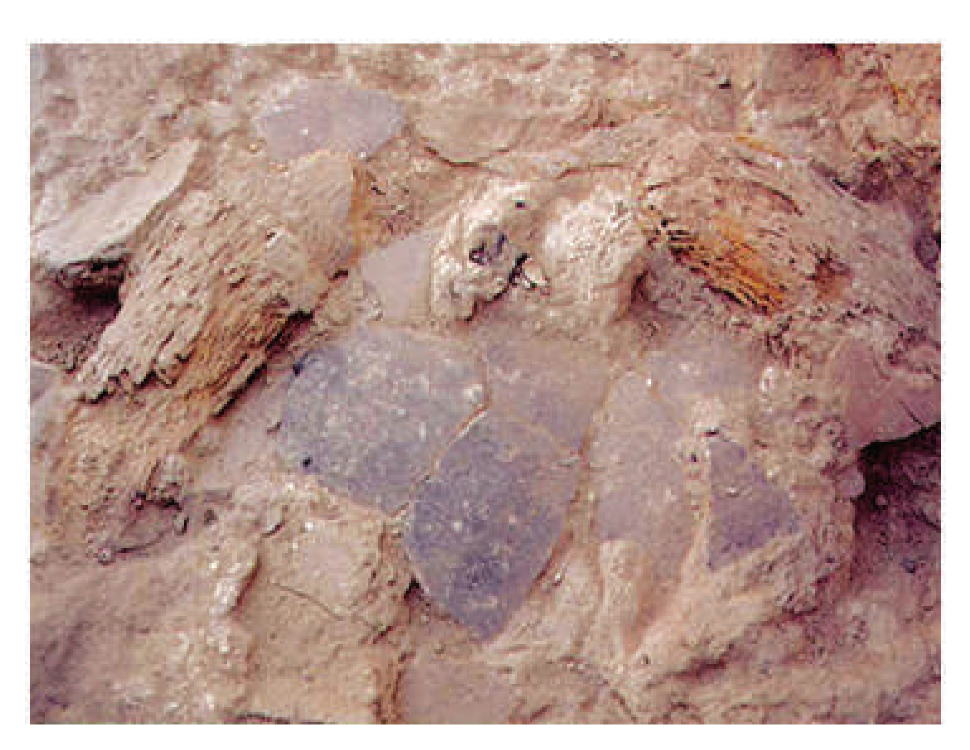
كانت الجماجم المقولبة الفكرة الأولى والأقدم لنحت بورتريهات لوجوه بشرية، بقصد الحفاظ على رأس الإنسان المتوفى بشكل أقرب ما يكون للطبيعة، مع شيء من الفن، الذي يُبقي على صورة مَن تعود له الجماجم المجصَّصة والمطلية بالمغرة والمكلّسة بعناية حيةً في أذهان محبيهم، والأجيال المتقدمة من عائلتهم، فتغيب فكرة الموت لصالح فكرة الحياة.

ولو تبادرت إلى الأذهان التساؤلات حول تخصيص الجماجم ليتم قولبتها وتجصيصها فلن يكون أجدى من التفكير بأنه من الطبيعي جداً وغير المستغرب الحفاظ على الجمجمة دون سائر الجسد، كونها تحوي العقل بداخلها، والذي هو أصل المعرفة وسر الحياة، كما أنها تحمل ملامح وجه الإنسان التي تُميِّزه عن غيره بشكل فارقٍ تماماً.

ولا بد من التأكيد على فكرة ذات أهميةٍ كبيرة، فيما يخص عبادة الأجداد وتقديس جماجمهم،

(20) شعائر الدفن وطقوسه القديمة في منطقة دمشق والجنوب السوري منذ العصور الحجرية وحتى العصر الآرامي: محمود حمود، ص102.
(21) غادة سليمان: نتائج أعمال التنقيب في تل البحارية لموسم 2009م، الوقائع الأثرية السورية، مج7، ص11-21.



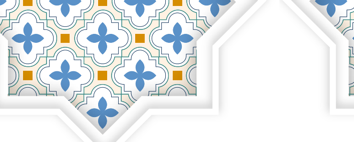
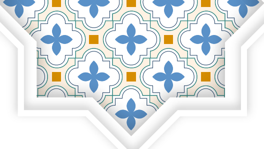
قرون ثيران- تل البحارية

أنه لم يكن هنالك تمييز بين الرجال والنساء من حيث تجصيص الجماجم أو قولبتها، وهذا يدل على مكانة المرأة، وهو أمر لم يشكل غرابة في تلك العصور التاريخية، فيما لو تذكرنا أن النساء كنَّ يحظين بعبادة كاملة، لها طقوسها عبر تجسيدهن لفكرة الربة الأم رمز الخصوبة والولادة والحياة، فكان تجصيص سكان تلال دمشق الأثرية لجماجم نسائهم حالة طبيعيةً، تنبع من اهتمامهم بهنَّ، وحرصهم على إيلائهنَّ مكانة عظيمة في الحياة، وبعد الموت أيضاً.

ولكن ماذا يُمكن أن يعني دفن الجماجم تحت أساسات البيوت؟ وهل يمكن أن يكون لها أي دلالة اجتماعيةٍ أو دينية؟

يبدو أن سكان تلال دمشق الأثرية كانوا يدفنون من يفارق الحياة أثناء تأسيس البيت، أو إنشاء بيت جديد، بعد فصل الجمجمة عن الهيكل العظمي، كأساسات أو ودائع تحتها، بقصد حمايتها، أو لربما قاموا بنقل جماجمهم من أماكن دفنها إلى أرضية بيوتهم للتأكيد على فكرة أن ساكني هذه البيوت سيبقون مقدسين لجماجم أصحابها، لتكون أساسات بيوتهم قوية ومتماسكة ومقدسة، كما هي رابطة الدم بينهم وبين أجدادهم.

ومن المؤكد أنه حتى وإن كانت فكرة قولبة الجماجم فكرة دينية بحتة قدمتها لنا المكتشفات الأثرية فإننا لا يمكن أن ننكر أنها تطور هامٌ جداً في فكرة النحت والفن التصويري المجسم وفن الرموز، تضاف إلى تفاصيل الفنون التي عُرفت في العصر الحجري الحديث، كنحت الدمى والتماثيل الأنثوية سابقة الذكر.

ثالثاً _ ترميم الجماجم المقولبة الموجودة في المتحف الوطني بدمشق:

من الطبيعي أن تتعرَّض القطع الأثرية التي مر عليها الزمن لعوامل تُسهم في تشوُّه الشكل الأساسي أو البنية العضوية للقطع، مما يستدعي الحاجة إلى إعادة ترميمها، بإضافات أثرية مدروسة، في وقت أكدت فيه المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق أنه قد تم الالاساسب أو البنية العضوية للرررتم الكشف عن تدهور في شكل الجماجم المقولبة، وانفصال وتقشر بالمواد اللاصقة الطينية التي تغطي الجماجم المقولبة التي عثر عليها في تل أسود في غوطة دمشق.





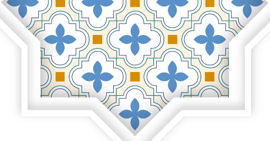
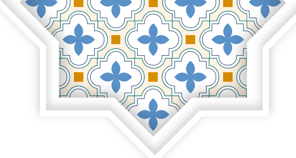
الجماجم المقولبة صور حديثة من المخبر الفني
المتحف الوطني-دمشق

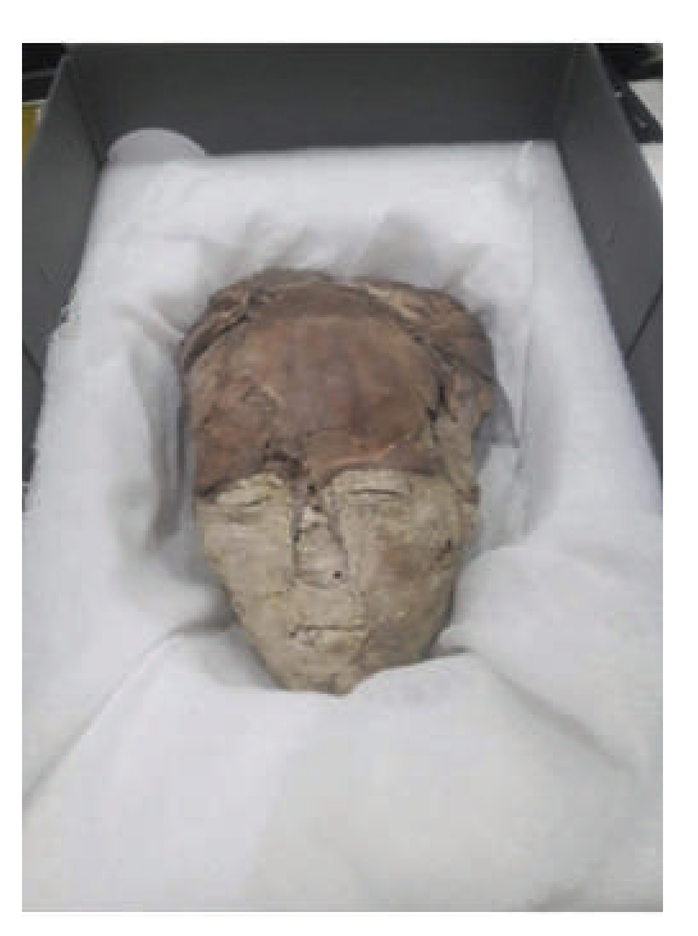
ليتم اتخاذ القرار بالبدء بترميم هذه الجماجم في مخبر المواد العضوية، التابع لمتحف دمشق الوطني، على عدة مراحل علمية دقيقة تمثلت في:

١-البدء بإزالة بؤر الأتربة والأملاح ومواد الترميم السابقة.

٢-الحرص على عدم تخريب الطينة الأصلية المغلفة لعظام الجمجمة أو الكلس إن وجد .

٣-لصق الأجزاء المنفصلة وتدعيم البنية العظمية بطين شبيه بالطينة الأصلية.

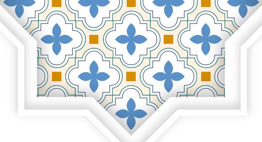
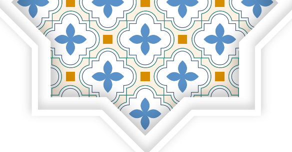





صور حديثة من المخبر الفني –دمشق

وأخيراً:

يبدو أن قاطني دمشق وغوطتها، منذ العصور الحجرية، قد ابتدعوا فكرة تحنيط جماجم الموتى بطريقة تتناسب مع موارد بيئتهم الطبيعية ومعتقداتهم الفكرية والدينية، وعبدوا هذه الجماجم كنوعٍ من التأكيد البشري على أن علاقة الأحياء بالأموات لا تنتهي بالموت، بل تبقى ما بقيت جماجم الموتى قريبة من أماكن سكنى أحبائهم وأحفادهم.


ـ مصادر البحث ومراجعه:

– أساليب الدفن خلال العصر الحجري الحديث في بلاد الشام: خالد محمود أبو غنيمة، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٧٥–٧٦، دمشق،٢٠٠١، من ص٣–٤٩ .

– أسبار في تل الرماد ١٩٦٣ : هنري دو كونتنسون، وليم فان لير، تعريب: عدنان البني، الحوليات الأثرية السورية، مج١٤ ، دمشق ١٩٦٤ .

– تل أسود في غوطة دمشق، هنري دو كونتنسون، تعريب: د .رباح نفّاخ، الحوليات الأثرية السورية.

– دراسة انتروبولوجية للعظام البشرية في تل الرماد ، دينز فيرمباخ، تعريب د .رباح نفّاخ، الحوليات الاثرية السورية، مج١٩ ، دمشق،١٩٦٩ .

– ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام: جاك كوفان، تعريب: سلطان محيسن، مطبعة الشام، ط١ ، دمشق، ١٩٨٨ .

– ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، جاك كوفان، تعريب: سلطان محيسن، مطبعة الشام، ط١ ، دمشق، ١٩٨٨

– شعائر الدفن وطقوسه القديمة في منطقة دمشق والجنوب السوري منذ العصور الحجرية وحتى العصر الآرامي: محمود حمود ، ط١ ، دمشق،٢٠١٠ .

– فنون العصر الحجري: مجموعة من المختصين، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ٢٠٠٨ .

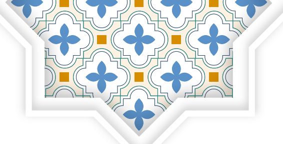
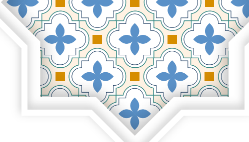
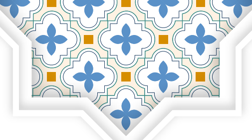
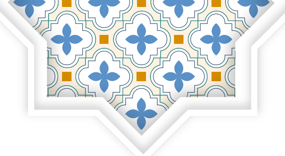
– منطقة دمشق والثورة النيوليتية: دانييل ستوردور، بسام جاموس، الحوليات الأثرية السورية، مج٥١–٥٢، دمشق، ٢٠٠٨–٢٠٠٩ .

– نتائج أعمال التنقيب في تل البحارية لموسم ٢٠٠٩م: غادة سليمان، الوقائع الأثرية السورية، مج٧، المديرية العامة للآثار.

–الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد : جاك كوفان، تعريب: قاسم طوير، مطبعة سورية، دمشق، ط١ ، ١٩٨٤ .

- - Danielle Stordeur: Des crânes surmodelés à Tell Aswad de Damascène (PPNB - Syrie). In: Paléorient. 2003, Vol. 29 N°2.

- Leroi-Gourhan Arlette, Van Zeist Wilhem, Cauvin Marie-Claire, De Contenson H., Bakker-Heeres Johanna. A.H. Tell Aswad (Damascène). In: Paléorient. 1979, Vol. 5.







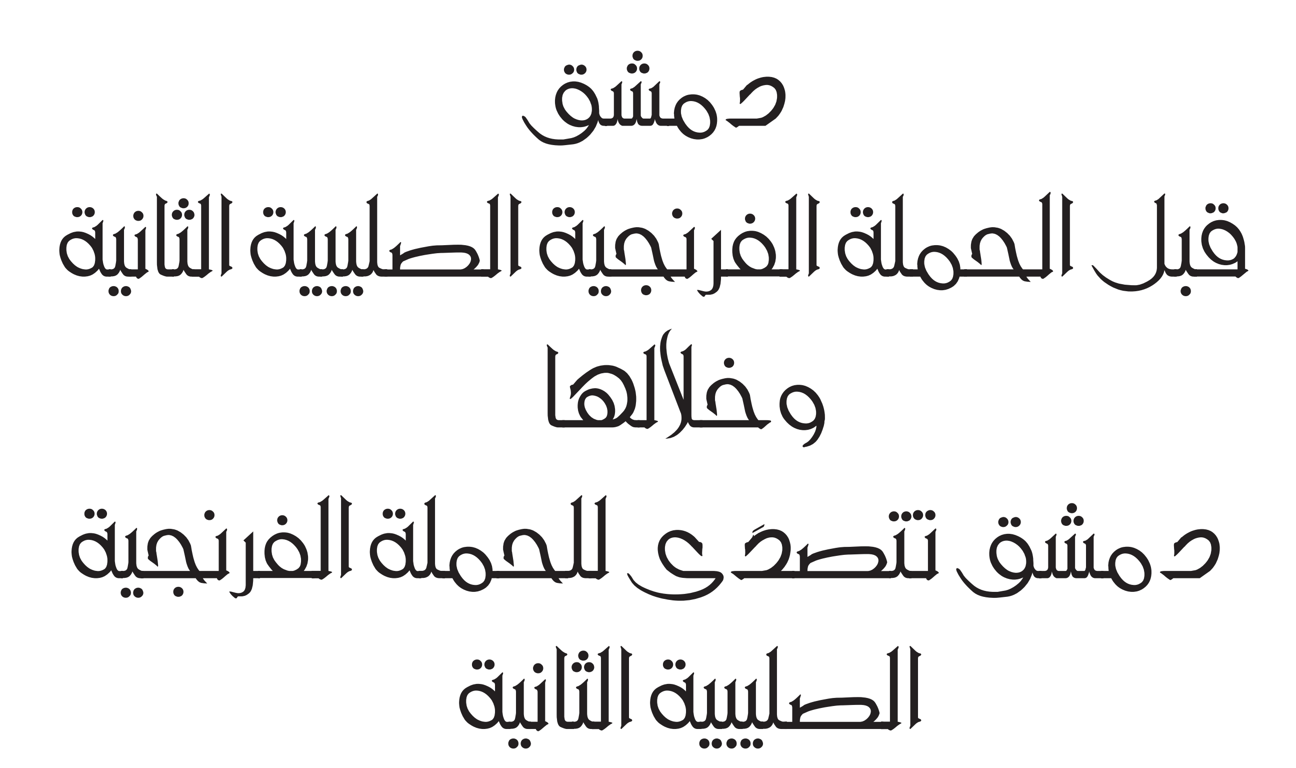
Damascus Before and during the Second Crusade

Damascus confronts)
(the second Frankish Crusade

Dr. Osama Shehadeh





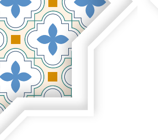
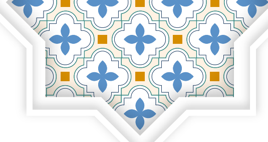
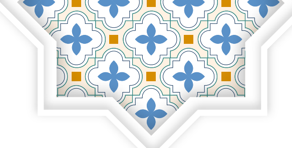


دمشق قبل الحملة الفرنجية الصليبية الثانية وخلالها

دمشق تتصدى للحملة الفرنجية الصليبية الثانية

الدكتور أسامة شحادة(٦)

(1) طبيب وباحث في التاريخ والتراث الدمشقي.



ملخص البحث

كان لدمشق أثر في الحروب الفرنجية الصليبية عامة، والحملة الفرنجية الصليبية الثانية بشكل خاص، وإن كان الباحثون قد توجَّهوا في أبحاثهم إلى تفاصيل الحملة الفرنجية الصليبية الثانية، إلا أنهم لم يعطوا الأحداث التي سبقت هذه الحملة حقَّها، في دمشق وأطرافها، لذلك ركَّز هذا البحث على ظهور الأتابكيات في العالم الإسلامي، وخاصة أتابكية دمشق التي أسَّسها ظهر الدين طغتكين، وشهدت مدة حكمه الحروب الفرنجية الصليبية، ثم كان حصار الحملة الفرنجية الصليبية الثانية لدمشق وأحداثها، ثم فشلها باقتحام المدينة وانسحابها، ونتائج ذلك، وأبرزها إقدام نور الدين محمود بن زنكي على ضم دمشق، لتعيش في عهده مدةً زمنيةً ذهبية على جميع النواحي.

. مقدمة:

أحداث دمشق في التاريخ العربي الإسلامي كثيرة ومتشعبة ومهمة، وكان لها تأثيرها الكبير في أحداث المنطقة وأحداث الدول التي تتابعت على هذه المدينة، وكانت هذه المدينة نصب عين واهتمام الكثير من قادة الدول، كنور الدين محمود بن زنكي والمظفر قطز والظاهر بيبرس.

وكان لدمشق أثر في الحروب الصليبية، ولا سيَّما الحملة الصليبية الثانية، بل كانت أرض هجرة لآل قدامة أو المقادسة الذين كان من أهم أسباب تركهم لفلسطين أفعال الصليبيين في بلادهم.

وإن كان الباحثون قد توجَّهوا في أبحاثهم إلى تفاصيل الحملة الفرنجية الصليبية الثانية، إلا أنهم لم يعطوا الأحداث التي سبقت هذه الحملة حقَّها، في دمشق وأطرافها، فأحببت أن أُسهم بإضاءة هذه المدة لتكتمل الصورة، ولخدمة البحث العلمي.

فالحملة الصليبية الثانية: (٥٤٢ – ٥٤٤ هـ = ١١٤٧ - ١١٤٩م)، هي التي دعا إليها القديس برنارد كليرفو بعد أن استرد عماد الدين زنكي (ت ٥٤١هـ = ١١٤٤م) الرها، وبدأ سلسلة من المعارك ضد الصليبيين انتهت بإجلائهم عن الشرق الإسلامي، وكانت أول حملة يقودها ملوك أوروبا، وهم لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانيا، وبمساعدة عدد من نبلاء أوروبا البارزين.

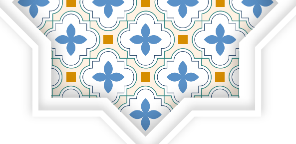
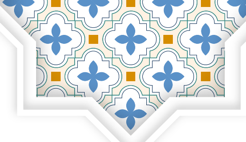
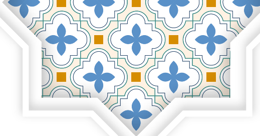
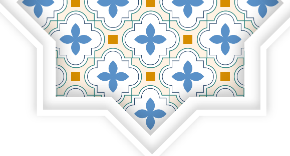
وقاد الجيوش الإسلامية نور الدين محمود الذي خلف أباه عماد الدين زنكي، واستطاع أن يُحرِّر بعض ما كان قد احتله الصليبيون، وأسر جوسلين الثاني وبوهمند الثالث حاكم أنطاكية وريموند الثالث حاكم طرابلس[٢].

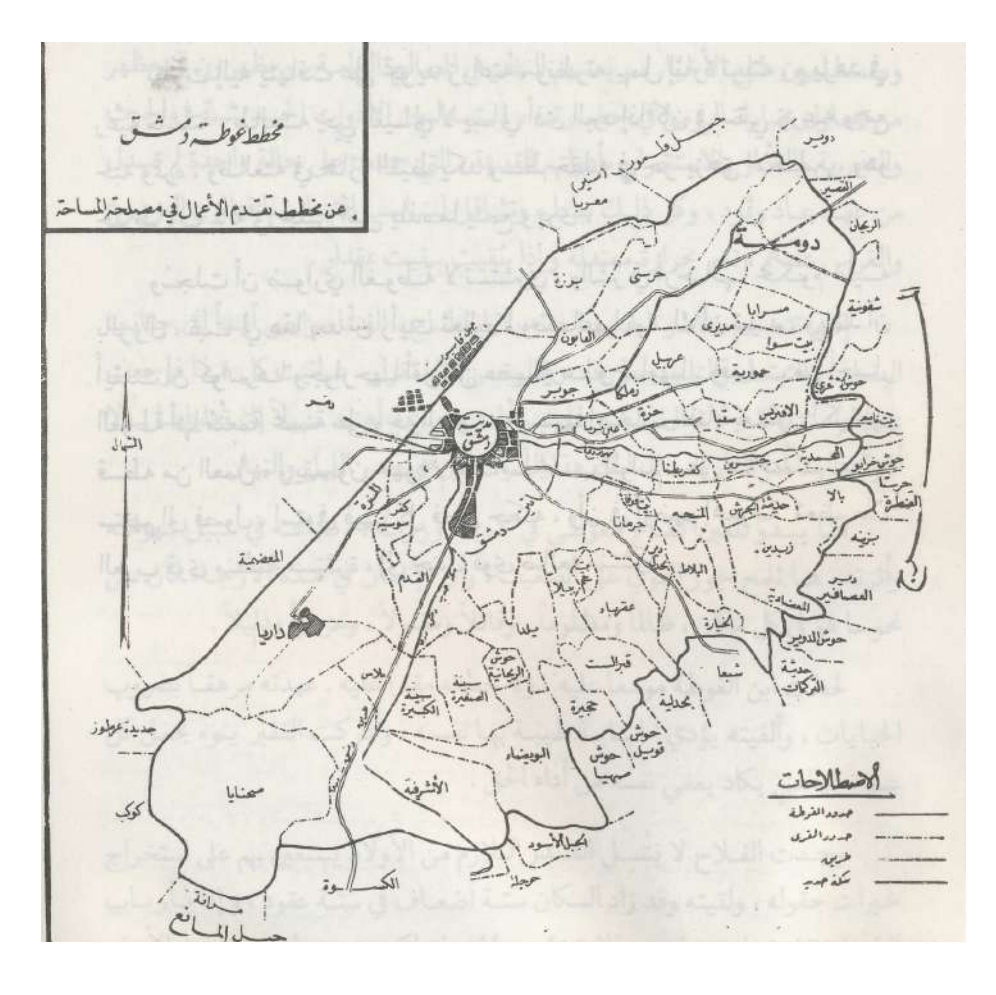
أولًا-الأوضاع العامة في المنطقة:

مع أواخر القرن الخامس الهجري وبداية السادس= الحادي عشر الميلادي والثاني عشر، عانت المنطقة العربية انقسامًا وضعفًا سياسيًّا أدى إلى متغيرات خطيرة؛ فالخلافة العباسية ضعفت، ولم يعد يتعدَّى نفوذها بغداد وما حولها، مع هيمنة السلاجقة ونفوذهم.

أما هؤلاء السلاجقة فقد امتدَّ سلطانهم على مناطق الخلافة الشرقية، وتوجَّهوا نحو الغرب

(2) انظر المصادر والمراجع التي ستأتي تباعًا في هذا البحث.



ليظفروا بمعركة مناذكرد (٤٦٧هـ=١٠٧١م) في مواجهة البيزنطيين[٣]، التي كان من نتائجها:

- فتح أبواب آسية الصغرى أمام السلاجقة.
- التمهيد لتأسيس دولة سلاجقة الروم.
- دقُّ ناقوس الخطر في أوربة، إذ استنجد الروم البيزنطيون بالبابا لرد الخطر القادم الذي كان سببًا للحملات الصليبية على المنطقة.

لم تستمرَّ شوكة السلاجقة، فقد وقعوا في أتون الصراع على الحكم، ولا سيما بعد وفاة قائدهم ملكشاه ٤٨٥هـ=١٠٩٢م، وتصارع أبنائه مع عمِّهم تُتُش[٤] حاكم دمشق، ونتج عن ذلك انقسام مراكز حكمهم خمس ممالك، منها في بلاد الشام:

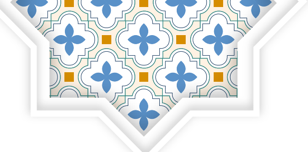
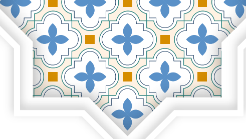
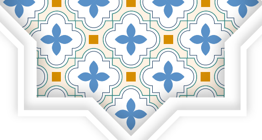
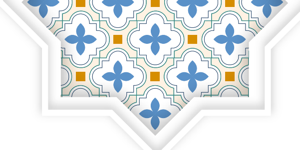
- حلب: تحت سلطة رضوان بن تُتُش (٤٨٨-٥٠٧ هـ=١٠٩٥-١١١٣م)
- دمشق: تحت سلطة دُقاق بن تُتُش (٤٨٨-٥٠٨هـ=١٠٩٥-١١١٤م)

وقد عاشت هاتان المدينتان صراعًا سياسيًّا على الحكم والنفوذ ومحاولة التحالفات وسيطرة قوى داخلية، فمهّد ذلك لظهور حكم الأتابكيات.

أما الطرف الثالث الذي أثَّر في أحداث المنطقة فهم الفاطميون الذين ضعف أثرهم، بسبب وصول خلفاء صغار في السن إلى الحكم، وتسلط الوزراء عليهم، وقد كان للوزير الأفضل بن بدر الجمالي أثر كبير في انقسام البيت الحاكم عندما ولى المستعلي، وهو ابن أخت له، فأدَّى ذلك إلى شرخ سياسي واختلاف عقدي.

وهذا الضعف الفاطمي أدى لانحسار الهيمنة على الشام، فظهرت قوة السلاجقة فيها، ولا سيما

(3) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج10، ص 65. الحرب الصليبية الأولى حسن حبشي، ص32 وما بعد.
(4) تاج الدولة أبو سعيد تُتُش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق السلجوقي؛ وكان قد ملك دمشق في ذي القعدة 468هـ وقيل سنة 472هـ، ينظر: الذيل على تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص230-125، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان، ج1، ص295، الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج 10، ص244.

السلطان تُتُش، وتأرجحت السلطة في القدس بين الفاطميين والأراتقة(٥) الذين عيَّنهم السلاجقة عند انسحابهم منها، ودخلها الفاطميون سنة ٤٩١هـ=١٠٩٨م(٦).

ثانيًا - ظهور الأتابكيات في العالم الإسلامي:

الأتابكيات: وحدات سياسية عبارة عن بيوت حاكمة لا تجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقي، وأُطلق على صاحب هذه الأسرة اسم أتابك.

والأتابك: لفظ تركي مؤلف من: أتا أي: الأب المربي، وبك: أي الأمير.

أي: الأتابك هو مربي الأمير أو الملك، وكان السلاجقة إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعانًا في تكريمه(٧)، أما القلقشندي فيُعرِّف الأتابك بأنه الوالد الأمير(٨)، ومن هذا التعريف يتبيَّن لنا قوة الحاكم، وغالبًا ما يكون عسكريًا، فهو يحكم بشعار المحافظة على الأمير والبلد والسلطة، وكان الأتابكة يُورثون المنصب لأبنائهم، ومن هذه الأتابكيات:

_ **أتابكية دمشق** (٤٩٨-٥٤٩هـ=١١٠٤-١١٥٤م): أسَّسها ظهر الدين طغتكين.

شهدت دمشق حكم ستة من الأتابكة:

١- طُغتكين (ظهير الدين): مؤسس الأسرة، وقد تزوج الخاتون صفوة الملك =والدة دقاق، وذلك سنة تولي دقاق (٤٨٨هـ)، وبقي في الحكم حتى سنة ٥٢٢هـ = ١١٢٨م.

٢-بوري بن طغتكين (تاج الملوك): (٥٢٢-٥٢٦هـ = ١١٢٨ — ١١٣١م).

٣-إسماعيل بن بوري (شمس الملوك): (٥٢٦- ٥٢٩هـ = ١١٣١ — ١١٣٤م).

٤-محمود بن بوري (شهاب الدين): (٥٢٩-٥٣٣هـ = ١١٣٤ — ١١٣٨م).

٥- محمد بن بوري (جمال الدين): (٥٣٣-٥٣٤ هـ = ١١٣٨ — ١١٣٩م).

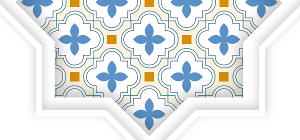
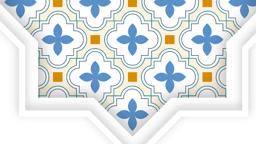
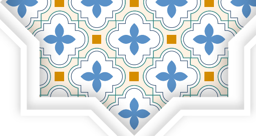
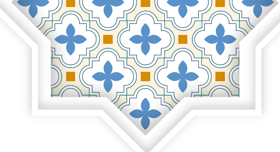
٦-أبق بن محمد بن بوري (مجير الدين): (٥٣٤-٥٤٩ هـ = ١١٣٩ — ١١٥٤م).

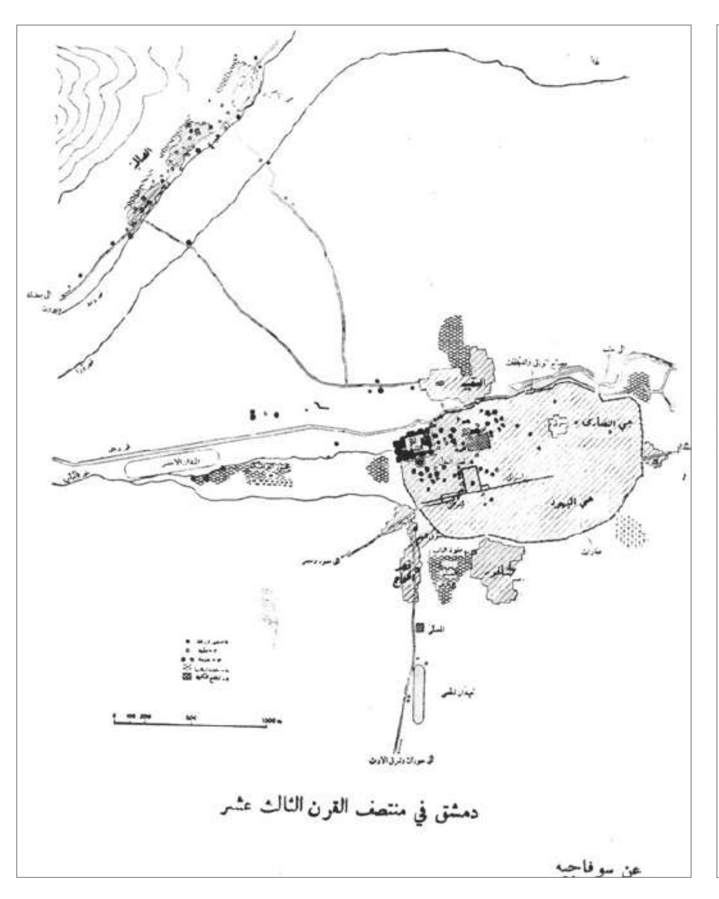
عاشت دمشق تحت حكم دقاق من سنة دخوله إياها عام ٤٨٨هـ إلى وفاته مسمومًا سنة ٤٩٧هـ = ١١٠٣م(٩)، وقد كانت السلطة بيده وبيد الأتابك طغتكين، وبوفاة دقاق آل الأمر للأتابكة الذي بقي حكمهم إلى سنة ٥٢٢هـ = ١١٢٨م.

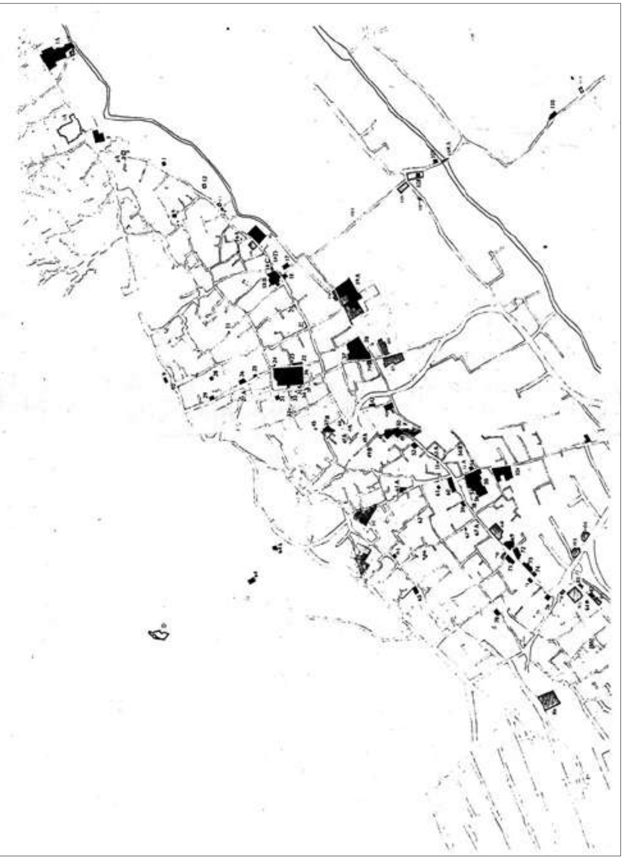
حكم طغتكين دمشق بالعدل وأصلح الجيش، وأحسن إلى الناس، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأقام الهيبة على المفسدين المسيئين، وتألَّف القلوب بالعطاء، واستقامت له الأمور، واجتمع على طاعته الجمهور، وكان سيفًا مسلولًا على الفرنج(١٠).

ويصف ابن القلانسي استقرار أحوال دمشق في ظل حكم طغتكين، ولاسيما الاقتصادية: ((واتفق

(5) كان بيت المقدس لتُتش، ثم أقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني.
(6) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص221.
(7) تاريخ العصر الأيوبي: أمينة بيطار، ص8.
(8) وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج1، ص 365، صبح الأعشى: القلقشندي، ج4، ص18.
(9)سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج19، ص 211.
(10) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص233-234، سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج19، ص 520.





أن الأسعار رخصت، والغلات ظهرت، وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في باطن دمشق وظاهرها، لإحسان سيرته وإجمال معاملته، وبث العدل بينهم وكفّ أسباب الظلم عنهم)) [١١].

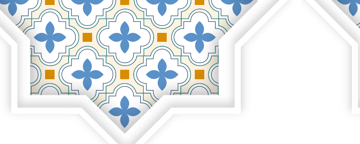
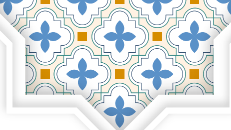
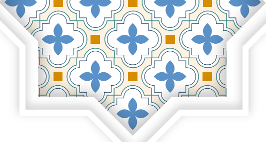
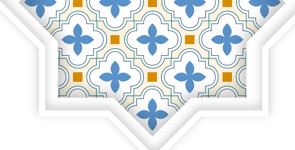
وقد بقي طغتكين في حكمه دمشق يتبع السلطان السلجوقي والخليفة العباسي في بغداد، وأكد هذه التبعية زيارة طغتكين لبغداد سنة ٥٠٩هـ = ١١١٥م، وهناك حصل على استصدار المنشور العالي السلطاني بولاية الشام حربًا وخراجًا[١٢]، وقد أنشأ هذا المنشور الطغرائي أبو إسماعيل الأصفهاني، فريد زمانه في الكتابة والبلاغة[١٣]، في المحرم سنة ٥١٠هـ = ١١١٦م.

والمهم هنا أن هذه المرحلة من حكم طغتكين لدمشق قد شهدت الحروب الصليبية.

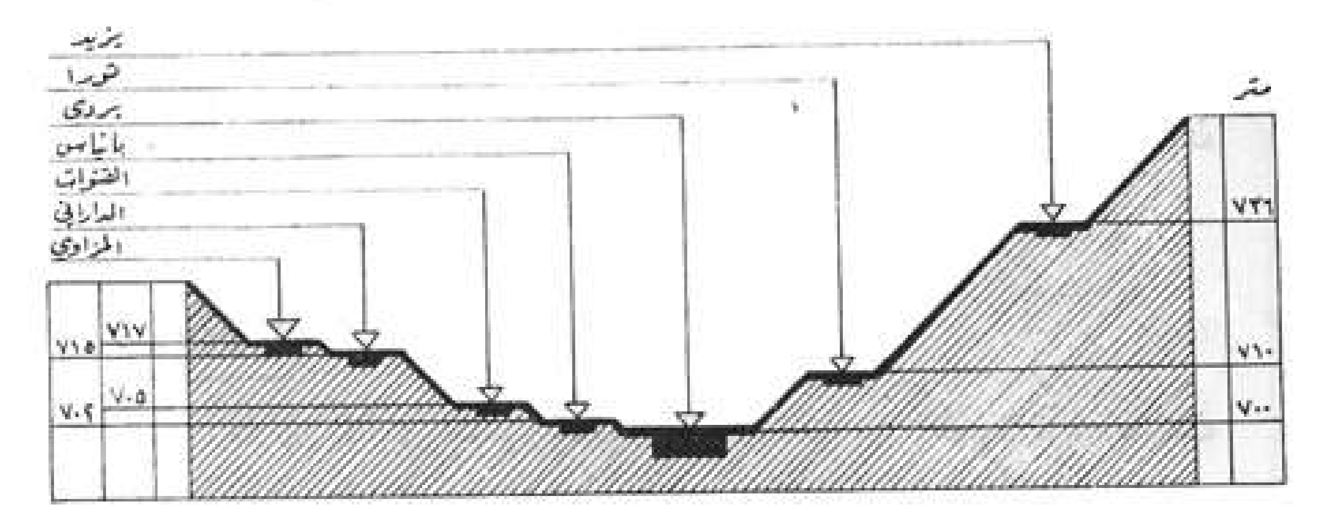
- ظهور دور أتابكية الموصل:

من أبرز الأحداث، التي تخصُّ البحث هنا، العلاقاتُ بين دمشق والموصل، نجد ذلك في مشاركة أميرها مودود ((وكان من خيار الملوك دينًا وشجاعة وخيرًا))[١٤] في الهجوم على الصليبيين ٥٠٧هـ=١١١٣م، إذ استنجد به طغتكين صاحب دمشق عندما ساءت علاقة الأخير بالصليبيين، ويُعلِّل ابنُ الأثير[١٥] سبب

(11) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص236.
(12) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص 308.
(13) ترجمته في مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي، ج1، ص92.
(14)النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي،ج 5، ص207.
(15) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج 10، ص 495.

مقطع عرضي في وادي بردى عند الربوة



الحرب بأن بغدوين (بلدوين) تابع الغارات على دمشق وخرّبها أواخر (٥٠٦هـ= ١١١٢م)، وانقطعت الموارد عنها وغلت الأسعار، فاستنجد طغتكين بمودود، ودار القتال عند طبرية وكان شديداً شارك فيه أمراء السلاجقة، وأُسر بغدوين، وغرق كثير من الصليبيين في نهر الأردن ـ وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ـ[١٦]، وكادت هذه الحرب أن تكون سبباً في تحرير بيت المقدس، إذ هاجمتها حامية عسقلان الفاطمية، ووصلت إلى أسوار بيت المقدس[١٧]، ولكن عدم التنسيق الجماعي حال دون تحريره، وتلا ذلك زيارة مودود لدمشق واستشهاده فيها سنة ٥٠٧هـ = ١١١٣م على يد الباطنية[١٨]، وقد جاء لمهمة وطنية عقب اندلاع الحروب الصليبية، وسقوط المدن بيد الإفرنج، في حين يرى آخرون أن طغتكين أسهم في قتل مودود خوفاً منه، وقد نقل ابن الأثير عن أبيه نصَّ كتاب ملك الفرنج إلى طغتكين، وفيه: ((إن أمةً قتلت عميدَها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يُبيدها)).[١٩]

ثالثًا-الحملة الصليبية الثانية وحصار أطراف دمشق (٥٤٢هـ=١١٤٧م):

كانت الأوضاع في أوربة شبيهة بتلك الأوضاع عندما نادى البابا أوربان للحرب المقدسة، ففي عام ٥٤٢ هـ = ١١٤٧م بشَّر القديس برنارد باسترجاع الرها التي أرَّقت الأوروبيين، فقد أخذها عماد الدين زنكي عام ٥٣٩ هـ = ١١٤٤م، وهي أول إمارة يستردُّها المسلمون، وكان لسقوطها دويٌّ هائل في أوربا، فتشكَّلت الحملة الصليبية الثانية، ولها قائدان: لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانية، ومعهم جموع كثيرة[٢٠].

(16) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، 10، ج، ص 495، تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص185.

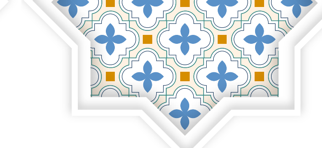
(17)grousset: histoiredes croisades,I,p.274 foucher de churtres,p11.27-

(18) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج 10، ص 496-497، ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص19، تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص187.

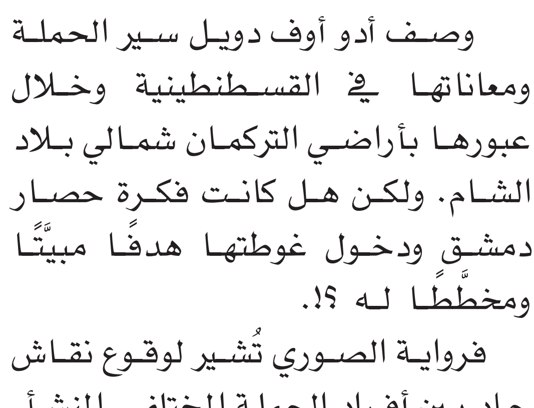
(19) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج 10، ص 49.

(20) إضافة للمصادر الإسلامية؛ أرخ لهذه الحملة اثنان من اللاتين هما: 1- اودو أوفا دويل وكتابه رحلة لويس السابع إلى الشرق 2- وليم الصوري وكتابه: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحر. ينظر الموسوعة الشامية: سهيل زكار، ج7.









وصف أدو أوف دويل سير الحملة ومعاناتها في القسطنطينية وخلال عبورها بأراضي التركمان شمالي بلاد الشام. ولكن هل كانت فكرة حصار دمشق ودخول غوطتها هدفًا مبيَّتًا ومخطَّطًا له ؟!.

فرواية الصوري تُشير لوقوع نقاش حاد بين أفراد الحملة المختلفي المنشأ. ووقع الرأي أخيرًا على الحصار، فهذه الفكرة لم تكن مُبيَّتة، لكنها أصبحت فكرة مجسَّدة عند التداول، ولا سيما أن بعضهم من مصلحته ذلك[٢١] فهي تُشكِّل خطرًا عليهم من جهة، وهي عاصمة الجنوب، وتمثّل فتحة داخلية لطرابلس من جهة أخرى.

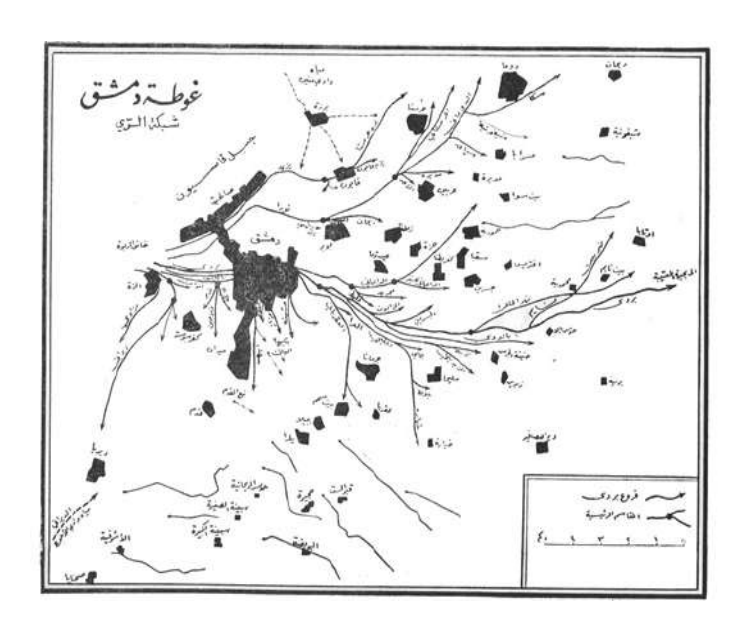
أما حسن حبشي فيذهب إلى أنَّ سببَ الحصار مخاوفُ الصليبيين من زنكي، ثم من ابنه محمود لا من دمشق بحدِّ ذاتها[٢٢]، وهناك آراء أخرى تتَّجه إلى أن اختيار دمشق لخصب الأماكن من حولها، ولاسيما من بارونات بيت المقدس[٢٣]، في حين يُشير رأي آخر إلى وجود احتمالين وهدفين، وهما حلب ودمشق، وساعد صليبيو القدس على اختيار دمشق[٢٤].

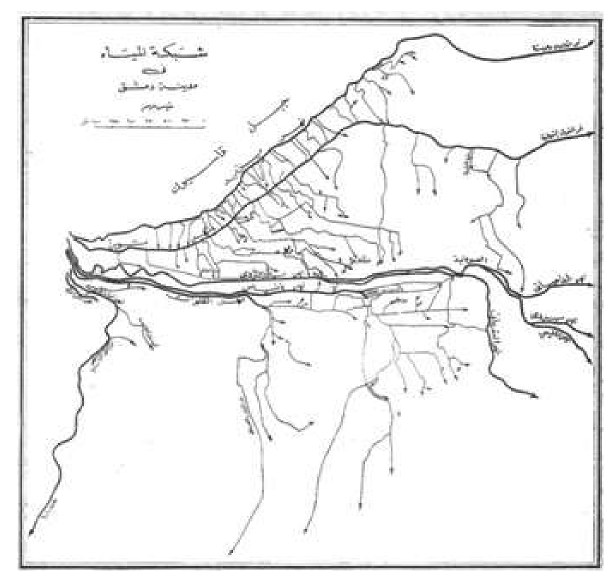
ونعود الآن إلى حصار دمشق، إذ ألقت الجموع الصليبية الكبيرة الحصار على الغوطة، وكانت أكبر البلدان التي واجهت هذا الهجوم بلدة داريا، وهي من أمهات الغوطة، وقد ضبط وليم الصوري هذا الحصار عام ٥٤٢هـ=١١٤٧م[٢٥]، فتقدَّم الجيش نحو طبرية فبانياس.

وثمة عبارة خطيرة هنا عند وليم لا بد أن نتوقَّف عندها، فقد تمَّ التباحث مع عدد من الأشخاص الذين كانوا من ذوي المعرفة الكبيرة بالأحوال داخل دمشق والمناطق المجاورة لها[٢٦]، وهنا تبدو لنا مسألتان:

الأولى: ذكر المناطق المحيطة بدمشق.

(21) تاريخ الحروب الصليبية: وليم الصوري، ج2، ص 232.
(22) وحجته في ذلك أنهم أرادوا التقرب أكثر من مرة من حكام دمشق، واستقبلوا سفارة (أنر) بزعامة أسامة بن منقذ. نور الدين والصليبيون: حسن حبشي، ص27، الاعتبار: ابن منقذ، ص64.
(23) الحياة الإدارية والسياسية في الإمارات الفرنجية الصليبية في بلاد الشام: وفاء جوني، ص206.
(24) العلاقات الاجتماعية والاقتصادية: زكي النقاش، ص40.
(25) وقد صُحح لعام (1148).
(26)- هكذا يفهم من كلام وليم السابق وكذلك ابن القلانسي، ص462.





والثانية: هذا التشاور أكان مع صليبيين مترصدين بالأوضاع – جواسيس – أم كان مع محليين؟ فلعل هؤلاء كانوا محليين، وإلا فكيف عرفوا سهول المنطقة ومكان النزول.

والمهمُّ أنه بعد التداول بين القادة قرَّروا أن خير وسيلة لمضايقة دمشق إنما تكمن في الاستيلاء على البساتين المحيطة بها؛ لأنها تُقدِّم لها حماية كبيرة(٢٧).

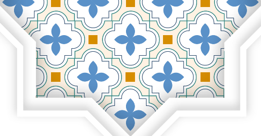
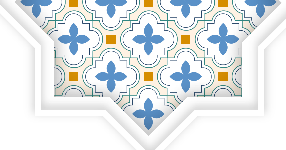
فلمنطقة دمشق خصوصياتها الاستراتيجية، فبساتينها تشكل حزامًا من المزروعات التي توقع العدو في شباك من السهل قنصه، وهي مورد رئيس لغذاء دمشق، لذلك حطُّوا رحالهم في داريا(٢٨)، التي تبعد أربعة أميال أو خمسة عن دمشق(٢٩)، وكان من السهل رؤية مدينة دمشق والمنبسطات المحيطة بها(٣٠)، وقد قدَّر وليم مساحة هذه البساتين بخمسة أميال نحو الغرب والشمال.

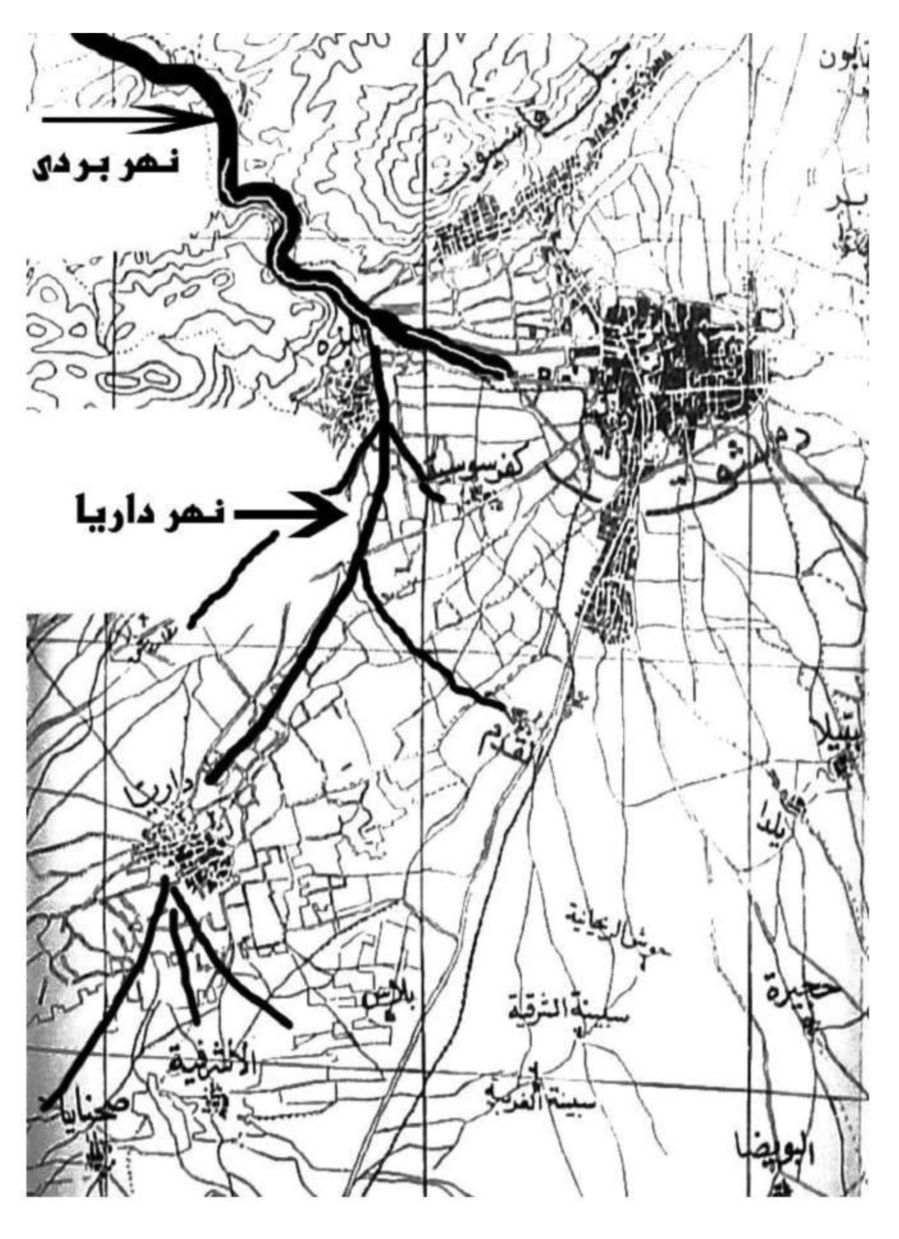
أما خبر قدومهم فكان له رهبة في النفوس، وكان من أول أعمال حكومة دمشق أن راسلت الأطراف، ولاسيما حكام الموصل وحلب(٣١)، وطلبت تجميع الجيوش من أعمال دمشق، فاندفع السكان وأحداث البلد ومقاتلة الغوطة والمرج، وكان أنر حاكمًا كبيرًا واجه هذا الأمر المفاجئ بقوة الرجال، حتى وصفه صاحب عيون الروضتين بأنه كان ((عاقلاً، خيِّرًا، ديِّنًا، حسن السيرة))(٣٢).

أما أبرز أحداث هذه الحملة فهو نزول الصليبيين بين البساتين في داريا لعلهم يفتحون ممرات فيكسرون الحاجز حول المدينة، وكي يستفيد الجنود من الماء والفواكه، وقد اصطحبوا معهم دوابَّهم وخيولهم، وقد ذكر وليم بداية نزول الحملة قرب داريا(٣٣).

أما ابن القلانسي فيُحدِّد هذه المنطقة باسم المنزل المعروف بمنازل العساكر، فوجدوا الماء مقطوعًا

(27) تاريخ الحروب الصليبية: الصوري، ص432.
(28) من خلال الوصف أُرجِّح أنهم دخلوا من شمال غرب هذا البلد، وداريا ذات استراتيجية عسكرية، والتحديد قريب من مسار الأعوج الداراني اليوم.
(29) تبعد عن مركز دمشق 7 كم، وهي الآن ملاصقة لها.
(30) من الزاوية التي حددتها تعلو البلدة حيث تلة (كوكب) التي تسمح بالرؤية.
(31) بعض المصادر تذكر طلب المعونة من نور الدين وغازي وبعضها يؤكد وصولها. انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، ج4، ص134، وابن القلانسي، أما ابن الأثير في الباهر ص 89 فلا يذكر سوى طلب النجدة من سيف الدين غازي.
(32) عيون الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة، ج1، ص207.
(33) لم تكن خطتهم حسنة، فاعتمادهم على فواكه المنطقة أدى لمرض الكثيرين، ومات منهم خلق عظيم. الموسوعة الشامية: زكار، ج7، ص 123-124.



عنه، فاتجهوا نحو المزة[٣٤].

ومن أدق تفاصيل الحملة، قبل اقتراب الفرنجة من دمشق، أمران ذكرهما وليم الصوري؛ وهما:

١- عانى الصليبيون الويلات وهم في بساتين داريا، وهو ما يدعونا للتساؤل عن طبيعة هذه الاستعدادات من قبل الدارانيين وعلاقتها بحكام دمشق، فقد كانت الممرات في داريا ضيقة، قلَّلت من حرية التحرُّك لدى الصليبيين، وزاد الأمر تعقيدًا لهم هجماتُ السكان الجريئة، والكمائن التي نُصبت بين الأشجار، والصدام المباشر عند المنعرجات، ولعل المؤازرة وصلت إليهم من دمشق في وقت مبكر، ونطلع أيضًا على تكتيك عسكري عمله الفلاحون، إذ استخدموا الدكوك[٣٥] ذات الفتحات، وهي إما بين الجدران ضمن مسافات محددة، أو أنها الفتحات التي بأسفل الدكوك للسقاية؛ وقد نُصبت وراءها الرماح لطعن المارين، فواجهتهم مصاعب شاقة.

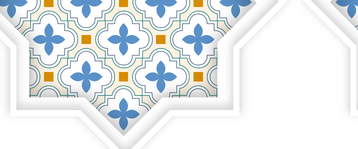
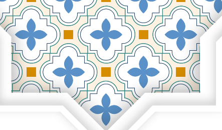
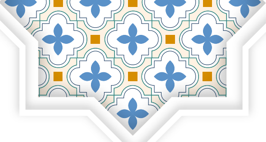
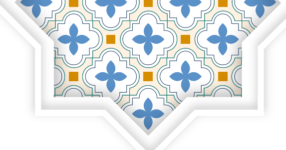
٢- يذكر الصوري المعركة التي جرت للاستيلاء على النهر، ولعلها المعركة التي عناها ابن القلانسي بـ((انسياح الجيش ضمن البساتين))[٣٦]، وقطع الصليبيون في أثناء انسياحهم في البلد الأشجار، وهدُّوا الفطائر[٣٧] حتى وصلوا أرض المزة، وعندها جرت المعركة بين الجيش الشامي بقيادة أنر وهؤلاء

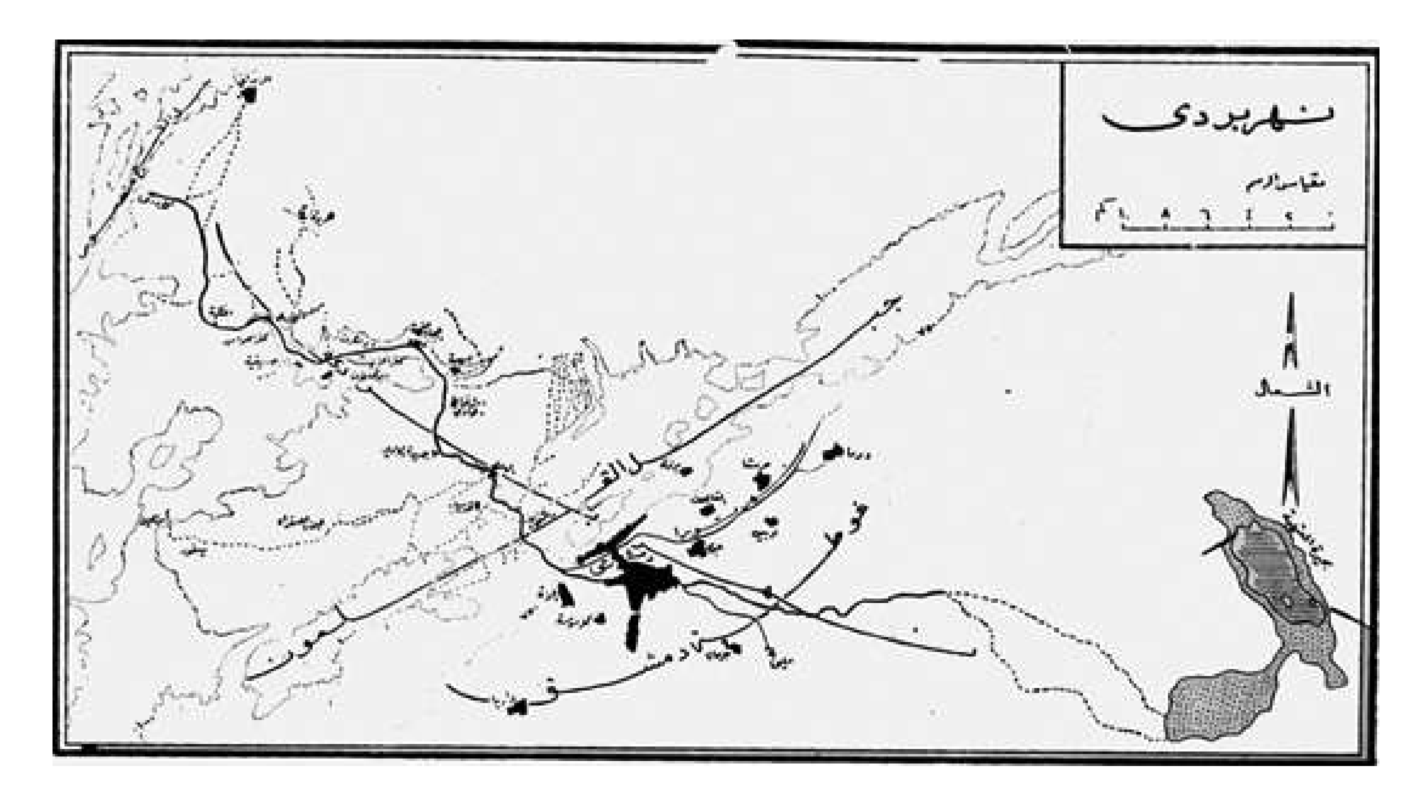
(34) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص464، وتحديد المكان لعله في داريا ذاتها، إذ اتضح لي أن منزل العساكر هذا هو عند جسر الخشب، لذا أرجح أنه مرتبط بنهر الأعوج غربي داريا، وهو اليوم من المناطق الزراعية فيها، وكثيرًا ما نزلته الجيوش منذ الفتح الإسلامي وخلال هذه الفترة وما بعدها.

(35) الدكوك (ج دك) وهي جدران من اللبن ذات ثخانة واسعة تصل إلى المتر، كان الفلاحون ـ وما زالوا ـ يجعلونها سياجًا لبساتينهم ويزرعون على جوانبها الأشواك فتمتنع الرؤية.

(36) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: سهيل زكار، ص437.

(37) الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة،ج1، ص 187 نقلًا عن ابن القلانسي، ينظر؛ تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص464، وقد جاء في تاريخه بنسخة الأصل «العطاير»، والفطائر هي الأسوار المحيطة بالأراضي والتي تشبه الدكوك.



الغزاة، الذين حاولوا الاقتراب من الجهة الشرقية – الجنوبية للمدينة لعلهم يستطيعون الدخول(٣٨)، ومن خلال انتقالهم أغلق الأهالي الممرات بالخشب والصخور.

أما موقعة المزة فقد خرج لها جيش من المسلمين عظيم، تتقدَّمهم حكومة أنر والأهالي والنجدات، وأسفرت عن استشهاد مئتين من المدافعين، على رأسهم الفندلاوي والحلحولي(٣٩) اللذان استشهدا عند الربوة(٤٠).

لقد أخفقت هذه الحملة التي دامت عدة أيام، وقد اختلفت الأقوال عن أسباب إخفاقها، فالصوري ومنذ وقت مبكر يعلل فشلها بما يأتي:

- التنازع بين الأمراء.
- الرشوة بنقود مزيفة، ولكن لا يذكر من تورَّط بها.
- ورمى باللائمة على أعمال كونت فلاندرز عندما طلب دمشق لنفسه(٤١).
- وهناك أسباب أخرى وراء إخفاقها، فانتماء المقاتلين إلى بلدان مختلفة وطمع الأمراء سببان

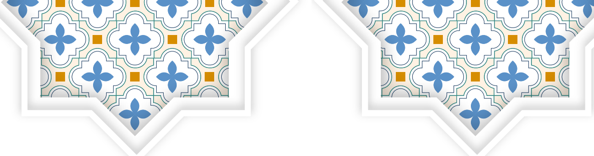
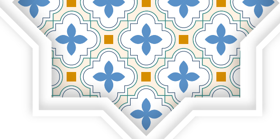
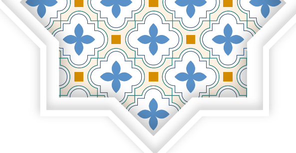
(38) الخبر عند وليم ولم تذكره المصادر الإسلامية. الحياة الإدارية والسياسية: جوني، ص206.

(39) الفِندلاوي: هو الإمام أبو الحجاج، يوسف بن دوناس المغربي، خطيب بانياس، ثم مدرس المالكية بدمشق، روى عنه ابن عساكر ووصفه بأنه: ((كان حسن المفاكهة، حلو المحاضرة، شديد التعصب لمذهب أهل السنة، كريمًا مُطَّرِحًا للتكلُّف، قوي القلب))، وقد ذكر أبو شامة أن قبره بمكان الباب الصغير من ناحية حائط المصلى، وكان قبره يُزار. ينظر بترجمته: تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص464، الروضتين: أبو شامة، ج1، ص191. سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج20، ص209.

أما الحلحولي: فهو عبد الرحمن بن عبد الله، نسبة إلى قرية في الخليل، وُلد في حلب، ثم انقطع بمسجد في ظاهر دمشق، حتى قُتل شهيدًا وهذا المسجد في بستان الشعباني، وهو بمحاذاة مسجد بالصالحية، في منطقة الأكراد عُرف بمسجد طالوت. ينظر الروضتين: أبو شامة، ج1، ص192.

(40) الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين: الحريري، ص76، الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج11، ص129، الباهر: ابن الأثير، ص89، الروضتين: أبوشامة، ج1،53، ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص225، شذرات الذهب: ابن العماد، ج4، ص36، تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص464، الاعتبار: ابن منقذ، ص122.

(41) تاريخ الحروب الصليبية: الصوري، ص107.

نقش لمرسوم بالجامع الكبير بكفرسوسة بدمشق لإبطال ما يؤخذ من ماء نهر داريا

أساسيان من طرف الفرنجة.

أما من الطرف الآخر فقد كان الانتصار للأسباب الآتية:

- موقف سكان داريا الشجاع.
- إحساس حكومة دمشق بالمسؤولية.
- تحرُّك حس الجهاد في الأطراف كلها.
- استراتيجية المنطقة.

والآن نأتي إلى النتائج التي أسفرت عنها هذه الحملة.

فإن إخفاق الملكين الصليبيين قد أصاب القضية الصليبية بأذًى لا يُدرَك مداه[٤٢]، وقد أدَّى انهزامهم هذا إلى خضوعهم لبيزنطة، ووجدوا أن لا فائدة من دمشق، فتوجَّهوا بأنظارهم نحو مصر، قبل أن يحاولوا محاولتهم الأخيرة فيما بعد.

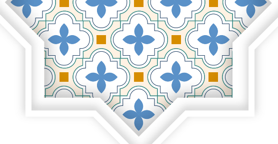
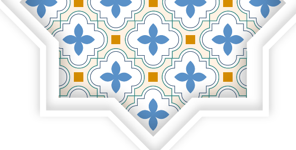
وأبرزت هذه الحملة أهمية التحالف بين حلب والموصل ودمشق[٤٣]، لذلك سنرى ازدياد مساعي نور الدين لدخول دمشق.

وأكدت أهمية الجهاد وتوحيد الكلمة في صدِّ المعتدين مهما بلغت قوتهم، ولاسيما وقوف الأطراف العربية في جبهة واحدة أمام الخطر المرتقب أو المحدق.

رابعًا- السلطان نور الدين محمود يضمُّ دمشق (٥٤٣هـ = ١١٤٨م -٥٤٩هـ=١١٥٤م):

قدم نور الدين بجيشه سنة ٥٤٣ هـ= ١١٤٨م ونزل في أطراف دمشق، ولم يكن قد مضى عام على

(42) العدوان الصليبي على بلاد الشام: جوزيف نسيم يوسف، ج3، ص253.
(43) الحياة الإدارية والسياسية: جوني، ص221.

الحملة، وحجته في ذلك مناهضةُ الفرنجة وحماية عسقلان والذبُ عن حوران لما أصابها من أذاهم.

وتُشير رواية ابن القلانسي أن حكام دمشق اتصلوا بالفرنجة، ولا أرى ذلك اتصالاً مباشراً يُفسَّر بالخيانة، وإنما تخويفًا لنور الدين بما يضمن سلامتهم، مع أن روايته واضحة: ((وقد كانوا عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين))[٤٤]، وكان الرأي العام في دمشق يساند نور الدين، وكان نزوله في أطراف دمشق بمرج يبوس ويعفور، ونزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العساكر، وراسل حكام دمشق، وعندما تلقَّى رداً سلبيًّا أراد دخول البلد، لكن الأمطار حالت دون ذلك[٤٥].

وهنا نتساءل: ما دام أن نور الدين أراد حماية عسقلان والذب عن حوران، فما شأن أطراف دمشق في ذلك؟ الحقيقة أن هذه المنطقة قد ارتبط بعضُها ببعض ارتباطًا وثيقًا، فالحدث في فلسطين انتقل صداه وتأثيره إلى دمشق، وكل غدر للفرنجة في بيت المقدس وحوران وجد له أنينًا في الغوطة.

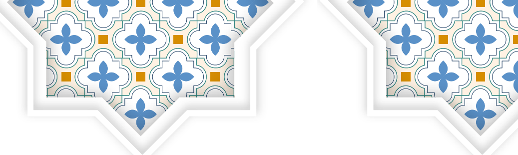
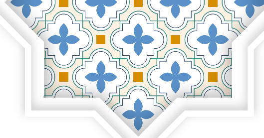
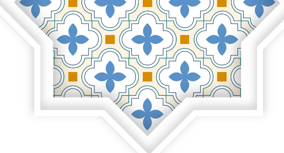
وبعد هذا الحصار الأول من نور الدين، تكرَّرت عمليات الحصار لدمشق في كل عام بدءاً من هذه المحاولة، إذ تبعها عام ٥٤٥هـ = ١١٥٠م، ثم ٥٤٦هـ = ١١٥١م، وعاد إلى داريا لمَّا خربت على يد الفرنج، واستعدَّ لدخول دمشق[٤٦]، وهذه المحاولات التي استغرقت ستَّ سنوات كانت كلها في أطراف دمشق، فعادت بالتأثير الكبير عليها.

ثم اشتدَّ الحصار على المدينة سنة ٥٤٦هـ=١١٥١م، وهو الحصار الأخير إذ امتدَّ ثلاث سنوات، فقد نزل نور الدين في عذراء يوم الجمعة مستهل محرم، فنزل السهم والنيرب ثم انتقل لعيون فاسريا[٤٧]، ثم إلى حجيرا وراوية[٤٨]،ثم نزل أرض مسجد القدم وما والاه[٤٩]، ووصل بعسكره حتى المسجد الجديد، ولم يدخل البلد خوفًا من إراقة الدماء، ثم تقدَّم نحو فذايا وحلقبلتين والخامسين.

إن هذا الذكر لأسماء قرى كثيرة يدلنا على عمل استراتيجي عمله نور الدين، فقد انتقل من شمال شرق البلد ثم إلى جنوبه، ووصول إلى غربه، وهذا عمل لتطويق البلد، وقطع الإمدادات عنه، فيثير بذلك ضغائن الأهالي على الحكام.

وكان نزوله عذراء والقدم لإغلاق منفذين لدمشق من الجنوب الغربي والشمال الشرقي، لكنه انتقل فجأة إلى داريا لما أحس بقدوم الفرنج، فنزل بساتينها على الأعوج عند جسر الخشب توقُّعًا منه لنزول الفرنج، الذين نزلوا على الأعوج أيضًا وذلك عام ٥٤٦هـ= ١١٥١م [٥٠]، وجرى اجتماع ضمَّ حكام الصليبيين وحكام دمشق بقيادة مجير الدين[٥١]، فذهب نور الدين نحو البقاع ولعله للتهيُّؤ، ولمَّا تفقَّد نور الدين الجيش وجده ثلاثين ألفًا، فنزل البقاع، ثم دمشق حيث نزل أرض كوكبا من غربي

(44) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص478.
(45) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص480، الكواكب الدرية في السيرة النورية: ابن قاضي شهبة، ص130.
(46) سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج20، ص408.
(47) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص 482. والمنطقة تقع عند سفح جبل دوما.
(48) راوية: هي بلدة السيدة زينب، وحجيرا قريبة منها وهي معروفة باسمها اليوم. تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص496.
(49) القدم قرية من قرى الغوطة نزلتها قبائل يمانية، ثم تبعت العاصمة دمشق، وهي في مدخلها الجنوبي.
(50) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص486، والكواكب الدرية: ابن قاضي شهبة، ص138، الروضتين: أبو شامة، ج1، ص265.
(51) عجيب هذا الموقف من حكام دمشق، فقبل ثلاث سنوات يقود أنر جيوش المسلمين لرد الفرنجة، واليوم يخرج آبق أيضًا لكن لاجتماع تخاذلي، ولعل المصلحة فوق كل شيء، ولعل سبب ذلك أن هؤلاء غرباء عن الشام ومواقفهم تبعًا لمصالحهم، وكان الأهالي هم الضحية.


داريا[٥٢] يوم السبت ٢١ ربيع الأول.

ثم أغارت الخيل على طريق حوران – دمشق، وأغاروا على الغوطة والمرج، ثم نزلوا جسر الخشب[٥٣]، ولم يلق البوريون (حكام دمشق) مساعدة من الأهالي لحنقهم عليهم، ثم نزل جيش نور الدين القطيعة[٥٤].

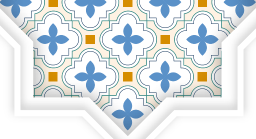
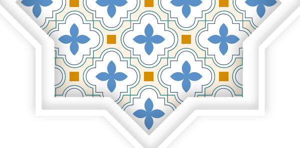
وفي عام ٥٤٩هـ = ١١٥٤م وهو عام فتح دمشق، بعث نور الدين أسد الدين شيركوه إلى ظاهر دمشق، وخيَّم بناحية القصب من المرج مع ألف من الجنود، وذلك للمراسلة[٥٥]، ثم قدم نور الدين فنزل فاسريا ثم بيت الآبار من الغوطة، وزحف نحو البلد من شرقيه[٥٦]، وقد عاونه الأحداث، وسهَّلوا أمر دخوله دمشق، عكس معاملتهم لأبيه[٥٧]، وهلَّل السكان بدخوله منادين (نور الدين يا منصور)[٥٨]. فاستطاع بذلك السيطرة على دمشق.

_ الخاتمة:

هذه هي أهم الأحداث التي شهدتها دمشق وضواحيها، شعبًا وأرضًا، وقد شهدت تبدُّل دولة بأخرى، وانتقال السلطة من أسرة إلى حاكم جديد، وهذا ما سيجعل من هذه المنطقة مركز القوى، وستنطلق منها مسيرة الأحداث بعد فتح دمشق.

لم يكن حلم نور الدين دخول دمشق من أجل مكاسب مادية، وإنما خطَّط لتوحيد المنطقة وطرد الفرنجة، فقد شهدت دمشق أحداثًا ومتغيِّرات جعلت منها نقطة ارتكاز لما بعدها، وعاشت خلالها مدةً زمنيةً ذهبية على جميع الصعد، ولا سيما العلمي، وكانت هذه المتَغيرات والأحداث سواءً من الطرف الصليبي الذي كان يُفكِّر بدمشق، أو الطرف الإسلامي المتمثل بما أصاب بيت المقدس وأعمالها والمتغيرات السياسية التي شهدتها دمشق، أصداء لأحداث كبيرة تلت هذه المرحلة.

(52) كوكبا: أو كوكب تبعد عن داريا 3 كم إلى الغرب، وهي من بساتينها اليوم، وهي منطقة استراتيجية من يقف عليها يكشف دمشق وما حولها، فيها مزار للقديس بولس.
(53) الروضتين: أبو شامة، ج1، ص267.
(54) قرب دمشق عند الميدان.
(55) هذا الهدف المعلن، لكن هدفه الحقيقي هو استطلاع أحوال دمشق.
(56) تاريخ دمشق: ابن القلانسي، ص503.
(57) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ج11، ص197.
(58) سير أعلام النبلاء: الذهبي، ج20، ص408.

ـ مصادر البحث ومراجعه:

ـ المصادر:

ـ الاعتبار: ابن منقذ (أسامة)، حققه قاسم السامراي، الرياض، ط١، ١٩٨٧م.

ـ الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين: الحريري (أحمد بن علي)، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، (د. ت).

ـ البداية والنهاية: ابن كثير (إسماعيل بن عمر)، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤م.

ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية: ابن الأثير (عز الدين علي)، تحقيق: عبد القادر طليمات، مكتبة المثنى، ١٩٦٣م.

ـ تاريخ الحروب الصليبية: الصوري (وليم)، ترجمة سهيل زكار، الجزء الثاني من الموسوعة الشامية، بيروت، ٢٠٠٣م.

ـ الذيل على تاريخ دمشق: ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد)، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٠م.

ـ الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل)، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

ـ سير أعلام النبلاء: الذهبي (محمد بن أحمد)، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ١٩٨٥م.

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد (عبد الحي بن أحمد)، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٩م.

ـ صبح الأعشى: القلقشندي (أحمد بن علي)، اختار النصوص وعلق عليها عبد القادر زكار، وزارة ثقافة، دمشق، ١٩٨٢ .

ـ عيون الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل)، تح: أحمد البيسومي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩١م.





- الكامل في التاريخ: ابن الأثير (عز الدين علي)، دار صادر، بيروت ١٩٦٦ .

- الكواكب الدرية في السيرة النورية: ابن قاضي شهبة (أبو بكر بن أحمد)، تحقيق: محمود زايد، بيروت، ١٩٧١م.

- الموسوعة الشامية: زكار (سهيل)، ج٧، الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق، أعوام متعددة، (اودو أوفا دويل وكتابه: رحلة لويس السابع إلى الشرق ٢- وليم الصوري وكتابه: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحر).

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي (يوسف بن قز أوغلي)، حيدر آباد، ١٩٥١م.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي (يوسف)، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان (أحمد بن محمد)، تح: إحسان عباس، دار صادر، (د.ت).

- المراجع:

- تاريخ العصر الأيوبي: بيطار (أمينة)، دمشق، ١٩٨٢ .

- الحياة الإدارية والسياسية في الإمارات الفرنجية الصليبية في بلاد الشام: جوني (وفاء)، أطروحة دكتوراه لم تنشر بعد، ١٩٨٩م.

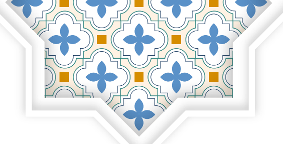
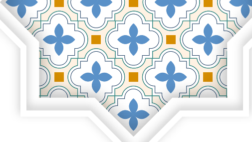
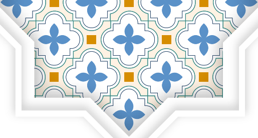
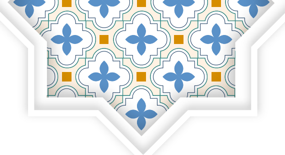
- الحرب الصليبية الأولى: حبشي (حسن)، دار الفكر العربي، ١٩٥٨م.

- العلاقات الاجتماعية والاقتصادية: النقاش (زكي)، بيروت، ١٩٥٨م.

- العدوان الصليبي على بلاد الشام: يوسف (جوزيف نسيم)، بيروت، ١٩٨١م.

- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية: سهيل (زكار)، دمشق، ط٢، ١٩٧٥ .

- نور الدين والصليبيون: حبشي (حسن)، القاهرة، ١٩٤٨م.







Damascus during the era of Nur al-Din Mahmod Bn Zanki

Shareef Moufak Rajab

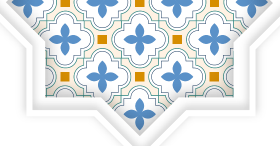
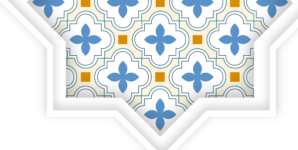




دمشق في عهد نور الدّين محمود بن زنكي

شريف مُوفَّق رجب[1](*)

1 (*) طالب ماجستير جامعة الإمام الأوزاعي _ لبنان _ مرحلة الرسالة، خريج معهد الفتح الإسلامي _ قسم التاريخ والحضارة _ دمشق.

ملخَّص البحث

تُشكِّل مرحلة نور الدِّين زنكي في دمشق منعطفًا مهمًّا في تاريخ المدينة، أعاد لها ألَقها وشيئًا من دورها الّذي فقدته منذ القرن الرَّابع الهجري.

ويعود ذلك لشخصية نور الدِّين الفريدة من جهة، وتطوُّر مناحي الحياة في دمشق بعد دخولها تحت حكمه من جهة ثانية، إذ أصبحت رأسًا في مشروع التَّحرير، إضافةً لما شهدته من تحوُّلات إيجابية على الأحوال الإداريَّة والعلميَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة عَقِب دُخُوله.

فكان لابد من إبراز هذه المدة، وتوضيح دور نور الدِّين في تحوُّل المدينة من حالٍ إلى حال، يُضاف إلى ما سبق فهم شخصية نور الدين ودور رجال حكمه، وانعكاس كلِّ ذلك علَى المدينة وأهلها. والاستفادة من تلك التجربة وفهم الدُّروس والعبر المستخلصة منها.

أولًا ـ التعريف بنور الدين محمود بن زنكي:

١ـ اسمه ونسبه:

هو الملك العادل نور الدين، أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي بن الملك آق سنقر، التركي السلجوقي بالولاء.

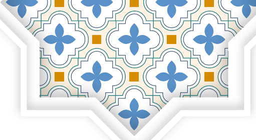
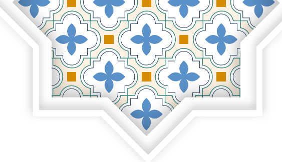
ولي جدُّه نيابة حلب للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، أما والده قسيم الدولة فنشأ بالعراق، وندبه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بإشارة المسترشد لإمرة الموصل وديار بكر والبلاد الشامية، وظهرت شهامته وهيبته وشجاعته، واتسعت ممالكه، حتى قُتل في حصار جعبر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فتملَّك ابنه نور الدين حلب، وابنُه الآخر الموصل[٢].

٢ـ حياته وشخصيته:

وُلد نور الدين محمود في شهر شوال، سنة إحدى عشرة وخمسمائة للهجرة، في مدينة حلب، التي تولَّى حكمَها بعد وفاة أبيه، وكان بدايةً مُلحَقًا بالسلاجقة، ثم استقلَّ وضمَّ دمشقَ إلى ملكه، وامتدَّت سلطتُه في البلاد الإسلامية حتى شملت مناطق الشام والجزيرة ومصر وجانبًا من اليمن، وخُطب له في الحرمين.

وُصف بأنه أسمر اللون، له لحية في حنكه، واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين[٣]، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرَّف إلا من ملك له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، متواضعًا ديِّنًا زاهدًا يتهجَّد كثيرًا، عارفًا بمذهب أبي حَنيفة[٤].

(2) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج20، ص 531.
(3) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 56.
(4) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 57.

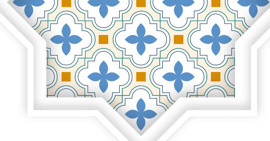
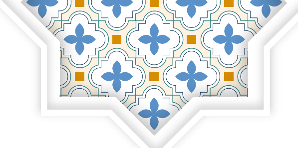
البيمارستان النوري

كان معتنيًا بمصالح رعيته، مداومًا على الجهاد، يُباشر القتال بنفسه، مُوفَّقًا في حروبه مع الصليبيِّين، أيام زحفهم على بلاد الشام.

وكان نور الدين يتَّصف بالمسؤولية، وعلى هذا كثير من الأمثلة من حياته، فمنها يوم نزل الفرنجة على دمياط في مصر، فقُرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مُسلسَل بالتبسُّم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتَبَسَّم لتتمَّ السلسلة، على ما عُرف من عادة أهل الحديث، ومن شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين وقتها غضب من ذلك وقال: إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني مُتبسِّمًا والمسلمون محاصرون بالفرنج[٥].

وكان نور الدين ذا هيبة ووقار، وقيل في وصفه: شديد في غير عنف، رقيق في غير ضعف، ضبط أجناده وأصحابه، ولم يجلس عنده أحد من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، أما البقية فكانوا إذا حضروا يقفون قيامًا حتى يأمرهم بالقعود، ومع ذلك إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويُجلسه إلى جانبه. وكانت مجالسه مجالس حلم

(5) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج2، ص 143.



وحياء لا يُذكر فيها قبيح القول، فليس فيها إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد(٦).

وكان نور الدين يحافظ على لياقة بدنه وقوته، فكان يكثر لعب الكرة والصولجان، ويفعل ذلك بنية حسنة ألا وهي التدرُّب وترويض الخيل لتصبح أكثر طاعة لراكبها في الحرب(٧).

وكان زاهدًا، عابدًا، مُتمسِّكا بالشرع، مجاهدًا، كثير البر والأوقاف، له من المناقب ما يستغرق الوصف(٨).

وأما شجاعته فقد كان يُقال فيه أنه لم يُرَ على ظهر الفرس أحسن ولا أثبت منه، شجاعًا صبورًا في الحرب يتعرض للمخاطر، أسرَ بنفسه في بعض الغزوات بعضَ ملوك الفرنج، ومن ذلك حبُّه للجهاد والاستشهاد، يقول عن نفسه: تعرَّضتُ للشهادة غير مرة فلم يتَّفق لي ذلك(٩).

٣_ أعماله ووفاته:

تُشكِّلُ مدّةُ حكم نور الدين واسطة العقد في مشروع تحرير بيت المقدس، ولئن كان انطلاق المشروع على يد والده عماد الدين، وتتويجه على يد صلاح الدين، إلا أن نور الدين استلم الحكم كوريث عن أبيه في حلب ومناطق الجزيرة الفراتية وما حولها، وما لبث أن دخل دمشق وضمَّ الموصل ومدَّ نظره باتجاه مصر وما بعدها.

رافق نورُ الدين والدَه في حياته، ولم يكن أكبر أولاده، لكن كان أقربهم منه، وشهد معه فتح الرها (٥٣٩ هـ)، وإنهاء الإمارة الصليبية الأولى، وكانت تلك أولى نجاحات المشروع على خطا فتح بيت المقدس، والسبب المباشر للحملة الصليبية الثانية التي ستستهدف دمشق.

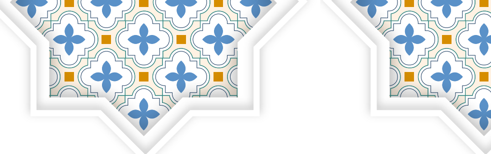
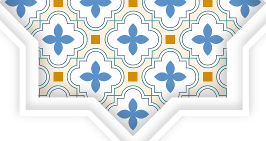
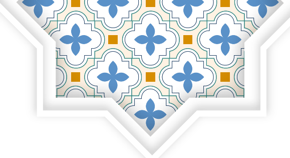
رحل عماد الدين سنة ٥٤١ هـ وترك إرثًا يمتدُّ بين الموصل وحلب تقاسمه كل من سيف الدين غازي في الموصل، ونور الدين محمود في حلب، ومشروعًا حمل نور الدين على عاتقه مهمّةَ إتمامه.

تأثر نور الدين محمود بوالده، ولازمه وخاض معه المعارك وازداد خبرة يومًا بعد يوم، مستفيدًا من حنكته وقوة شخصيته، وورث منه حلب، ومشروع التحرير.

فبدأ أول أعماله عقب وفاة والده بحملة عسكرية على أنطاكية وقلاع شمال الشام، كما توجَّه بحملة ضد القائد الصليبي جوسلين الذي أراد استعادة الرها، فكانت الصورة عند الصليبيين أن متاعب ستُصيبهم، وأن نور الدين لا يقلُّ عن والده شجاعة ورباطة جأش.

أدرك نور الدين أهمية الاستمرار بالقضاء على عوامل التجزئة، فعمل على مد جسور التواصل مع حكام دمشق، وعقد معاهدة تحالف مع معين الدين أنر سنة (٥٤١ هـ -١١٤٧ م)، تُوِّجَت بزواجه من ابنته عصمة الدين خاتون(١٠).

(6) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 48.
(7) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 35.
(8) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج 5، ص 185.
(9) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج1، ص 19.
(10) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 451.


وكنتيجة لفتح الرها وصلت الحملة الصليبية الثانية (٥٤٣هـ -١١٤٨ م)، فنفر نور الدين من حلب، كما شارك سيف الدين غازي من الموصل في الدفاع عن دمشق ضد الحملة الصليبية الثانية، وكان لمشاركتهما أبلغ الأثر في فشل الحملة وانسحابها(١١).

عاد نور الدين بعدها وانشغل بالحصون القريبة من حلب، فخاض عدة معارك ضد إمارة أنطاكية، واستردَّ أفامية(١٢).

ثم حصل أن تُوفِّي حاكم دمشق معين الدين أنر ليتسلَّم سدّةَ الحكم فيها مجيرُ الدين أبق، الذي عقد تحالفًا مع مملكة بيت المقدس مقابل حمايته، ليس هذا فحسب بل سقطت مدينة عسقلان(١٣) من يد الفاطميين إثر مهاجمتها من قبل الصليبيين سنة (٥٤٨ هـ)، ولم يستطع نور الدين نجدتها لوجود إمارة دمشق التي منعت مروره(١٤)، ما دق ناقوس الخطر، فالمدينة غدت في حالة من الضعف، وبدا الخطر كبيرًا عليها، وبات جليًا أن موقع دمشق يمنع من الوقوف في وجه الصليبيين، ويُعرقل مشروع التحرير، فبدأ نور الدين يُراسل أهلَها، واعتمد على الأحداث حتى دخلها سنة ٥٤٩ هـ بفتح أبيض لم تُسفك به الدماء(١٥).

ويُعَدُ ضمُّ مصر من أهم أعمال نور الدين، حيث كانت تحت حكم الفاطميين، الذين جرى على دولتهم ما جرى على الدولة العباسية من تسلط الوزراء وقادة الجند على الخليفة.

أرسل نور الدين ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه سنة ٥٥٩ – ٥٦٢- ٥٦٤ هـ، ترافقت مع حملات صليبية تنطلق من بيت المقدس بطلب من ضرغام بداية، ثم من شاور نفسه بعد القضاء على ضرغام.

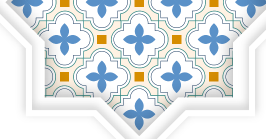
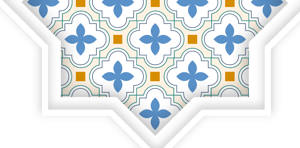
بقي الأمر دون حسم حتى تمَّ قتل شاور في الحملة الثالثة، وتسلَّم أسد الدين شيركوه منصب وزير الخليفة الفاطمي، حصل ذلك بعد أن أرسل الخليفة الفاطمي العاضد رسالة يستنجد فيها بنور الدين، بشعور النساء، ووعده بثلث مصر وإقطاعات لقادة الجند(١٦).

لم تطل أيام أسد الدين، فمات بعد شهرين، ولأن صلاح الدين كان الأصغر بين الأمراء اختاره الخليفة الفاطمي ليكون وزيرَه، فأحسن للأمراء والناس من سكان مصر فملك القلوب.

ثم حصل أن تصدَّى لحملة صليبية ضمَّت قوات من بيزنطة مع مملكة بيت المقدس على دمياط.

لقد أدرك الصليبيون خطورة بقاء صلاح الدين في مصر، فقرَّروا الحملة، وكان لصمود سكان

(11) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص454، 455.
(12) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 498.
(13) عسقَلانُ: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم قاف وآخره نون، وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، لم تزل عامرة حتى استولى عليها الإفرنج خذلهم الله في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة 548، وبقيت في أيديهم خمسًا وثلاثين سنة إلى أن استنقذها صلاح الدين يوسف بن أيوب منهم في سنة 583 هـ. معجم البلدان، ج4، ص 122.
(14) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، ج 5، ص 283. - خطط الشام، محمد كرد علي، ج2، ص 28.
(15) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 464.
(16) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 569.

دمياط، وسرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن، والتعاون الصادق من الشام ومصر، أبرز الأسباب في صدِّ الحملة[١٧].

شكلت حملة دمياط نقطة انعطاف في الصراع في المنطقة، فقد باتت مصر الآن جنبًا إلى جنب مع الشام تحت إمرة نور الدين زنكي، بعد أكثر من قرنين من الفرقة والتنازع، ثم تطور الأمر فقطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي سنة ٥٦٧ هـ، ليس هذا فحسب بل تمكّن أيضًا من ضمِّ المغرب الأدنى «طرابلس وبرقة» واليمن وفتح بلاد النوبة.

لقد تمَّ ولأول مرة منذ أكثر من قرنين توحيد مصر والشام وصولًا للجزيرة الفراتية في مشروع التحرير.

وكان نور الدين يُدرك أهمية تحصين المدن، في الوقوف في وجه المشاريع المتعددة، فظهر عنده ما سماه البعض «نزعته للبناء» لنراه يُولي اهتمامًا كبيرًا لبناء الأسوار والقلاع، وما يُلحق بها من المرافق والمساجد والمشافي «بيمارستانات» والمدارس[١٨] والخانات وغير ذلك من الدور التي يُرى أثرها واضحًا إلى اليوم في مدن الموصل وحلب ودمشق وغيرها.

وكان من أبرز تجليات وضوح الرؤية عند نور الدين أنه بنى منبرًا في مدينة حلب سنة ٥٦٣هـ، وجعل الحرفيِّين يعملون على تجميله ليضعه في المسجد الأقصى عند تحريره[١٩]، ووضع المنبر فعلاً في الأقصى عقب وفاته بعشرين سنة! .. ويصف أبو شامة ذلك بقوله: «كان فتح القدس في همَّته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبُّبًا، فإن الفاتحين له رحمهم اللّه بنوا على ما أسَّسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه»[٢٠].

وفي النهاية تُوفِّي نور الدين في شهر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، وهو مقيم بقلعة دمشق، بعلة الخوانيق[٢١]، فلما أشاروا عليه بالفصد امتنع، وكان مهيبًا فما رُوجع[٢٢]، وعهد بالملك إلى ابنه الملك الصالح، وهو ابن إحدى عشرة سنة.

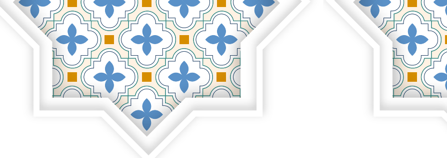
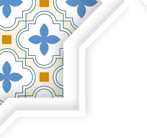
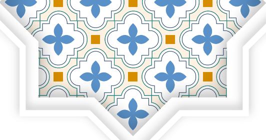
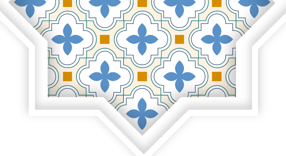
ثانيًا _ نور الدين في دمشق:

١_ دخول المدينة:

بعد تعرُّض دمشق للحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٢ هـ توضَّح تمامًا لحاكمها معين الدين أنر خطر الصليبيين، فتواصل مع نور الدين الذي لم يتردَّد في نجدة المدينة في وجه الحملة.

لكن حصل أن تُوفِّي أُنر في شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٤ هـ، وتسلَّم مجير الدين أبق حكم دمشق، وكان منه أن وقَّع اتفاقًا مع الصليبيين، فتزايد الخطر على المدينة التي غدت تدفع الجزية لمملكة بيت المقدس.

(17) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 575.
(18) الأعلام، الزركلي، ج 7، ص 170.
(19) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 3، ص 392.
(20) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 3، ص 394.
(21) الخناق والخوانيق: أن يحدث في المبلغ ضيق. مفاتيح العلوم، الخوارزمي، ص 98.
(22) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 531.



قلعة دمشق

لم يكن نور الدين بعيداً عن هذا خاصة مع هجوم الصليبيين على حوران(٢٣) في ذات السنة، وقتلهم المسلمين، وقيامهم بسبي النساء والأطفال، فتحرَّك نور الدين باتجاه بعلبك، وأرسل منها رسالة لمُجير الدين أبق، مُوضِّحًا له سبب مجيئه، وأنه ما حضر إلا لنصرة المسلمين في أطراف دمشق، الذين عجز أبق عن حمايتهم.

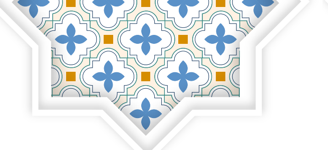
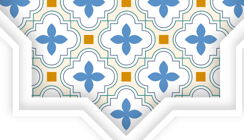
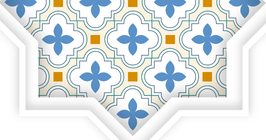
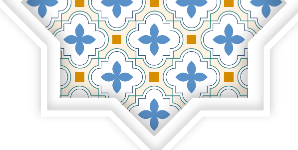
كان رد مجير الدين مَستفزًا «ليس بيننا إلا السيف»، فتحرَّك نور الدين وحاصر المدينة، وكان ذلك سنة ٥٤٦ هـ.

استمرَّ الحصار مدة أسبوع، ثم انسحب نور الدين بسبب أمطار غزيرة هطلت في ذلك الوقت، ثم بدأ العمل على السيطرة على دمشق عبر خطة تتضمن محاور ثلاثة.

سعى نور الدين إلى ضمِّ دمشق للمشروع، دون حرب تستنزف المسلمين، في وقت هم أشدُّ حاجة لكل جهد وذلك بالتقرب من أهل المدينة.

تجلّى المحور الأول من خطة نور الدين بحملة دعائية بين أهالي المدينة، فعندما أدرك مجير الدين عزم نور الدين على أخذ المدينة عرض عليه الدعاء وسك العملة باسمه مقابل بقائه كحاكم لدمشق،

(23) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع. معجم البلدان، ج2، ص 317.

وحرص نور الدين عند قدوم أبق لمعسكره ولقائه به أن يلتقي بأهالي دمشق من العلماء وطلبة العلم(٢٤)، الذين تشوّقوا للقاء ذاك الحاكم الذي شاعت أخبار عدله وسيرته في حلب وغيرها.

أما المحور الثاني فكان مراسلته سراً لوجوه مدينة دمشق من أعيان وتجار، إضافة لقادة التنظيمات الشعبية فيها(٢٥)، وهنا استفاد نور الدين من وجود نجم الدين أيوب في دمشق، وهو من سكان المدينة وأحد أعيانها(٢٦)، وهو أخٌ لأسد الدين شيركوه أبرز قادة نور الدين، فبذل نجم الدين جهوداً أثمرت في إرسال أعيان دمشق رسالة لنور الدين يُعلنون فيها استعدادهم لحصر مجير الدين أبق في القلعة، وتسليم المدينة له دون قتال(٢٧).

أما المحور الثالث في الخطة فكان فهم نور الدين شخصية أبق، والتعامل معه على هذا الأساس، وذلك بمراسلته واستشارته، تبع ذلك إرسال الهدايا له، ثم بدأ يُوقع بينه وبين قادة جنده، فأرسل له عن بعض أمرائه أنهم يراسلونه، ليقوم مجير الدين باعتقال البَعض وتجريد البعض الآخر من منصبه، حتى لم يبق معه مَن يُعتمد عليه، وأصبح مكروهاً من الرعية، معزولاً عن الأعيان مُجرَّداً عن القادة(٢٨).

عندها حانت الفرصة المناسبة فتحرك نور الدين، وأوعز لأنصاره، فثاروا وهاجموا أبواب المدينة من الداخل، وفتحوها لجيش نور الدين، ولم يجد مُجيرُ الدين سوى أن يلجأ للقلعة ويتحصن بها هو ومن تبقَّى معه، فأرسل له نور الدين الأمان مقابل الاستسلام، وإقطاعاً في مدينة بالس على نهر الفرات، فقَبِلَ وصَفَتِ المدينة لنور الدين.

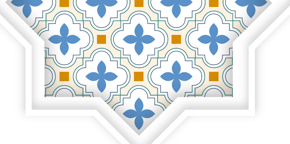
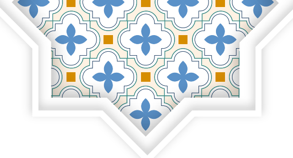
لقد نجحت خطة نور الدين وحنكته في تأليف القلوب، وأبدى من القوة والعزم والصبر والتروي ما مكَّنَه من التعامل مع الأمراء المنحرفين عن جادة الصواب.

إن دخول نور الدين مدينة دمشق في شهر صفر عام (٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م)، مُرحَّباً به من قبل الأعيان والأحداث(٢٩)، يُعَدُّ من أهم الإنجازات السياسية الخارجية له، بل يعتبرها البعض أعظم إنجازاته.

وهي حادثةٌ تُعَدُّ نقطةَ تَحوُّل، فغدت دمشق ولأول مرة منذ الحروب الصليبية ضمن دولة واحدة تمتدُّ وصولاً للجزيرة الفراتية ضمن مشروع التحرير، وهذا ما أفزع الصليبيين، فوصفه المؤرخ وليم الصوري بأنه التغيُّر المشؤوم بالنسبة لمصالح بيت المقدس(٣٠).

---

(24) الدَّولة الزّنكيَّة، علي الصلابي، ص 463.
(25) الباهر في تاريخ الدَّولة الأتابكيَّة، ابن الأثير، ص 107.
(26) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 590.
(27) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 107. – الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 464.
(28) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 464.
(29) جماعات عسكرية شعبية كان لها أبرز الأدوار في تاريخ دمشق بين القرنين الخامس والسادس. تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، سهيل طقوش، ص 62.
(30) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، سهيل زكار، ج 3، ص 275.

وهذا بالطبع لأن نور الدين بات الآن مُواجهًا لمملكة بيت المقدس، ليس هذا فحسب، بل إن كان الصليبيون قد بسطوا سيطرتهم على طول السَاحل الشامي فالداخل كله بات في مواجهتهم في توازن بدت فيه ملامح رجحان كفة نور الدين، ما سيتبع ذلك من فتح الطريق نحو القاهرة، التي ستُصبح محطَّ أطماع متبادلة بين الطرفين.

إن دخول نور الدين مدينة دمشق نقلها من حال إلى حال، فبدأت تعود لألقها شيئًا فشيئًا، وبدأت تعود لتأخذ دورها في المنطقة، وبدأت ملامح نهضتها واضحة للعيان.

لقد ساهم هذا الحدث أكثر بصعود نجم نور الدين، لكنه لم يتخلَّ عن حنكته، ولم تأخذه نشوة الانتصار، لذلك نجده يُجدِّد الهدنة مع مملكة بيت المقدس مدة سنتين(٣١).

٢ـ النظام الإداري في دمشق أيام نور الدين:

اتَّخذ نور الدين من دمشق عاصمة له، وشرع بعمليات البناء والعمران، لتشهد المدينة ما شهدته المدن الأخرى في ظل الحكم النوري، ونرى نهضة في بناء المساجد والمدارس والبيمارستانات «المشافي» والخانات، إضافة للأوقاف الكثيرة التي تمَّ رصدها لمصالح السكان.

لقد وصف المؤرخون دمشقَ في عهد نور الدين على أنها عاصمة لدولة مترامية الأطراف، تمتدُ من الموصل وديار الجزيرة شمالاً وحتى برقة في الساحل الليبي غربًا، وصولاً للحجاز جنوبًا، وقد أطنبوا في وصف سياسة نور الدين الذي غير وجه المدينة، فاستقدم لها كبار العلماء والحرفيين، ما انعكس بشكل إيجابي على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية فيها.

لقد وصف الذهبي دخول نور الدين دمشق بقوله: «وسُلِّمت إليه دمشقُ للغلاء والخوف، فحصنَّها، ووسَّع أسواقَها، وأنشأ المارستان ودار الحديث والمدارس ومساجد عدّةً»(٣٢).

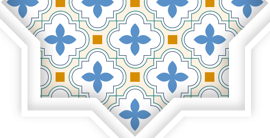
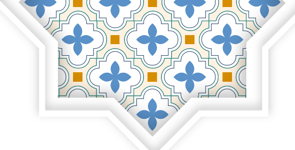
كانت الدولة في أواخر أيامه مُقسَّمةً إلى عدة أقاليم، هي: إقليم حلب، وإقليم دمشق، وإقليم الموصل، وإقليم مصر، وإقليم اليمن، وإقليم الحجاز، ولكل إقليم إدارته المحلية التي تتألف من عدد من الموظفين الذين يُعيِّنُهم نورُ الدين، وجميع الأقاليم تتبع السلطة المركزية في دمشق.

اعتمد نور الدين النظم الإدارية ذاتها التي أرسى السلاجقة قواعدها، لكننا نجده يُولي اهتمامًا أكبر لكفاءة الرجال، الذين وإن انتموا لأعراق ومناطق مختلفة، ولكن جمع بينهم أمر واحد وهو تلك الميزات التي تُؤهِّلهم ليكونوا في دولته(٣٣)، فحباه اللّه عز وجل برجال طُبعوا بطابعه من الزهد والتعفُف والتفاني في أداء الواجب والعمل لمصلحة الأمة(٣٤).

ومن أبرز هؤلاء: أسد الدين شيركوه وبنو أيوب. وقد كان أسد الدين أشبه بوزير أول لنور الدين،

---

(31) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 260.
(32) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 532.
(33) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 259.
(34) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 269.


واستمرَّت علاقتُه به حتى بلغت قمتها في ترشيحه ليقود الحملة لمصر. وكذلك اعتمد نور الدين عليه في الاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق، والتمهيد لدخولها سلمًا، فارتفعت مكانة الأخوين عند نور الدين، وبرز أولاد نجم الدين: صلاح الدين وتورانشاه كأميرين مُتقدِّمين في الدولة.

ومن الشخصيات التي اعتمد عليها نور الدين أيضًا: مجد الدين ابن الداية وإخوته، ومجد الدين هو أخو نور الدين من الرضاعة وتربَّى معه، وكان مجد الدين مع أخوته أعزَّ الناس على نور الدين، قد أسكنهم معه في قلعة حلب، ولا يصدر إلا عن رأيهم(٣٥)، فعظم نفوذهم في حلب في حياة نور الدين(٣٦).

ومن أبرز الشخصيات العماد الأصفهاني الذي دخل دمشق سنة ٥٦٢ هـ ليكون في خدمة نور الدين، فصار رئيس ديوان الإنشاء وكاتب السر، حتى وفاة نور الدين. وقد اعتمد عليه نور الدين فضلاً عن ذلك في عدد من السفارات، وفوَّض إليه الإشراف على المدرسة النورية بدمشق، التي سيصبح اسمها بعد ذلك: المدرسة العمادية نسبة إليه. وما زال نور الدين يعتمد عليه حتى أصبح المسؤول الأول عن الكتابة والإشراف الإداري والاستيفاء المالي(٣٧).

٣ـ أبرز وظائف الدولة في عهد نور الدين:

أ ـ النائب:

وهو مَن ينوب عن نور الدين في الإقليم، ويكون مسؤولًا عن الشؤون العسكرية والإدارية فيه، ومن صلاحياته توقيع المراسيم والمنشورات، وترشيح أسماء نوابه في المدن التابعة للإقليم، ومن أشهر النواب: مجد الدين ابن الداية، الذي بقي مدة خمسة عشر عامًا نائبًا لنور الدين في حلب.

ب ـ الوزير:

ويكون مسؤولًا أمام نور الدين عن جميع الدواوين والسجلات المتعلقة بالجند والبريد والخزينة، وهو رئيس الجهاز الإداري المركزي.

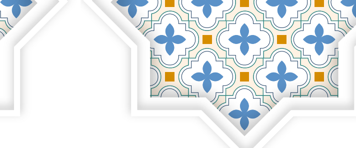
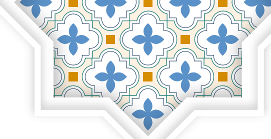
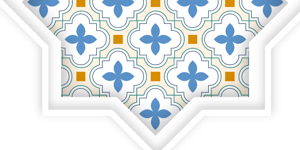
وقد كان الوزير في أيام السلاجقة هو المُدبِّر الوحيد لشؤون الدولة، لكن مع استحداث منصب النائب قُلِّصت صلاحياته، فالنائب يتمتَّع بجميع صلاحيات السلطان ضمن منطقة مسؤوليته، ويرتبط بالسلطان مباشرة.

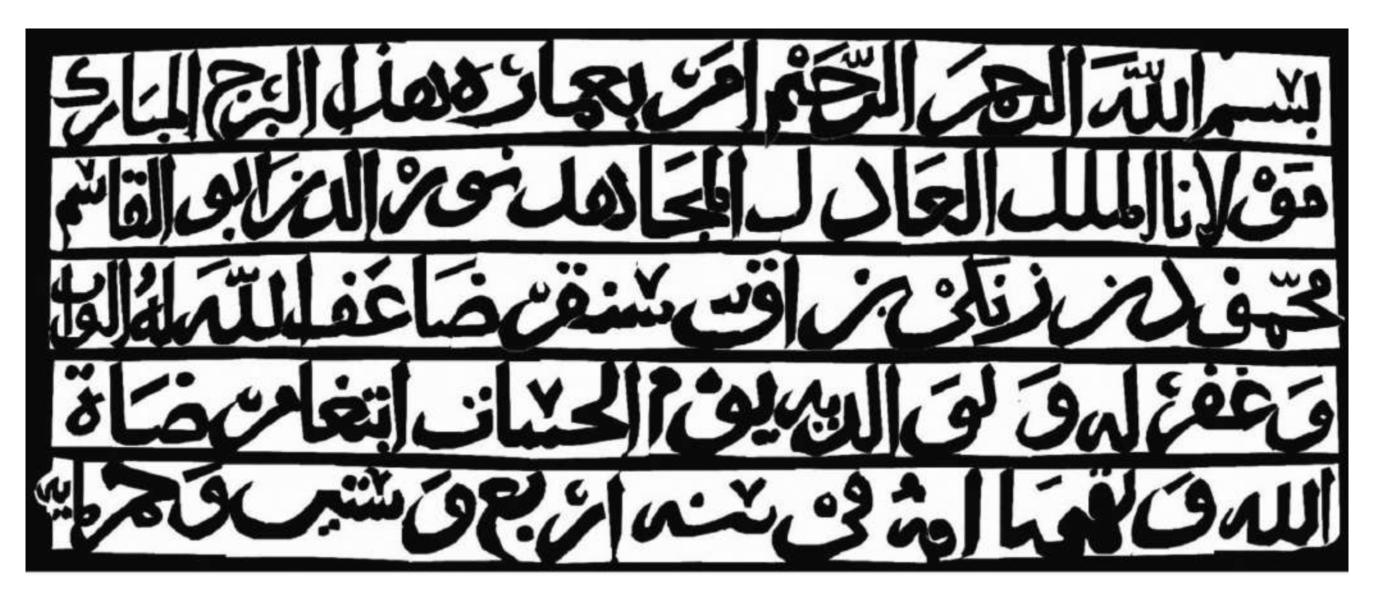
ولم يكن ثمة وصف دقيق للوظائف وصلاحياتها، لذلك نجد تداخلاً بين وظيفة الوزير ووظيفة ناظر الديوان، المسؤول المباشر عن الدواوين، واعتمد الأمر على كفاءة مَن يتولَّى المنصب وعلى شخصيته(٣٨).

ج ـ المستوفي:

وترتبط وظيفته بالأموال، فهو المسؤول عن تقدير الأموال المستحقة وجمعها من مصادرها،

(35) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، ج 8، ص 324.
(36) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 163.
(37) البرق الشامي، الكاتب الأصبهاني، ج 1، ص 10 11-.
(38) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 265.

نقش تأسيس برج في سور دمشق غربي باب كيسان على يد نور الدين محمود (٥٦٤هـ = ١١٦٨م)

وتخصيص الأموال اللازمة للجند وغيرهم من أجهزة الدولة ومؤسساتها، وله نواب في الإقليم يقومون بنفس الواجبات ويعملون بإمرته.

يستقرُّ المستوفي في العاصمة في ديوان يسمى ديوان الاستيفاء، ويساعده عدد من الكتبة، وهو المسؤول عن موازنة الدولة.

ويتبع المستوفي موظفٌ آخر هو المشرف، يترأس ديوان الإشراف، ومهمته تدقيق الحسابات والموازنة بين الصادرات والواردات لخزينة الدولة.

د ـ الأمير الحاجب:

ويتولّى كلَّ ما يتعلق بشؤون الجند، أو ما عرف بديوان الجيش، فيرتبط عمله بشؤون الخيل والسلاح والرواتب والإقطاعات.

هـ ـ الوالي:

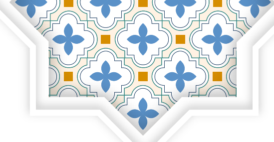
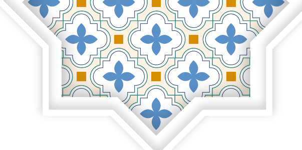
ويُعَدُّ مسؤولاً عن مدينة أو بلدة أو قلعة في الإقليم الذي يتولاه النائب، وترتبط به واجبات إدارية تشمل تنفيذ الأحكام ومراقبة الأسواق ومحاسبة المخالفين للقانون، هذا بالنسبة لوالي المدينة أو البلدة، أما والي القلعة فهو يُعتبَر قائداً عسكرياً عليه واجبات إدارية ضمن القلعة ذاتها.

و ـ الشحنة(٣٩):

ويُعيَّن من قبل السُلطان، وهو الحاكم الإداري للمدينة، المسؤول عن الأمن والنظام فيها، ويكون رجال الشرطة بإمرته، وقد تولّى تورانشاه بن نجم الدين أيوب شحنة دمشق، ومن بعده أخوه صلاح الدين.

---

(39) الشحنة أو الشحنكية كلمة تركية بمعنى قائد الحامية. الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 267.

ز ـ القاضي:

تمتع منصب القاضي في عهد نور الدين باستقلال تام، ولاهتمامه بإرساء العدل اختار لهذه الوظيفة أشهر العلماء والفقهاء ممَّن عرف بالتقوى والاستقامة.

وكان نور الدين قد أنشأ محكمة عليا أطلق عليها اسم: دار العدل، وجلس فيها بنفسه للنظر في القضايا المتعلقة بكبار رجال الدولة، الذين طلبهم للمحاكمة، بعد أن لاحظ تهيُّب القاضي منهم.

ورُوي أن أحد المدعين طلَب نور الدين في قضية، فنزل وجلس بين يدي القاضي، وطلب منه أن يساوي بينه وبين خصمه في المحاكمة، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك من الأمراء والقادة على مخالفة الشريعة أو ظلم أحد من الرعية.

وكان كمال الدين الشهرزوري أشهرَ القضاة في دولة نور الدين، كان قاضيًا لدمشق فجعله قاضيًا للقضاة في كامل الدولة، وكلَّفه بأعمال أخرى كالإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وبناء أسوار دمشق ومدارسها وبيمارستاناتها، حتى وُصف بأنه كان الحاكم المطلق في دمشق(٤٠).

٣ـ أهمِّ ميِّزات النِّظام الإداريِّ عند نور الدِّين:

أ ـ السَّعي الدَّؤوب لإرساء العدْل:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلَم في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «**سَبْعَةٌ يُظلُّهُمُ اللّهُ في ظلّه، يَومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه**» وذكر: « **إمَامٌ عَادلٌ**»(٤١).

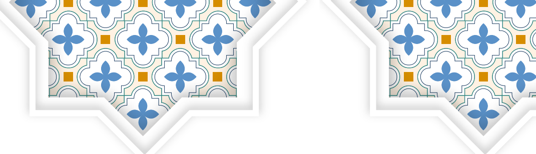
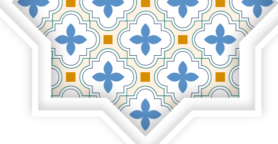
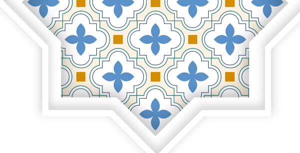
وعنه صلى الله عليه وسلم: « **أفضلُ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة إمامٌ عادلٌ رفيق، وشرُّ عباد الله عند الله منزلةً يوم القيامة إمامٌ جائر**»(٤٢).

إن من أهم الواجبات في دين الإسلام إقامة العدل، وقد كان نور الدين قدوةً في عدله، قامت سياسته على العدل الشامل، ونجح في ذلك حتى اقترن اسمه بالعدل فسُمِّي : بالملك العادل(٤٣).

جعل نور الدين المؤسسة القضائية مستقلة وذات صلاحيات واسعة، وتكلَّلت جهودُه بإنشاء دار العدل(٤٤)، وهي بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين، حيث كان يجلس بنفسه(٤٥)، وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعَمَّمها في غير دمشق، فمن الأمراء من لا يُقدِم القضاةُ على محاسبتهم، فكانت الحل لمثل هذه الإشكاليات.

ومما يُسجَّل لنور الدين أنه لم يُفرِّق بين أبناء الرعية على أي دين كانوا، فيذكر ابن الأثير في

(40) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص : 268.
(41) صحيح البخاري، البخاري، دمشق، الحديث رقم 660، ص 165.
(42) شعب الإيمان، البيهقي، ج 6، ص 16، حديث رقم: 7371.
(43) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 531.
(44) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 168.
(45) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 62.


نقش تجديد سور دمشق على يد نور الدين محمود (٥٦٠هـ = ١١٦٤م)

الكامل أنه كان: «يُنصف المظلومَ ولو أنه يهوديًّا من الظالم ولو كان ولده أو أكبر أمير عنده»(٤٦). وهنا نتلمَّس زاوية أخرى في شخصيته، فاليهود والنصارى عُوملوا في دولة نور الدين كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، ولم يُعرف عنه أنه هدم كنيسة أو آذى قسًّا أو راهبًا، وكان الصليبيون إن دخلوا بلدًا قتلوا جلّةَ أهله المسلمين، ولو أنه عاملهم بالمثل لكان له عذر، لكنه كان عادلًا لدرجة أن الصليبيين كانوا إذا خرجوا من بلد أمِنَ النصارى فيه لعدل نور الدين وإنصافه(٤٧).

ولعل أبرز صور العدل عند نور الدين انقياده للقضاء، فقد طلب مرة من قبل أحد المدعين، ولم يأنف أن يجلس بين يدي القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، الذي ساوى بينه وبين خصمه في المجلس. ولم يكن نور الدين يُصدر العقوبة على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المُتَّهم، فلم يأخذ أحدًا دون دليل، فأمنت البلاد، وقلَّ المفسدون ببركة العدل(٤٨).

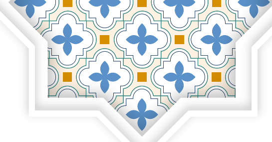
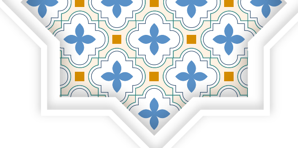
ب ـ الشورى:

كان مجلس نور الدين أشبهَ بندوة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر، وقد أورد أبو شامة وثيقة بتِّ مَحضَرِ إحدى جلسات الشورى مع أعيان دمشق من القضاة والمشايخ بصدد عدد من قضايا الوقف(٤٩).

كانت جلسات الفقهاء عند نور الدين ومناظراتهم نشاطًا جادًّا من أجل مواجهة المشاكل بالحلول المُستمَدّة من شريعة الإسلام.

لم يكتف نور الدين بهذا، بل كاتبَ العلماء والأئمة في زمانه للاستشارة أو للسؤال عما أشكل عليه، فهذا ابن الجَوزي يذكر في كتابه المنتظم أن نور الدين كاتبه مرارًا(٥٠).

(46) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 57.
(47) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 232.
(48) عيون الروضتين، أبو شامة، ج 1، ص 364.
(49) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 74.
(50) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ج 18، ص 210.


ج ـ النظام المالي:

إن ما يُميِّز عهد نور الدين هو أن خزائن الدولة كانت دائمًا تحظى بالقدر الكافي من المال، رغم الإنفاق الكبير على المعارك والخدمات الاجتماعية، وإسقاط الكثير من المكوس والضرائب التي كانت تَرفُد خزينة الدولة، فقد كانت الدولة قادرة على الإنفاق على المجالات العسكرية والاجتماعية والتعليمية بسبب سياسة نور الدين الحكيمة[٥١].

فقد اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع الحربي للصَّرف على جيوشهم، مُستمرِّين على ما نَظَّمَه السلاجقة، أي ارتبط الإقطاع بالخدمة الحربية، فيلتزم الأمير المُقطَع بتقديم العساكر وقت الحرب، مُجهَّزةً بكامل عتادها وعدتها، وهو إقطاع وراثيٌّ، ومنح الإقطاع لم يكن معناه تمليك الأرض وإنما مجرد الحق أن يجمع لنفسه وأجناده مجموعة الضرائب مقابل الواجبات المدنية والعسكرية الملزم بها[٥٢].

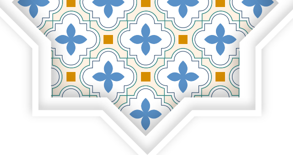
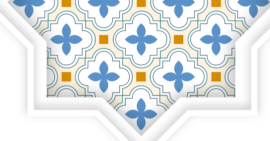
وشكَّل كلٌّ من الزكاة والخراج والجزية جزءًا مهمًّا من موارد الدولة، تُؤخذ وفق أحكام الشريعة، إضافة لما كان يدخل خزينة الدولة من أموال الغنائم وفداء الأسرى، فالدولة كانت دائمًا في حالة حرب، وكانت مبالغ هذه الأخيرة كبيرة لدرجة أن نور الدين كان يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والربط والبيمارستانات وغيرها من فكاك أسرى كان قد أسرهم في معركة حارم ٥٥٩ هـ، وقد بلغت تلك الفدية ستمائة ألف دينار إضافة للخيل والسلاح[٥٣]، هذا من معركة واحدة، فكيف بسائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين، والتي تغطي مدّةَ حكمه كلَّها؟[٥٤] .

وكان نور الدين قد استفاد من خزائن والده التي آلت إليه، ووصف ابن الأثير تلك الخزائن أنها نُقلت على ستمائة جمل خلا البغال[٥٥] . كل هذا مع أمن واستقرار داخلي وما رافقه من أمانة التزمها نور الدين وألزم موظفيه بها، فنراه يعتبر نفسه خازنًا لأموال المسلمين يجب عليه أن يصرفها في مصالحهم فقط.

أما بالنسبة للضرائب فتجلَّت سياسة نور الدين بإلغائها أو تخفيفها قدر الاستطاعة عن كاهل الناس، فقد أورد أبو شامة في الروضتين أن نور الدين لما دخل الموصل سنة ٥٦٦ هـ أمر بإسقاط جميع الضرائب والمكوس وأنشأ بذلك منشورًا يُقرأ على الناس[٥٦]، حصل مثل هذا في مناسبات عدة وتكرَّر في عهده، ومنها على سبيل المثال لما دخل دمشق[٥٧] فعل نور الدين ذلك، رغم أنه لم يصرف أموال هذه الضرائب إلا في الإنفاق على العسكر[٥٨] وفي مصالح المسلمين.

---

(51) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 273.
(52) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، عبد الله الغامدي، ص 26.
(53) مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، ج 8، ص 247.
(54) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 277.
(55) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 98.
(56) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 2، ص 168.
(57) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 532.
(58) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 54.



ثالثًا _ الحياة العلمية:

إنّ من مآثر نور الدين أن حياة الجهاد التي عاشها لم تشغله عن الاهتمام بالعلم سواء بتعلُّمه أو الاهتمام بنشره، فقد عُرف عنه اهتمامُه الشديد بالعلم، والمبالغة في العطاء عليه، رغبةً منه في إعادة بناء الدولة بناءً قويًّا على أساس من العلم، فحرص على نشر العلم والتعليم بين الناس، وأمر بإنشاء عدد من مدارس الفقه في شتى المذاهب، وكان هو أول مَنْ بنى مدرسةً للحديث(٥٩).

ولم يكن اهتمامه منصبًّا على علوم الدين فحسب، بل كان يقدر لعلوم الحياة قدرها؛ فقد كان شديد الاهتمام بالابتكار في سائر المجالات كالفلك وعلم النجوم، وكان يحثُّ العلماءَ على الابتكار، من ذلك ما فعله مع رضوان بن رستم الساعاتي، الذي صنع الساعات التي عند باب الجامع الأموي بدمشق، حيث كان يخصُّه بالكثير من المال والعطايا، حتى يتقدم في صَناعته ويتقنها(٦٠).

لقد أدرك نور الدين أهمية العلم في إبعاد المشاريع المضادة كالمشروع الفاطمي، وأهميته في إتمام مشروع التحرير في وجه الصليبين، فالتفت بشكل كبير لبناء المدارس وربط الصوفية والخانقاوات، وقد كانت هذه سمة صبغت عصره، فأنشأ العديد منها في المدن من الشمال للجنوب في مدن الموصل وحلب وحمص وبعلبك، واختصَّ دمشقَ بعدد من المدارس والخانقاوات.

وتركَّز عملُه في دمشق في ثلاثة اتجاهات:

الأول: العناية بإنشاء المدارس وربط الصوفية، والمدارس في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين: الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بالمذهب الأول أكثر. مع عدم إهمال أصحاب المذهبين المالكي والحنبلي، وأنشأ خانقاه للصوفية.

الثاني: العناية بالحديث الشريف.

الثالث: العناية بتربية الناشئة، عن طريق مكاتب الأيتام.

وخصَّص نور الدين لهذه المؤسسات الأوقافَ الكثيرة، فذكر ابن الأثير أنه قد بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغلُّ في عام ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م تسعة آلاف دينار شهريًّا(٦١).

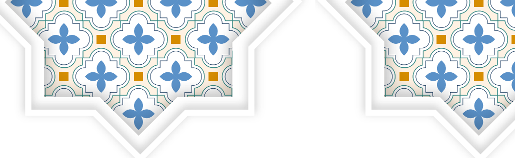
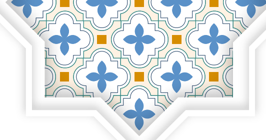
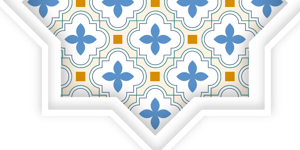
ومن أبرز هذه المؤسسات:

_ المدرسة النورية الكبرى:

أسَّسها نور الدين، وجعلها وَقفًا على الحنفية، وأول من درس بها شيخ الحنفية بهاء الدين بن عسكر بن العقادة (ت: ٥٩٦ ه- ١١٩٩ م). ووصف ابن جبير المدرسة النورية عندما زارها سنة ٥٨٠ هـ بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظرًا، بل وصفها بأنها قصر من القصور الأنيقة(٦٢).

---

(59) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، ج 1، ص 149.
(60) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، ج1، ص 433.
(61) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 172.
(62) تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ابن جبير، ص 256.

_ دار الحديث النورية:

تجلت عناية نور الدين بالحديث الشريف ببنائه أكبر دار للحديث بدمشق، وهي دار الحديث النورية التي درَّس فيها المحدِّثُ تقيُّ الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر صاحب تاريخ دمشق(٦٣) (ت: ٥٧١ هـ).

كما شيَّد نور الدين للصوفية خانقاه(٦٤)، وعيَّن لهم من ينظر في أمر زواياهم، وهو الشيخ أبو الفتح عمر بن علي بن حمويه.

وكان للأيتام جزءٌ من العناية فأنشأ دورًا لهم وأجرى لهم الأوقاف(٦٥)، بل جعل وقفًا خاصًّا لمن يتفرَّغ لتعليم الأيتام الخطَّ والقراءة حيث كان لهم نفقة وكسوة(٦٦).

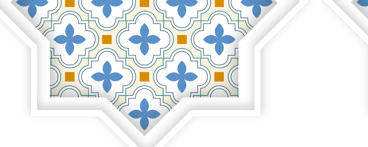
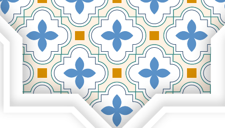
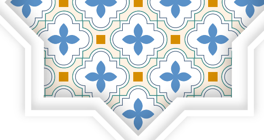
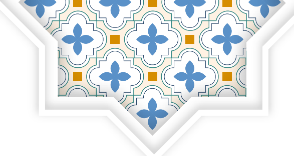
لقد تفقَّه نور الدين على مذهب أبي حنيفة(٦٧) وروى الحديث(٦٨)، وكان حريصًا على حضور مجالس العلم(٦٩)، فطبع الدولة بطابعه، لدرجة أنه قد قيل في وصف بلاد الشام أنها :«كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه أصبحت مقرًّا للعلماء والفقهاء والصوفية»(٧٠).

كما كان على قناعة تامّة بأهمية وجود العلماء الربانيِّين على رأس القيادة، فتحرير الأرض ليس عملاً سياسيًّا أو عسكريًّا فحسب، بل هو أوسع من ذلك بكثير، لذلك فالنشاط العلمي في أيامه لم يكن ترفًا فكريًّا أو مجرد تقليد متبع في أجهزة الدولة، بل حلقة مهمة في عملية الصراع التي كانت بحاجة لجيل واعٍ مُتمسِّك بهويته عالم بخطورة المشاريع في عصره(٧١).

إن أمةً يسوسُها العلماء والمختصُّون يمكن أن تزهو فيها شجرة المعرفة، ويُذكِّرنا فعلُ نور الدين في دعم العلماء والاعتماد عليهم بمنهج عمر بن عبد العزيز. فقد منح نور الدين العلماء مكانة فاقت الأمراء والقادة في دولته، وبذل لهم العطاء بسخاء، واهتمَّ بشكل كبير بخريجي المدارس النظامية التي كان لها أبرز المَهامّ في ساحة الصراع في القرنين الخامس والسادس الهجريَّين، كالقاضي كمال الدين بن الشهرزوري، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون، والعماد الأصفهاني، والقطب النيسابوري.

لقد أصبحت دمشق في عهده مركزًا لهجرة العلماء من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي كان نور الدين يقوم بها(٧٢)، وقد استمع لهؤلاء العلماء الذين لم يبخلوا بنصيحته،

(63) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 20، ص 554.
(64) الخانقاه: بالكاف أو بالقاف، كلمة فارسية معناها بيت، حدثت في الإسلام في حدود سني الأربعمائة للهجرة لتَخلِّي الصوفية فيها لعبادة الله. الخطط، المقريزي، ج 2، ص 414.
(65) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، ص 217.
(66) البداية والنهاية، ابن كثير، ج 16، ص 481.
(67) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 57.
(68) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 10، ص 57.
(69) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 227.
(70) الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، ج 1، ص 62.
(71) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 242.
(72) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، ص 223.





ولو كان النصح شديدًا، فقد أورد ابن كثير نصيحة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي في أبيات كتبها لنور الدين بشأن الضرائب، يقول له فيها :

مَثِّلْ وُقُوفَكَ أيُّها المَغْرُورُ ❖ يَومَ القِيامةِ والسَّماءُ تَمُورُ

فلما سمعها نور الدين رحمه الله تعالى بكى، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد(٧٣).

رابعًا ـ الحياة الاجتماعية:

لقد حرص نور الدين على توفير الخدمات الاجتماعية المتنوعة، فعمل على فكاك الأسرى وتأمين قضايا المسكن والملبس والمعاش وصولًا للحاجات الفكرية، فبنى البيمارستانات والملاجئ ودور الأيتام، والمدارس والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والحصون والخنادق والأسوار والأوقاف والخوانق والربط، وازدهرت المكتبات، وكلُّ هذا انعكس على معيشة السكان خاصة مع تقليص نظام الضرائب وتخفيف عبئها عن الأهالي(٧٤). ففي سنة ٥٦٩ هـ استدعى نور الدين رؤساء دمشق ومُقدَّمي الحارات والشيوخ، وطلب منهم تقديم أسماء المحتاجين في كل حي أو منطقة ينتمون لها، سواء كان المحتاج يتيمًا أو أرملة أو حتى رجلاً فقدَ عمله.

١ ـ المساجد:

أصلح نور الدين أحوال المسجد الأموي، وأضاف لأوقافه المعلومة الأوقافَ التي لم تعد تُعرف شروط واقفيها، وأطلق عليها مال المصالح، وأمر بإحصاء المساجد التي هُجِرت أو خربت في دمشق، فزادت عن مائة مسجد، فأمر بعمارتها وعين لها أوقافًا(٧٥)، وكانت أشهر مرافق التعليم في الجامع الأموي بدمشق:

ـ الزاوية الغزالية في الجهة الشمالية الغربية من الجامع، يُدَرِّس بها الفقه الشافعي، وبها تخرَّج كثير من العلماء، وتُنسب للشيخ أبي حامد الغزالي (٥٠٥ هـ).

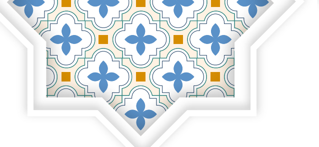
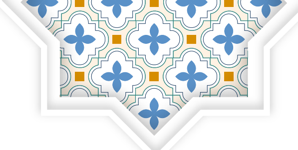
ـ السبع المجاهدي وهو المكان الموجود داخل الجامع بمقصورة الخضر، ويُقصَد بالسبع قراءة سبع من القرآن، ويُنسب للأمير مجاهد أبو الفوارس أحد مقدَّمي الجيش في عهد نور الدين.

ـ الحلقة الكوثرية: تحت مئذنة العروس، وقفها نور الدين على صبيان صغار وأيتام يجتمعون كل يوم بعد صلاة العصر، وتجاوز عدد الصبيان ثلاثمائة طالب(٧٦).

ـ مجلس الحافظ ابن عساكر يُملي فيه على طلابه، خاصة قبل إنشاء دار الحديث النورية.

ـ حلقة إقراء قبة النسر.

(73) البداية والنهاية، ابن كثير، ج 16، ص 489.
(74) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 290 وما بعدها.
(75) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 298.
(76) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 299.


وإضافة لاهتمام نور الدين بالجامع الأموي فقد أنشأ جامع القلعة في قلعة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف[٧٧].

٢ـ البيمارستانات:

بنى في دمشق البيمارستان النوري الذي يُنسب إليه، والذي قال عنه ابن الأثير: «وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق».

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق بتدريس الطب إلى ما بعد زمان نور الدين، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة في كتابه وهو يترجم لعدد من الأطباء، فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، فكانت البيمارستانات مكانًا للتعليم والصحة، تجري فيها مجالس العلم التي كان يعقدها المختصون بصناعة الطب وتدريسه[٧٨].

٣ـ الخوانق والرُبط:

وهي من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي، وكانت دورًا للتعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية، إضافة لمهمتها الأساسية في ممارسة التصوف سلوكًا، بُنيت بغرض إيواء الصوفية الذين كانوا يُخلُّون أنفسَهم لعبادة الله، فخُصِّصت لهم لإقامتهم حيث وفَّرت لهم أسبابَ الراحة والعيش، ليتفرغوا للعبادة وطلب العلم، من خلال بعض الأوقاف.

وبرزت في دمشق إلى جانب خانقاه القصر الخانقاه الأسدية التي تُنسب لأسد الدين شيركوه، وخانقاه الطاحون والخانقاه السُميساطية، إضافة للرباط البيانيّ الذي أوقف عليه نور الدين وأعان على إنشائه[٧٩].

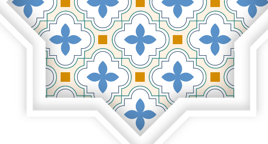
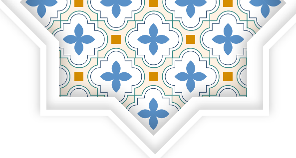
٤ـ المكتبات:

كانت المكتبات بمثابة دور للتعليم، يُنفق عليها الأمراء والعلماء لنشر العلم بين الناس، خاصة مع عدم وجود الطباعة، فالمكتبات تُعَدُّ القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في المجتمع، لدرجة أنه يُمكن اتِّخاذُها المعيار الذي يُحكَم به على تقدُّم هذا المجتمع.

وقد كانت الكتب تُنسَخ على أيدي نُسّاخ مُختصِّين، وبسبب قلة عدد النسخ وارتفاع الأسعار نشأت فكرة جمع الكتب في مكان واحد ليسهل عَلى طلاب العلم الاطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عرف بخزائن الكتب.

لقد اهتم نور الدين بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، فقلما نجد دارًا تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة من الكتب، وأوقف الأوقاف للصرف على المكتبة والمشتغلين بها.

(77) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، ج 2، ص 341.
(78) على سبيل المثال ذكر ابن أبي أصيبعة، في ترجمة شمس الدين بن اللبودي، وقدومه لدمشق بعد سنة 613 هـ، بأنه عمل في البيمارستان كمدرس وطبيب. وكذلك في ترجمة أبو المجد بن أبي الحكم 628. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 662.
(79) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج 7، ص 318.

٥ـ الاهتمام بالأيتام والأرامل:

شاء القدر أن تكون دولة نور الدين دولة حرب، فكانت أعداد الأيتام والأرامل في ازدياد، وكان يُولي هذا الأمر اهتمامًا بالغًا، بصرف مخصَّصات لهم من مال وكساء، ولم يكن اهتمامه فقط بأولاد من مات في المعارك بل حتى من كانت وفاته طبيعية، وفي سنة ٥٦٩ هـ اجتمع برؤساء دمشق ومشايخها، وطلب منهم أن يُعرِّفوه بأسماء الأرامل والأيتام في أحيائهم، فأمر لهم بالأموال والعطايا[٨٠].

٦ـ بناء الحصون والخانات وغيرها:

اهتم نور الدين بالعمران، لخدمة السكان، فالحصون وأسوار المدن والقلاع لحماية السكان وصدٍّ هجمات العدو وحفظ المؤن والسلاح، والأسواق والخانات والحمامات والقناطر والجسور لتسهيل العمل بالزراعة والتجارة، من أجل تحقيق الكفاية وتحسين المعيشة وزيادة موارد الدولة.

أنفق نور الدين الأموال الطائلة على العمران، إضافة لجهوده في إعادة بناء أسوار المدن والحصون التي خربتها الزلازل التي حصلت في سنة ٥٥٢ هـ، وسنة ٥٦٦ هـ[٨١].

كما بنى الخانات في الطرق، فأمِنَ الناسُ، وحُفظت أموالهم، وباتوا في مأمن من البرد والمطر[٨٢].

وأقام الأبراج على الطرق للحمام، لنقل الأخبار، فمملكته قد اتسعت وهي في حالة حرب، فظهرت الحاجة لإيصال الأخبار في أسرع وقت، فكانت الرسائل تنتقل من مدينة لأخرى بأسرع وقت، فحُفظَت الثغور[٨٣].

الخاتمة:

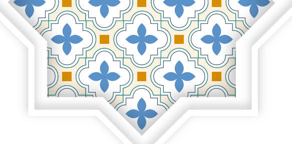
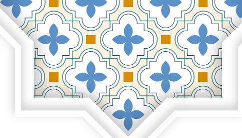
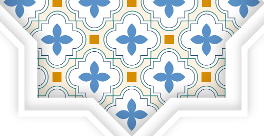
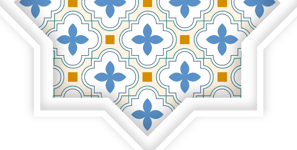
لقد رأينا كيف انعكست شخصية نور الدين زنكي على الأوضاع في مدينة دمشق، فنقلتها من حال إلى حال.

لقد بدأت دمشق منذ منتصف القرن السادس الهجري بالعودة لدورها في المنطقة، بعد أن كانت محطَّ أطماع القوى المتنافسة، وقد تطوَّر وضعُها في عهد نور الدين لنراها:

ـ سياسيًّا تتحول من مركز ضعيف يتعرض لهجمات القرامطة تارة، ومحل نزاع بين الفاطميين في مصر والحمدانيين شمال الشام، إلى عاصمة قوية مرهوبة الجانب، ومن إمارة تدفع الجزية لمملكة بيت المقدس عقيب سيطرة الصليبيين على الساحل الشامي إلى رأس في مشروع التحرير.

ـ وإداريًّا نجد إرساء قواعد العدل الذي به تحيا الأمم، والأخذ بالشورى والاعتماد

(80) الدولة الزنكية، علي الصلابي، ص 322.
(81) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 170.
(82) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 171.
(83) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ص 159.

على الرجال وفق كفاءتهم لا حسب انتماءاتهم، ما انعكس على نواحي الحياة، فأمن الناس وتنوعت أنشطتهم وازدهرت بذلك المدينة.

_ أما علميًّا فباتت دمشق مقصداً للعلماء وطلبة العلم للدراسة والعمل بها، خاصة بعد إنشاء المدارس كالمدرسة النورية ودار الحديث وغيرها.

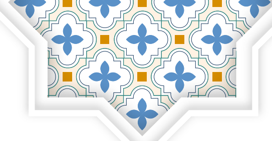
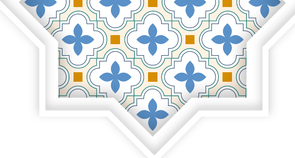
_ ومن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية نجد تحسُنًا كبيرًا في معيشة السكان كنتيجة لما أسَّسه نور الدين من منشآت وعمران ونظام للأوقاف، إضافة لسعيه الدؤوب للتخفيف من الضرائب التي كانت تُثقل كاهل السكان.

وكان من أهم عوامل نجاح نور الدين:

_ أن جهوده جاءت تالية لجهود السلاجقة العظام خاصة في ثمار المدارس النظامية، التي بدأت بالظهور في عهد نور الدين، فبرزت شخصيات لعبت أدوارًا كبيرة هي بالأساس من خريجي هذه المدارس.

_ أيضًا من العوامل استفادته من مواهب العلماء في عصره ووضعها ضمن مشروع التحرير، فلم يكن العلم في عصره للترف الفكري، وإنما ينعكس مباشرة في واقع الناس.

_ يُضاف لذلك شخصية نور الدين القوية وصفاته المميزة.


ـ مصادر البحث ومراجعه:

ـ المصادر:

ـ الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري ٦٣٠ هـ، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

ـ البداية والنهاية، ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي ٧٧٤ هـ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر.

ـ البرق الشامي، العماد الأصبهاني، أبو عبد الله عماد الدين محمد بن محمد صفي الدين ٥٩٧هـ، المحقق: د. فالح حسين، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٥.

ـ تاريخ الأمم والملوك، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ٣١٠ هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية، أحد عشر جزءاً.

تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ٥٧١ هـ، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ثمانين مجلداً.

ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني ٦١٤ هـ، بيروت، دار صادر.

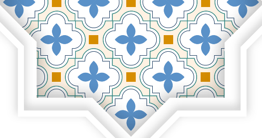
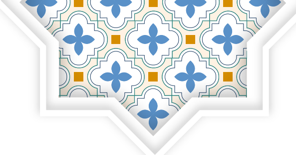
ـ الجامع الصحيح المختصر، البخاري، محمد بن إسماعيل ٢٥٦هـ، دمشق، دار ابن كثير ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

ـ الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي ٩٧٨ هـ، أعد فهارسه: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ـ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ٨٠٨ هـ، تحقيق: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ١٤٣١هـ/٢٠٠١م، ثمانية مجلدات.

ـ ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي ٥٥٥ هـ، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار حسان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ٧٤٨ هـ، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، دمشق، مؤسسة الرسالة.


_ شعب الإيمان، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين ٤٥٨ هـ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، تسع مجلدات.

_ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ٢٦١ هـ، عناية: نظر محمد الفاريابي، الرياض، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

_ طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب ٧٧١ هـ، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، عشرة مجلدات.

_ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي ٦٦٨ هـ، تحقيق نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة.

_ عيون الروضتين، أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ٦٦٥ هـ، تحقيق: أحمد البيسومي، دمشق، وزارة الثقافة - إحياء التراث العربي، ١٩٩١م.

_ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري ٦٣٠ هـ، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، أحد عشر مجلداً.

_ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ٦٦٥ هـ، تحقيق: إبراهيم الزيبق، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، خمسة أجزاء.

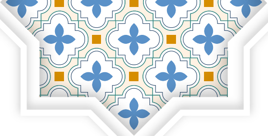
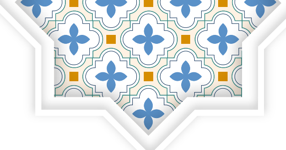
_ مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن قزأوغلي ٦٥٤هـ، تحقيق محمد بركات وآخرين، دمشق، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

_ معجم البلدان، الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ٦٢٦ هـ، بيروت، دار صادر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، خمسة مجلدات.

_ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ٥٩٧ هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

_ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي ٨٤٥ هـ، بيروت، دار صادر، نسخة بالأوفست، مجلدان.

_ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد ٦٨١ هـ، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.

ـ المراجع:

ـ أخبار القرامطة في الأحساء والشام واليمن، سهيل زكّار، جمع وتحقيق ودراسة، دمشق، دار حسان، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

ـ الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م، ثمانية مجلدات.

ـ تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، سهيل طقوش، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

ـ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني من القرن الخامس الهجري وحتى سقوط بغداد، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، المنصورة، دار الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ـ الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، مجلدان.

ـ خطط الشام، محمد كرد علي، دمشق، مكتبة النوري، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ستة مجلدات.

ـ دمشق مدينة السحر والشعر، محمد كرد علي، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣م.

ـ الدولة الزنكية، علي الصلابي، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

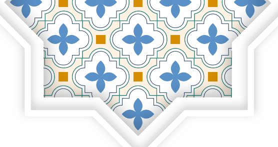
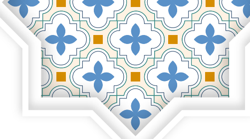
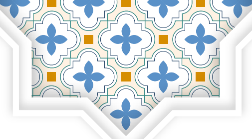
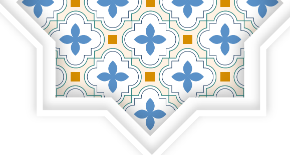
ـ صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، علي الصّلابي، د م، مؤسسة زمزم الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

ـ الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، علي عبد الحليم محمود، د م، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عماد الدّين خليل، دار ابن كثير.

ـ مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، عبد الله بن سعيد الغامدي، السعودية جامعة أم القرى، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، ١٤١٤هـ.

ـ الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، سهيل زكّار، تأليف وتحقيق وترجمة، دمشق، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.







Levantine fragrance in a Poetry of Nizar Qabbani

Dr. Chawki almaari

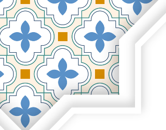


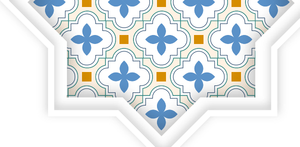


العبق الشاميّ
في
شِعر نزار قباني

الدكتور شوقي المعرّي [1]

[1] أستاذ اللغويات في جامعة دمشق سابقاً وفي المؤسسات العلمية حالياً.





ملخّص البحث

يتناول هذا البحث جانباً مهماً من جوانب شعر نزار قباني، وهو القصيدة أو الشعر الذي وقف فيه الشاعر على ما يتصل بالشام، ولاسيما البيت الريفي والبيت الدمشقي العتيق، وأغراضه التقليدية التي كانت مادة جميلة وغنية، فاستطاع نزار أن يشكّل منها لوحات شعرية لم يصلها غيره من الشعراء، وقد ظهر عند نزار كما في كل أغراضه الشعرية التقليدية المعجم اللغوي الثريّ المتنوع الذي أضاف إلى القصيدة سحراً جديداً.

_ مقدمة:

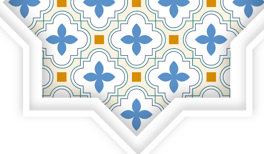
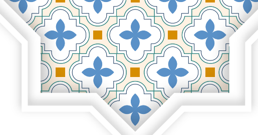
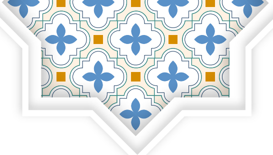
إن معظم ما كُتب عن الشاعر نزار قباني تخصّص بالحديث عن غزله؛ لأنه برأي الكثيرين هو المسيطر على شعره، وهذا غير صحيح أو غير دقيق، صحيح أن كثيراً من شعر نزار في الغزل، إلا أن ثمة شعراً في السياسة كثيراً، وأراه يفوق كثيراً من شعره الغزلي، وهذا جانب مهم من جوانب شعر نزار التي يجب أن تُدرَس كلّها حتى نصل في النهاية إلى تكوين صورة متكاملة عن شعره، لا أن نبقى أسرى وجهٍ واحد من وجوه الشعر عنده، وهو الغزل.

فإذا كان الغزل واضحاً في شعر نزار وكثيراً، وإذا كان مثله شعره السياسي، وقد سمّى أحد دواوينه «**الأعمال السياسية الكاملة**»، فإن ثمة شعراً بين ثنايا الأبيات والقصائد في شعره، يمكن للإنسان أو القارئ أن يستشفّ منها موضوعات عديدة، ويستنبطَ أغراضًا شعرية لها من الأهمية الكثير، لكنها ظلت محجوبة عن القارئ، أو ظلت من دون دراسة، ومن هذا صورة البيت الشامي ريفاً ومدينة، وقد تناثرت ألفاظه في كثير من القصائد، فهو لم يُخصِّص له قصيدة واحدة.

لقد أثارتني ألفاظ كثيرة ضمّنها قصائدَه الغزلية تتحدث عن الطبيعة، ووظّفها التوظيف الأجمل، وهو القادر على جعل معجمه اللغوي الغني في خدمة أي غرض من الأغراض الشعرية.

إن من يقرأ الألفاظ التي في هذا الغرض يكتشف أن عند نزار معجماً خاصّاً بالطبيعة، وأنه استطاع أن يرسم لوحة للريف السوري ولاسيما البيت، كما رسم صورة للبيت الدمشقي وأغراضه التي تعيش مع الإنسان أو يعيش معها الإنسان، وكلنا يتذكر أنه قرأ ألفاظاً كثيرة تتّصل بالبيت الدمشقي من الياسمين إلى الفلّ إلى الورد الجوري إلى الشبابيك والنوافير... إلى كل ما يشدُك إلى السكن فيه، كما تشدُك كلمات نزار..

كل هذا جعلني أقف على تلك الألفاظ التي قرأتُها غير مرة في غير قصيدة، فأثارت لدي الاهتمام، فأعدت قراءة شعر نزار كله راصداً وجامعاً ما فيه، وفكرت: هل تشكل بحثاً جديراً بالدراسة؟ فوجدتُ أنها تشكل بحثاً طريفاً جميلاً يمكن إضافته إلى ما كنتُ كتبته عن نزار في غير بحث وكتاب، معتمداً قراءة الشّعر، فأنا لم أقع على كتاب أو بحث تكلم على هذا الجانب عند نزار، ثم إنني أُفضِّل دائماً أن أقيم البحث على القراءة فحسب، فأكون أمام تحليل بعد قراءة شخصية تصل بي إلى قناعة ما فيما أكتب، ويكون برأيي أكثر صدقاً مما لو عدت فيه إلى ما سبقني، وإن كان هذا واجباً كيلا

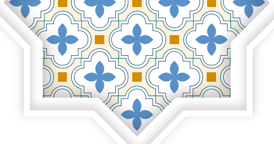
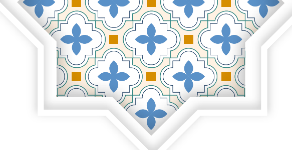





يقع التكرار أو تحدث السرقة، ويصبح السؤال: لِمن الأسبقية؟

من هنا وجدت أن أكتب معتمداً على النص الشعري، ووجدت توزيع المادة على عناوين فرعية فرضتها طبيعة الألفاظ.. ولما كنت لم أعتمد أي مصدر أو مرجع، فإنني أشرت في المتن إلى رقم الصفحة والجزء من الأعمال الكاملة التي اعتمدتها وهي جزآن، كيلا أثقلَ الحواشي بأرقام، وأتمنى أن يُضيف هذا البحث جانباً من جوانب شعر نزار قباني، صاحب المعجم الغني الزاخر، الذي يفوق معظم شعراء العصر من حيث المخزون اللغوي الذي يمتلكه.

_ الغُرفةُ التي تَمَثّلَتْ في «الوَصيّةُ»..

كان الصندوق الخزفي أو المصنوع من الخشب المُعتّق والمُزيّن بالخيوط الفضيّة من أهم الأشياء التي يقتنيها الدمشقيُ في بيته، ويُخبِّئ فيه ذكرياته وأشياءه الجميلة والثمينة، والوصيّة التي كان يتركها لأبنائه. والأغراضُ جزء من الوصية المكتوبة لا كل الوصيّة.. وتختصر تلك الأغراض مقتنيات



الإنسان التي يجمعها، فتصبح ذكريات يتمنى أن تبقى مُتجدِّدة بين أيدي أولاده، ووالد نزار واحد من الدمشقيين الذين خبّؤوا تاريخاً في صندوق، فتحه نزار فوجد فيه الوصية.. فكتب «الوصيّة» القصيدة التي لا تخرج عن أسلوب نزار من حيث الوصف والجمال، وتُعد هذه القصيدة من أشهر القصائد التي يجب الوقوف عليها.

تحدث نزار في هذه القصيدة عن كل ما في البيت الدمشقي الذي خبّأه والده في صندوق..فهو يفتح الصندوق ليقرأ «**الوصيّة**» لكنه يُمزّقها، وفي هذا إشارة ربما إلى شيء طلبه منه والدُه، لكنه لم يستطع أن يُحقّقه، أو لن يستطيع..لذلك قرر أن يبيع كلَّ ما ضمّه الصندوق الذي يُمثّل كلَّ ما يضمُّه صندوق أي إنسان دمشقي يُخبِّئ أغراضه الأثيرة في صندوق خاص به، وكأنه يجمع البيت كله في هذا الصندوق..

فمَن من الرجال لم يكن يحمل «**المسبحة**»؟ ومسابح أبيه عاجيّة.

ومَن من الرجال من لم يكن يغطي رأسَه «**الطربوش**»، لكنه وصفه بـ«**التركي**»، ووصف «**الجوارب**» بـ«**الصوفية**».

كل رجل كان يضع في جيبه «علبة النُّشوق»، ويظن أنها دواء من حالات يتعرض لها..وبعد أسطر قليلة بل كلمات قليلة يصل إلى ما يريد قوله: **(٩١٣/٢)**

«أسحبُ سَيفي غاضباً..

«وأقطع الرؤوس والمفاصل المَرخيّة

«وأهدمُ الشرق على أصحابه..

تكيّة تكيّه..»

يفتح نزار صندوق أبيه فلا يرى فيه:

«إلا دراويشَ ومولويّه..

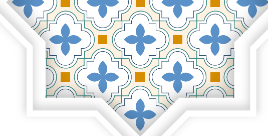
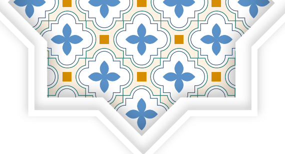
«والعُود والقانون والبشارف الشرقيّه..»

يريد أن يقتلَ بسيفه «**المعلقات العشر والألفيّه..والأضرحة الغبيّه**»

وفي المقطع الثالث من القصيدة يستعيض عن كلمة «صندوق» بكلمة «تاريخ» فيقول:

«**أفتح تاريخ أبي..**»

وهذا المقصود من القصيدة..إنه تراث أبيه وتاريخه الذي اختصره صندوقٌ، بل هو تاريخ الرجال في زمن خبّؤوا فيه «**الأدعية والمدائح النبويّة.. وأوعية للحشائش الطبيّة..وأدوية للقدرة**

الجنسية..» وغير ذلك مما لم يكن يجده، وهو يبحث عن شيء يخصّهُ أي شيء، يبحث عن أمر يخصُّ عصره، ولكن هيهات، فلم يكن يرى في الصندوق/التاريخ سوى «**رملٍ وجاهليّه..**» (٩١٥/٢)

لذلك رفض ميراث أبيه، حتى «**الثوب**» الذي ألبسه إياه رفضه، حتى «**العلم**» الذي علّمه إياه رفضه، لأنه كان يرى في هذا التعليم «**الخرافات والسِّحر وحكايات ألفَ ليلة وليله..**»

ـ البيتُ الذي غفا على الهضاب..

قد يكون جمال الطبيعة في سورية ولبنان من أجلِ البقاع التي تغنَّى بها الشعراء والأدباء، وغنَّى لها المطربون وتغزلوا فيها لسحر جمالها، وما تضمه من أشياء تثير في نفس كل من يراها الشجون، فقد يحب العيش فيها، وقد تكون ملاذاً أو هروباً من الضوضاء والضجيج اللذين في المدينة، فترتاح النفس فيها، ويهدأ الصخب الذي يضج في الرأس، لذلك ترانا نعشق الريف ونتمنى لو نملك مكاناً ولو كوخاً فيه .!

لقد أبدع نزار في وصف الريف السوري والدمشقي خاصة، ولكن لم يكن وصفه له حسيّاً مجرَّداً للطبيعة، صخرها وتلالها وينابيعها وأشجارها وورودها، بل أضفى عليها كلَّ ما في الحياة من جمال عالَمِ الإنسان وأوصافه ومشاعره وأحاسيسه، فجاءت أشعاره بهذا الجمال.

لقد ذكر في قصيدة عنوانها «**اسمها**» عدداً من الألفاظ التي استوحاها من الوطن، ولكن من دون أن يسمِّيَه فذكر «بكاء النوافير» و«**السنونو**» و«**لهاث الكروم**» «**وعلى كل منحنى ومضيق**» و..

كقطيعٍ من المواويلِ حطّتْ في ذُرا موطني الأنيقِ الأنيق (٣٨/١-٣٩)

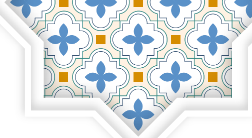
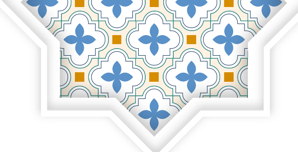
فهو رسم لوحة جميلة للطبيعة التي يسكن فيها بيته، أو أي بيت تحلو له الإقامة فيه، ويمنحها ألفاظاً مستعارة من الإنسان، ليُحيي فيها روحاً جميلة، فجعل النواعير تبكي، ما دام فيها مياه، فهي كالدموع، وجعل الكروم تلهث، تصعد نحو الأعلى، نحو المنحنى، والهضاب والتلال، وجعل المواويل قطيعاً يتسلَّق، فيحطُّ رحاله في ذرا الموطن الجميل الأنيق..

وقريب من هذا ما نقرؤه في قصيدته «مساء» التي جعل فيها للذرا أناملَ واهبة تمنح الجمال، وجعل المواويل تتسلَّق حتى تصل سقف البلاد، وترسو عند أعتاب الأنجم، فهذه لا شك صورة أبدع فيها نزار، إذ إننا لم نعهدها عند غيره حتى الرومانسيين من الشعراء، يقول:

قفي وانظري ما أحبّ ذُرانا وأسخى أناملها الواهبَهْ

مواويل تلمس سقفَ بلادي وترسو على الأنجم الغاربهْ

وقد أكثر نزار من ذكر الألفاظ التي تدل على موطنه في قصيدة «**إلى مصطافة**» حتى لكأنك تنسى أنك تقرأ غزلاً، فتشعر أنك أمام لوحة رسمها فنان امتلك الريشة والألوان، فشكلها كما يحلو له، فقد ذكر «دالية راقدة» و«تيناً» سيسرقه و«توت السياج» ويريد أن يغزل من غيم بلاده شريطاً


يلف به جدائل الحبيبة الراعدة:

لأغزلَ غيم بلادي شريطاً   يلفّ جدائلك الراعدة (٥٦/١)

كما يذكر «القرية الساجده» والخراف البيض والعنز الصاعد في المرح والصفصافة الماردة والفلاحة العائدة..وهذه كلها صفات إنسانية يتخيل بعضها القارئ، فيقف حائراً عند تحليلها، كيف تسجد القرية المؤمنة، وكيف تسرح تلك الخراف، وتلهث الماعز نحو الأعلى نحو الجبال، وكيف تتمرَّد الصفصافة فتعلو كالمارد، ثم يضيف إليها صفة الفلاحة التي عادت من الحقول حقول الخير والفرح..

والغريب أن يثبت نزار قصيدة «بلادي» في ديوانه «**طفولة نهد**»، وفي هذه القصيدة عدد من الألفاظ والكلمات التي ترسم بلاده، وحاكى الحواس الخمس، فالصوت تمثّل في البيتين الأول والثاني والخامس:

«من لثغة الشحرور

«من بُحّة ناي

«من رجفة الموال من..

«تنهُدات مئذنة..»

وفي الخامس يقول:

«من وشوشات نجمة

«في شرقنا مستوطنة»

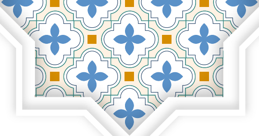
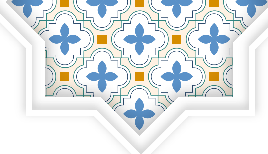
أما الطبيعة التي تُحرِّك في الإنسان الشّم والتذوُّق واللَّمس والنظر فقد تكلم فيها على الوردة والسوسنة، عن شذا الفلاحة وعن غزل الصفصاف، وأما حدود بلاده فـ«**بالياسمين والندى محصّنَه**» وينتقل في آخر بيتين للحديث بلهجة أخرى أبلغ وأعلى أو أكثر قوة، فيقول:

وإن غَضِبنا نَزرعِ   الشّمسَ سيوفاً مؤمنه

بلادنا كانت وكانتْ   بعد هذا الأزمنه

والواضح في هذه القصيدة، مثل كثير غيرها، استعارة ألفاظ استعملها في تشبيه أشياء بالإنسان كرجفة الموال، وجرح القرميد، ووشوشات النجمة، والفأس الموهنة وغزل الصفصاف وإدمان الدوالي.

ومثلها ما ورد في قصيدة «**العين الخضراء**» التي ضمّنها ألفاظاً ليست ببعيدة عن الألفاظ السابقة، من اندفاق الصيف، إلى الموسم الخيّر، إلى شرودهما «**بين الكروم والبيدر**» إلى «**والشمس والحصاد والمنحنى**» ليصل إلى قوله (١٣٤/١):



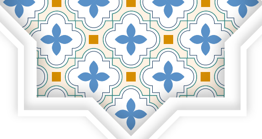
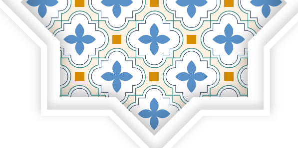
أيّ صباحٍ لبلادي غفا وراء هُدبٍ مطمئنٍ طري

وتكررت ألفاظ الساقية والخابية والدالية والغابة والغمامة الباكية والسفح والضياء والمنحنى في قصيدته «**هي**» (١/٢٣٨-٢٣٩)

وقريب من هذا ما ورد في قصيدة «**حبيبي**» التي تغنيها السيدة فيروز «**لا تسألوني ما اسمه حبيبي**» فأورد فيها «الليلك» و«الغروب» و«**ضحكة السواقي**» و«**رفة الفراشة**» و«**والبحر والمراعي والعندليب**» (١/٢٥٠_٢٥١)

كما تكررت معظم الألفاظ في قصيدته «لماذا» مثل الكروم والنجوم والموسم والحقل والزارع والسنونو والبنفسج والضيعة والميجنا .(١/٢٧٢)

أما قصيدة «**عندنا**» فهي من أوائل القصائد التي تتحدث عن «**الوطن**» من أولها إلى آخرها، واختار لها عنوان «**عندنا**» فأضاف الضمير «نا» إلى «عند» ليعبِّر عما يملكه هو وغيره، وقبلهما

الوطن، وكأنه إعلان لمن يريد أن يزور الوطن، ففي الوطن «**يولد الموّال حرّاً**» لا أحد يستطيع أن يُقيّده، ومَن ذا الذي يستطيع تقييد الموال الذي يسرح بين الضّيَع؟ ومن منا يقدر أن يمنع الزارع من إطلاق العنان للموال ليحتل المراعي؟ هذا الموّال يصدر من كلِّ مكان:

من وِجاقِ النار من جذعٍ عتيقٍ متداعي

«**من الخوابي الطافحة**» ومن الكروم المشاعة لكل من يريد أن يقطف العنب ويصنع الخمر..فالمواويل في وطن نزار «**وُجِدَت قبل السماء**» أما الخيطان التي صنعت الأشرعة فهي من أنوال الوطن..ويختم نزار القصيدةَ التي تقع في عشرة أبيات ببيتين يُصرِّح في الأول بكلمة «**بلادي**» وفي الثاني بكلمة «**وطني**» يقول: (٢٨٦/١)

وبلادي شُرفةُ الصّحو وميناءُ الشّعاعِ

موطني من زُرقة الحلم ومن عزم القلاعِ

فما أبلغ الضدّ الذي استعمله في البيت الثاني، فالزرقة هدوء وسكينة كذلك الحلم، أما القلاع فلا يجوز فيها إلا العزم والقوة..

ومن الأماكن الطبيعية التي يكثر استعمالها في شعر نزار «**التلة**» و«**المنحنى**» وقد وصف هذه التلة مرة كيف تنهض و..«**ترنو إلى عش عصافيرٍ..مع الصيف طار**» (٢٧٨/١)

تختبئُ النحلاتُ في ظلّها تَظنُّ فيها كرمةً أو جدارْ

ورد هذا في قصيدة «**العقدة الخضراء**» التي في قريته تحكي حكاية الصحو الذي فيها، والرطب الذي حلّ في سهلها: «**فارتاحَ نبعٌ واستلذّ انحدار**» (٢٧٩/١)

فأنت أمام طبيعة تبدو لك تضاريسها، فيها من الحنان من المنحنى، وفيها من الراحة والسكينة عندما تكون أمام النبع، ويحلو لك أن تنزل في المنحدر أو المنحنى..وكأنك تعود من حيث تسلّقت إلى حيث صعدت.

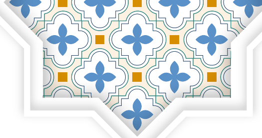
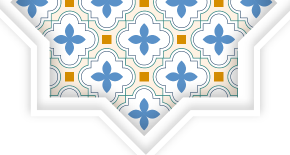
ومن الألفاظ الكثيرة التي رافقت شعر نزار «**النجمة**» وفي صورة بديعة ذكرها عندما كان يبحث عن هدية يقدمها في «**عيد ميلادها**» ويسأل الآخرين أن يدلّوه ماذا سيقتني؟

أحُزمةٌ من سَوسنٍ؟

أنجمةٌ مقيمةٌ في موطني؟

أهدي إليها..

اللّه ما أقلّها» (٢٨٣/١)

وفي قراءة ثانية لهذا المقطع على صغره نكتشف أمرين اثنين يتصل الواحد بالآخر، أن نزاراً وصف النجمة بالمقيمة في الوطن، فكيف له أن يقطفها ليقدمها في عيد ميلاد الحبيب؟! هي إذن رمز لهذا الوطن، ومع هذا إن استطاع أن يقطفها ويقدمها لها فإنه سيجدها قليلة على الحبيبة.

ويتصل بهذا ما ورد في قصيدته «**عودة أيلول**» التي ذكر فيها اسم «**سورية**» صريحاً، وربما كانت أولى القصائد، لكنه لم يخصص غرضها، فلم يكن وطنيّاً ولا قوميّاً، بل مزج فيها بين الطبيعة في أيلول وبين قصة غرامية أو حكاية عشق يرجو لها لقاء. لذلك بدأ نزار قصيدته بالطلب أن يُحَضّر «**وجاق النار**» للحبيب الذي سيلقاه في ليلة من ليالي «أيلول» ويتحسّر على أيام مضت وخلَت، وكأنه يريد أن يعوِّضَ تلك الأيام والليالي، يقول:

كنّا مع النّسماتْ

نُرطّب التّلّه

ونحشرُ النّجمات

في خاطر السّلّه

فما أجمل هذه الصورة وأبدعها إذ مزج بينه ومن معه والنسمات، واتفقوا جميعاً على ترطيب التلة، وجمع النجمات وسرقتها كمن يقطف عناقيد العنب ويضعها في السلة..

ولكن ذاك اليوم مضى ومضت معه سنون فـ :

لا آهٍ ولا موّال

يزركش القرية

يكحّل الآجال

بحمد سوريه

إنها الحسرة على أيام مضت كان الموال، وكانت الآه، وكان النغم، وكانت الأغنية تزركش قرانا وضيعَنا وتكحل عيوننا..

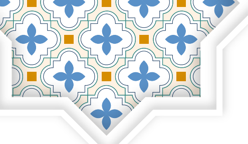
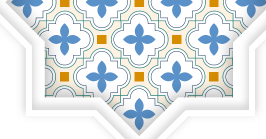
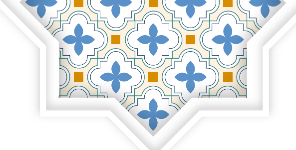
ثم يمزج بين الوطن والحبيب فيقول:

إذا مضى الصيف

وأقفر البيدر

فموطني يغفو

في بؤبؤ أخضر

فالصيف عندنا ممتع، ومن لم يعشه قصر عمره، والبيدر عندنا غني وافر القمح، فإذا ما أقفر أُعلن عن غياب الصيف، فيبحث الإنسان عن مكان آخر في وطنه، ونزار يراه «**يغفو في بؤبؤ أخضر**»

لم يكن بيت نزار قباني الذي ورد في قصائده واحداً، بل كان عدداً من البيوت، صحيحٌ أنه وصفها، ولكن وصف الحالة العامة للبيت الريفي الجميل الذي أبدع في رسمه، أليس هو من أبدع «**الرسم بالكلمات**»؟

طبعاً هذا غير وصف بيته الدمشقي الذي سنقف عنده بتأنٍّ، نزوره ويكون نزار هو الدليل إلى كل زاوية فيه وكل غرض وكل وردة..

لقد أبدع نزار في وصف البيت الريفي والدمشقي خاصة، فجعلنا نحرك حواسّنا الخمس، ونتمنى لو كنا نعيش في واحد من هذه البيوت، وهذا البيت من دون شك هو صورة مصغرة للوطن الذي يحيا فيه ويعيش..ولا شك في أن نزاراً يملك معجماً لغويّاً غنيّاً جعله ينثر ألفاظاً لكل ما يستحق لفظاً مناسباً..ولم يكن يقع في التكرار المُملّ ولا التكلّف، بل إن نزاراً كان يُعطي لكل شيء ما يناسبه بدقة، ويعطيه أحياناً غير لفظ وغير صفة..هذا غير ما يسبغه عليه من صفات إنسانية ليحيا معه.

وأحياناً كثيرة تحار أي لفظ تنتقي وأي كلمة تختار؟ وأي تعبير يشدُّك وأي جملة شدتك أكثر؟ وتأسف إن أنت تركتَ بعضها من دون أن تلتقطها وتقدمها، فقد بدأ نزار وصف البيت الذي اختفى سقفه لأن حرج البيت دُرِز شوحاً، و..

حرسته خمسُ صنوبراتٍ فانزوى وتصوّفا (٢٨٧/١)

لا أبلغ من صفة الصوفية لبيت انزوى جانباً، وغاب عن عيون الناس؟! هذا البيت:

نسجَ الثّلوجَ عباءة لبس الزوابعَ معطفا (٢٨٧/١)

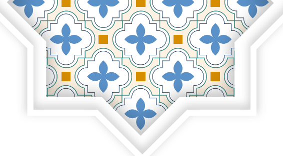
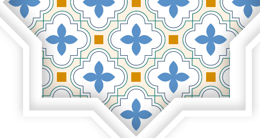
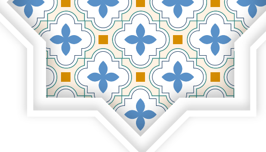
وكيف تكون الزوبعة معطفاً يتدثّر بها البردان؟ فإذا ما برد «**اكتسى وتلفّف**» بدخنة من غزل مغزله، فلنتخيل الدخان وقد غطى البيت! ثم ينتقل قبل أن يفكر أحد أننا لن نعرف البيت فيخبرنا بأن:

الطِّيب بعض حدوده أتريدُ ألا يُعرفا

فنفح الطيب ونشره يجعل كل واحد يلحق به حتى يصل فيعرف هذا البيت، فإذا لم يعرفه فإنه يحدد له حدوده هي: «**غيمة...عبرت وجُنحُ رفرفا**» وبلغة شاعرية تصويرية يقول: «**حملته ألف فراشة**» وأنى للفراشة أن تحمل شيئاً؟!

وينتقل في بيت آخر ليصف «قرميده» الذي «**حضن المواويل الجريحة واكتفى**» والأبلغ والأجمل أن حجارته أضواء تجمَّدت فصارت»أحرفاً» ويقول: إن الصباحات الكثيرة قد مرّت على بابه فتوقفت هناك، وكأن التاريخ وقف عنده..ثم يحدد الموقع بدقة أكثر وهذا ما تميز به فهنيئاً له:

يا مجدَه ملك المفارقَ والمطلّ المشرفا



هو على مفرق عالٍ، يطل على كل الأماكن، ومن أراد أن يصل إليه فله بابٌ وسقف ومدخنة..

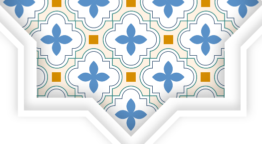
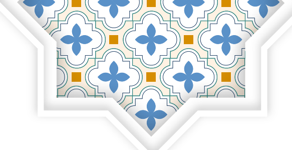
يرقى إليه الدربُ   سكران الخُطا متعطِّفا

صورة أخرى جميلة جداً، كأنه يشير إلى أن البيت عال جداً، فالطريق إليه طويلة وبعيدة، ومتعرجة فيها منعطفات كثيرة، وإذا أرادت أن تصل إليه فإنها ستصل سكرى؛ لأنها ستضطر إلى السير في منعطفات تجعل الإنسان يدوخ فيصبح كالسكران..

ويشير في البيت قبل الأخير إلى أنه يسكن في هذا البيت، فكم نجمة زارته في البيت تحسب أن عنده متحفاً جميلاً، لكنها تعود من حيث أتت بعد أن..

تركتْ بسور حديقتي   شالَ الحرير منَتّفا

لا يترك نزار فرصة مناسبة للغزل إلا يوظفها في قصائده، ولاسيما تلك التي تربط البيت بالمرأة أو الحبيبة أو الأشياء التي تُذكِّره أو تربطه بها، فكم الصورة معبرة عندما جعلنا نتخيل الحبيبة تركت شالها وقد تمزق نتفاً، أهي كانت تحاول الهرب من فوق السور؟ أم أنها هربت تخفِّياً فعلق الشال بالسور؟

وفي صورة من الصور الجميلة المعبرة التي اعتمد فيها نزار الرمز أو الاستعارة عندما حدد لـ« **ساعي البريد** » مكان بيته، فقال:

هذا غلافي لا أشكّ

يرفّ مجروح العتاب

عنوانه:

عنوان منزلنا..المُغمّس بالسحاب..

عنواننا عند النجوم الحافيات على الهضاب..

فما من مرة إلا أضفى على المكان صوراً ساحرة من الطبيعة، فلا أبدع من المنزل « **المغمّس بالسحاب** » ولا أجمل من « **النجوم** » التي تسبح حافيات « **على الهضاب** »..!

_ البيتُ الدمشقيّ عَبَقٌ لا ينتهي..

أبدع نزار في وصف البيت الدمشقي لوحة تفصيلية، زار فيها كل الأشياء، مثّلها في صندوق أبيه كما مثّلها في قصيدة أمه « **أمّ المعتز** »، وربما تكفي قصيدة واحدة للتدليل على ما ذكره، والوقوف على أبرز ما في البيت الدمشقي في بحيرته الخفاقة وشجرة النارنج وتعريش الياسمين وألوان الورد ولاسيما الجوري ولا ينسى الشبابيك والأبواب العتيقة ولا الفرش والسجاد ولا القطة الدمشقية.

صحيح أن وصف نزار البيتَ الدمشقيّ كان في قصائد قليلة، لكنها تكفي، والطريف أو اللافت للنظر أن نزاراً لما وصف البيت الدمشقي خصّه بقصيدتين، واحدة في أبيه والثانية في أمّه، هذا غير ما تناثر من ألفاظ وكلمات في قصائد أخرى..أكان يقصد هذا؟ نعم كان يقصد فالبيت أمهَ وأبوه..

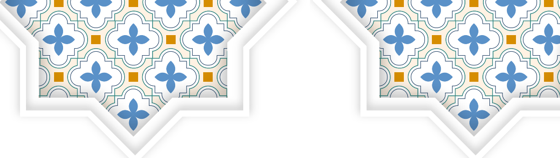
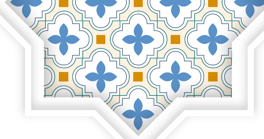
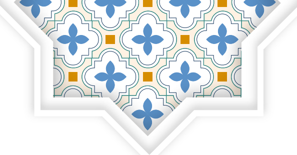
وقد قرأنا في قصيدة « **الوصية** » بعضاً من هذا، وثمة قصيدة أخرى عنوانها «أبي» يمكننا أن نستشف فيها بعض الألفاظ التي ننتزعها من السياق العام، أو تكون في موقف لا يمكن أن يكون إلا لدمشق أو في دمشق، فقد كتب فيها عن أبيه الذي مات، وبرأيه:

أبي لم يزل بيننا والحديث

حديث الكؤوس على المشرب

فالمشرب على ما أظن « **المشربية** » التي كانت في البيوت الدمشقية القديمة، وحديث الكؤوس هذه تسامره، و« **الدوالي الحبالى تتوالد** » وفي الدار « **فلة** »..

وقد يكون صعباً علينا الفصل بين البيت الدمشقي ودمشق، فالبيت جزء من دمشق، والبيت الدمشقي يُمثّل دمشقَ كلّها، لذلك نجده يمزج بين الأمرين ويجمع بينهما، ومن أبرز القصائد التي

تتصل بهذا الجانب قصيدته «**خمس رسائل إلى أمي**».

فقد ذكر في الرسالة الأولى «صباح بلاده الأخضر» وأنجمها وأنهرها ..و

«طرابيناً من النعناع والزعتر وليلكة دمشقية» (٥٢٩/١)

وفي الثانية يذكر «**عرائس السكر**» فهل قصد «السندويشة» التي كان الصغار يأكلونها مع الماء يبلل الرغيف التنوري؟ نعم فكلمة «عروسة» لا يعرفها إلا من خاطبته أمه بها، وهو في صغره..هو نوع من الحنان إلى أمه، وهو الذي قدم لهذه الرسالة «**أنا وحدي**» ثم ينقلنا في (الرسالة الثالثة) إلى بيته الدمشقي فيطلب من أمه أن تحافظ على الفلة البيضاء التي كان والده يعتني بها، ويدعوها إلى «**فنجان قهوته**».

وفي (**الرسالة الرابعة**) تتضح صورة البيت إذ يصرّح بألفاظ، ويحدد بكلمات تجعلك تعيش معه، في «**بيت سقانا الحب والرحمة**»، ويرسل سلاماته إلى تخته إلى كتبه إلى أطفال حارته إلى الحيطان التي ملؤوها بفوضى الكتابات، إلى تلك القطط «**تنام على مشارقنا**».

ولا يجوز أن يخرج نزار من قصيدته من دون أن تُزيِّنَ الطبيعةَ ألفاظُه وكلماته لتشكل صوراً ولوحاتٍ يتقن رسمَها، فهذه

«ليلكةٌ معرِّشةٌ على شباك جارتنا»

أما دمشق فلها وجهٌ، هذا الوجه هو:

«عصفورٌ يخربش في جوانحنا»

ودمشق بعد عامين من السفر ما زالت في خاطره..

«**ليلُ دمشق..فلُّ دمشق دُورُ دمشق..» مآذنها**»، والأبلغ قوله:

«كأن مآذن الأمويّ قد زُرعت بداخلنا»

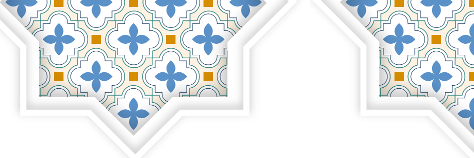
وفي المقطع الخامس وهو المقطع الذي يُردِّدُه مُحبُّو نزار كثيراً:

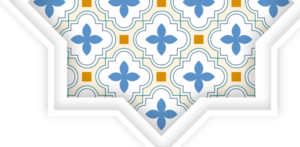
«دمشقُ يا دمشقُ

يا شعراً

على حدقاتِ أعيننا كتبناه..»

يكتبه بعد أن يسأل عن أبيه في **أيلول الحزين** الذي ترك على نوافذه المدامع والشكوى، فيسأل عن رحاب بيته الكبير ومدارج الشمشير والقطة الدمشقية وعنب العريشة والبنفسج..وينهي القصيدة بقوله عن دمشق:





«ويا طفلاً جميلاً

من ضفائره صلبناه

جثونا عند ركبتيه

وذُبنا في محبّته

إلى أن في محبتنا قتلناه» (٥٣٤/١)

وقد ذكر دمشق في قصيدة «**أم المعتز**» عندما أخبروه أن أمه ماتت، فقد جاءه

«هاتف من دمشق يقول..

«أمك ماتت»

ثم يعدّ دمشق مع العواصم العربية..

«بيروت القاهرة بغداد الخرطوم..» هي أمه، فكل هذه المدائن أنزلته من رحمها، فأمه:

«يعرفونها في دمشق بأم المعتز..»

وهي جزء من الفولكلور الدمشقي:

«وأهميتها التاريخية لا تقل عن أهمية قصر العظم..»

«وقبر صلاح الدين» و«مئذنة العروس» و«مزار محيي الدين بن عربي»

وهذه كلها معالم من دمشق التي إذا ما وصلها أحد فلن يكون بحاجة للسؤال عن بيتها:

«لأن كل الياسمين الدمشقي يهرهر فوق شرفتها

«وكل الفل البلدي يتربَّى في الدلال بين يديها

«وكل القطط ذات الأصل التركي

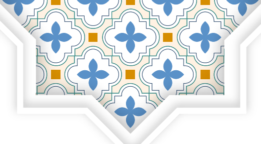
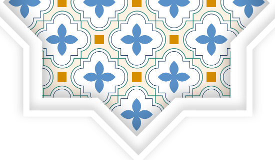
«تأكل وتشرب وتدعو ضيوفها وتعقد

«اجتماعاتها

«في بيت أمي»

فالياسمين والفل علامات من البيت الدمشقي التي يجب أن تحضر في كل قصيدة تتكلم على البيت الدمشقي.

وفي القصيدة نفسها يذكر «الشام» عندما يقول إن بيت أمه كان معقلاً للحركة القومية في العام

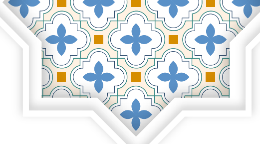
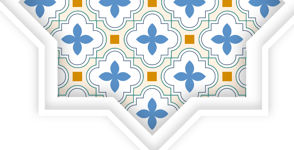


١٩٣٥، وأرى أن ثمة إشارة مهمة في ذكر «**الشام**» عندما ربطها بالحركة القومية، أما دمشق ففي ذكرها تفاصيل بيته، وثمة فرق بين الكلمتين! فهو يذكر في المسيرات «**أصص الزرع التي تحطمت**» و«**الشتول النادرة التي انقصفت**» و«**أعواد الزنبق التي انكسرت**» **ويذكر بعض الأغراض التي كانت في البيت الدمشقي، مثل** «**مطحنة البن النحاسية**» و«**نار الفحم**» و«**حب الهال**» وكثرة الورود والأزهار وصحن الدار..

كما أورد عدداً من الألفاظ في دمشق في قصيدته «**هل تسمحين لي أن أصطاف**»؟ جاء فيها:

«**هل تسمحين لذاكرتي أن تكسر حصار رائحتك**»

وما من شك في أنها صورة نزارية اللغة والهوى، أن يكون للرائحة حدود يريد أن يكسر حصارها


ويحطمها، لأن ثمة أجمل؛ رائحة النباتات..

«وتشم رائحة الحبق والوزّال والزعتر البري»

ويُضيف:

«هل تسمحين لي..

«أن أجلس على الشرفة الصيفية دقيقة واحدة..

«دون أن يتسلّق صوتك كعريشة زرقاء..

«على درابزين بيتنا..

«ودون أن أجدك في قهوتي الصباحية»

وهذه أيضاً صورة نزارية تشبه تلك السابقة، أن يكون الصوت عريشة تتسلق، ولا ينسى أن يصفها أو يلوِّنها باللون الأزرق، فهذا اللون أثير ومفضّل عند نزار..

مرّ ذكر دمشق عَرَضاً في بعض قصائد نزار، في مواقف ربما اضطر فيها نزار إلى ذكرها، أو في موقف لا يمكن إلا أن يكون لدمشق، من هذا ما ورد في قصيدة «**تريدين**» التي يخاطب فيها إحدى عشيقاته فيسألها: هل تريدين «**كنوز سليمان**» «**يا شهرزاد النساء**» و«**نجوم السماء**» و«**جلود الفراء من أصفهان**»، ويقول لها: إنه لا يستطيع أن يحضر لها «بابل» ولا «أهرام مصر وإيوان كسرى» ليصل إلى مقطع يقول فيه: (٥١٦/١)

«وبعدُ..

«أيا شهرزاد النساء

«أنا عامل من دمشق فقير..

«رغيفي أُغمِّسه بالدم

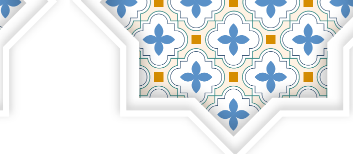
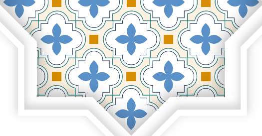
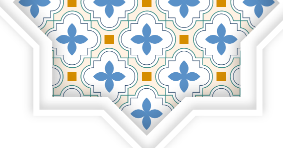
«شعوري بسيط وأجري بسيط

«وأؤمن بالخبز والأولياء

«وأحلم بالحب كالآخرين..»

ثم يتابع فيتحدث عن صفات هذا الإنسان الدمشقي الذي يرى المحبة شمساً تضيء «**على الحالمين وراء القصور**» ومثل الهواء، وينهي قصيدته بمقطع قصير:

«تريدين مثل جميع النساء

«تريدين ثامنة المعجزات

«وليس لدي

«سوى كبريائي»

ومن «**أوراق إسبانية**» نقرأ في الورقة السادسة التي عنوانها «اللؤلؤة السوداء» (١/٥٥٩)

«شوارع غرناطة في الظهيره

«حقول من اللؤلؤ الأسود

«فمنْ مقعدي..

«أرى وطني في العيون الكبيره

«أرى مئذنات دمشق مصوّره

«فوق كل ضفيرة»

فاللؤلؤ الأسود غريب اللفظ، واستعمال الجمع السالم للمئذنة غريب أيضاً، والصورة الأبلغ أنه يرى هذه المآذن كما يرى الوطن في العيون الكبيرة.

ويتابع في «**الورقة السابعة**» حديثه عن دمشق، فهو يرى وجه **(دونيا ماريا)** وشموس بلاده، ويذكر منزله في دمشق، وصوت المياه في البركة الصافية التي يُسمِّيها لثغة، ويرى ظلال الأشجار في الغرف ترقص، ويرى أشجار الليمون وأبواب البيت العتيقة التي نُقش عليها، ويرى وطنه مرة ثانية في عيني **(دونيا ماريا)** التي حملت عنوان الورقة السابعة من «**أوراق إسبانية**».

_ بعضٌ من الحزن..!

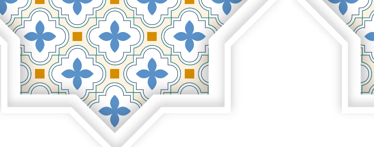
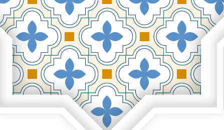
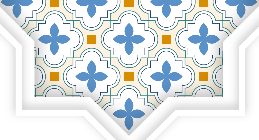
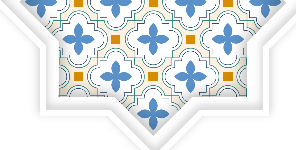
لم يكن ذكر دمشق في قصائد الغرام فحسب، بل كان أيضاً في بعض القصائد التي تعبر عن الحزن والألم، لما آلت إليه أحوال العرب..وخير ما يمثل هذه القصائد قصيدة «**أحزان في الأندلس**» التي يستذكرَ فيها «**طارق بن زياد**» و«**عقبة بن نافع**» ردّاً على سؤال إحداهن تسأل عن «**أميّة**» و«معاوية» والسرايا الزاهية» عسى أن تحمل من دمشق حضارة وعافية، ويذكر بعض ما في البيوت الدمشقية من عبير الورد والنارنج والأضاليا.

ويتابع في القصيدة التالية للسابقة «**غرناطة**» فيتحدث عن أمية:

«راياتها مرفوعة

«وجيادها موصولة بجياد »

ويرى في **الحفيدة السمراء** أنها أعادت بوجهها الدمشقي أجنان بلقيس وجِيد سعاد ومنزله القديم..



ووسادة أمه والياسمينة المرصعة بالنجوم والبركة التي لا تفتأ عن الإنشاد..

وأضاف أنه يرى دمشق في شعرها «**المنساب نهر سواد**» وفي وجهها وفي ثغرها الذي «**ما زال مختزناً شموس بلادي**» «**في الفل في الريحان في الكبّاد**» فدمشق وبيته ضيفان في كل قصيدة يمكن أن تُذكِّره بهما بعضُ الأحداث، فلا يفترقان الواحد عن الآخر..

ومن ديوان «**يوميات امرأة لا مبالية**» نقرأ المقطع (٢٨) الثامن والعشرين الذي خصّ به دمشق بعنوان «**مدينتنا**»، ويربط بين المدينة وتلك المرأة اللامبالية، فيقول في نهاية القصيدة: (٦٢٨/٢)

«**مدينتنا بلا امرأة**

«**تذيب صقيع عزلتها**

«**وتمنحها معانيها**»

هذه المدينة أثيرة عند نزار يحب:

«**نداء باعتها**

«**أزقتها أغانيها**

«**مآذنها كنائسها**

«**سكاراها مُصلّيها**

«**تسامُحها تعصُّبها**

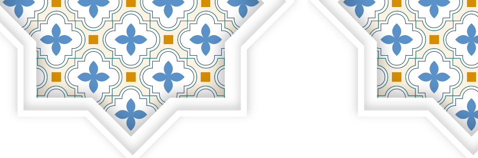
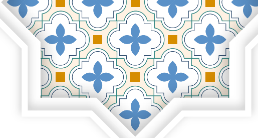
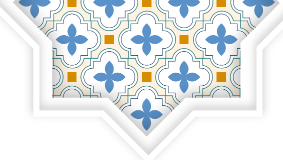
«**عبادتها لماضيها**»

ثم يسخر منها في أبيات لأن أناسها صاروا أمواتاً «**تعلكهم مقاهيها**»، لأن ناسها صاروا «**مع الأيام جزءاً من كراسيها**»، ويجاوز بعضُ الألفاظ ما اعتدنا عليه في كلمات نزار حزناً وألماً لما حلّ بها بسبب أهليها الذين صاروا كسالى وعابرين في هذه الحياة من دون أن يتركوا أثراً جميلاً أو صالحاً.

ولا عجبَ إن ضمّن نزار قصيدة وطنية ألفاظاً تتصل بدمشق، بل العجب إن لم يُضَمِّنها، ولاسيما إن كانت تتحدث عن دمشق، فهو لاينسى تلك التفاصيل الصغيرة كالأغراض التي كانت في كل بيت يوظفها التوظيف الجميل الذي لا يمكن أن يحل محلها أي لفظ آخر..ففي قصيدة «**ترصيع بالذهب على سيف دمشقي**» يبدأ الكلام على دمشق بسؤال مرايا دمشق إن كانت تعرف وجهه؟ أم أن السنين غيّرته! يتذكّر الصالحية وشراشف أمه والعصافير والشذا والغصون وزواريب حارته..

ومن المقاطع التي حازت شهرة كبيرة عند القارئ أكثر من غيره ما يبدأ بقوله:

ها هي الشام بعد فرقة دهر أنهرٌ سبعةٌ وحُورٌ عينُ

ثم يستطرد إلى الكلام على النوافير التي كانت في البيوت فصوتها كلام «**والعناقيد سكر مطحون**» أما السماء فهي دفتر للشعر تصلح؛ لأن لونها أزرق وهو رمز للنقاء والصفاء.

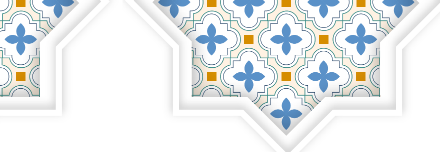
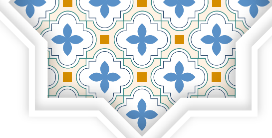
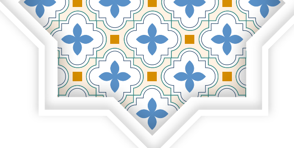
لقد كان الياسمين مرتبطاً بدمشق في قصائد نزار وغيره، لكنْ ثمة بيتٌ يدل دلالة عجيبة على هذا الارتباط، يقول بصيغة السؤال: (٢/٩٥٤)

هل دمشقُ كما يقولون كانت حين في الليل فكَّر الياسمينُ

ثم يتابع أسئلته بعد حسرته عندما لم يستطع أن يكاشفها العشق والحب، فهل هو سروٌ؟ أم شربين؟ وهو الذي تقمّص فيها؟ أم هو الفل في أباريق أمه؟ أم العشب أم القطة؟..هو كل شيء بل أكثر، هي: «**التي تفشّى شذاها**» تحت جلده «**كأنه الزيزفون**».

يخاف نزار من الوحدة، هو كالطفل الذي يبحث عن ملجأ يحتضنه فلا يجد إلا قاسيون رمزاً لدمشق التي تجعله يحار هل هو المجنون أم هي التي جُنّت بشوقها؟

وينتقل إلى النص الوطني الذي أراد الوصول إليه، عندما يذكر تشرين رمزاً لحرب تشرين، فهو قد

ضرب موعداً على «**جبل الشيخ**» وما أدراك ما جبل الشيخ! رمز البطولة والانتصار..هو الحبيبة التي لم يعانقها منذ سبع سنين من الحزن اغتيل فيها كل شيء..الصفصاف والزيتون واليانسون وعلم الكلام..

لكنه عاد إليها بعد سنوات سبع عجاف، كما عادت هي إلى الحرية، وكان وجهها أجمل من تشرين، فقد ارتفعت سنابل القمح، وصارت أرض الجولان ماء يجري ولوزاً وتيناً..ويدعوها لتلبس دموعه سواراً وتضع طرحة العروس ليطلب منها أن تمزق خارطةَ الذل والخضوع والخنوع والاستسلام التي عاَشتها في سبع سنوات عجاف.

_ شيءٌ من..الصّوفيّة..

لم تكن قصائد نزار تصبُّ في المنحى الحسي فحسب، بل كانت بعض قصائده تعلو فتسمو إلى عالم من التجلِّي الذي يحلو لنزار أن يسميه «**الصوفي**»، وهذا الصوفي هو بالتأكيد صورة عن عالم حسي، لكنه أنقى وأطهر لا تمسُّه الأيدي ولا يُدنِّسُه الأثر السيِّئُ.

تتجلى دمشق في إحدى قصائده الصوفية بوضوح، ويحشر نزار فيها عدداً من الألفاظ التي إن نسينا أنها صوفية عشنا معها كما عشنا مع غيرها في قصائد كثيرة، يبدأ قصيدة «**تجليات صوفية**» بقوله:

«**عندما تسطع عيناك كقنديل نحاسي**

«**على باب وليٍّ من دمشق**

«**أفرش السجادة**»

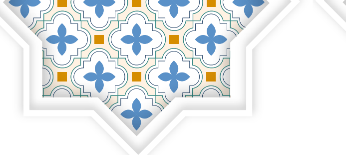
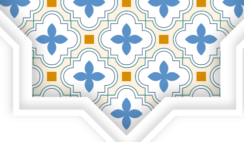
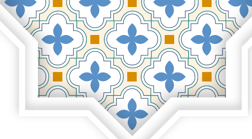
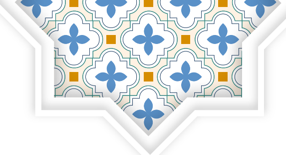
ففي دمشق عدد من الأولياء، وإلا ما كان نكّر كلمة «**وليّ**» فهي مدينة الرسل والقديسين والأولياء، ويذكر «**الفوانيس التي من خلفها فوانيس**»، كما يذكر الزوايا والتكايا والمريدين، وكلها من ألفاظ الصوفية، ومثلها الأطفال الذين «**يغنون**» ومثلها الشمع والموالد.. وهذه أيضاً ألفاظ قرأناها في شعر نزار، وهو ينقلنا معه مباشرة إلى دمشق؛ إذ يرى نفسه «**ببستان دمشقي**» ويذكر النوافير والشبابيك والمآذن، وهذه كلها ألفاظ مكرَّرة في غير قصيدة.

ويُمرِّر «**لها سبعة أبواب**»، وهي لا شك إشارة إلى أبواب دمشق السبعة التي تمنحه «**مفاتيح الحياة السرمدية**» ويصرح فيقول متابعاً:

«**وإذا بالشام تأتيني نهوراً..ومياهاً**

«**وعيوناً عسلية**

«**وإذا بي بين أمي ورفاقي**



«وفروضي المدرسية»

ويطلب من الله الواحد الأحد أن يعطيه القوة والقدرة كي يصبح..

«في علم الهوى

«واحداً من أولياء الصالحية» (٢/١٨١)

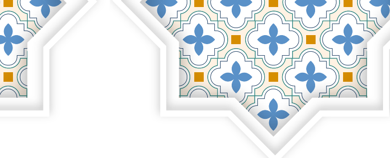
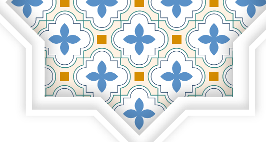
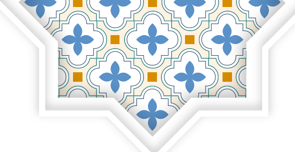
وتتالى الألفاظ الصوفية من الإيقاع والنعناع والماء و«**الدرويش وقرع الطبول والبساتين وماء الياسمين**» حتى يقول:

«صرت قنديلاً على باب وليٍّ من دمشق» (٢/١٨٤).

ومن الأوصاف الغريبة التي وصف بها دمشق قوله: (٢/٢٠٣) «**وعيناك عصفورتان دمشقيتان**» إذ لم نعهد مثل هذا الوصف عند غيره، وربما كان دائماً يحب أن يصف كل جميل بدمشق.

وفي صورة خاطفة يشير إلى الحَمام الدمشقي والفلّة والوردة الجورية إذ يخاطب امرأة فيقول: (٢/٢٧١)

«ممنوع أن تحمل من بيتنا في الشام

«سرباً من الحمام

«أو فلة أو وردة جورية..»

وفي القصيدة نفسها يقول:

«قد يشعر الحصان بالإرهاق يا حبيبتي

«حين يدق الحافر الأول في دمشق

«والحافر الآخر في المجموعة الشمسية»

وهي صورة غريبة يتحدث فيها عن نفسه في «**يوميات مريض ممنوع من الكتابة**» ويدعو حبيبته إذا ما قرأت خبراً مثيراً في الجريدة الرسمية وهو يقصد إعلان موته.

ـ كلمات وكلمات..

مرة أضيفت إلى..الشام، ومرة وصفتها

ومن هذا عبارة «خلفاء الشام» التي وردت في قصيدة «**جسمك خارطتي**» عبر فيها عن ألمه ووجعه الذي شبهه بالقافلة التي أرسلها .«**خلفاء الشام إلى الصين في القرن السابع للميلاد**» (٣٨/٢)

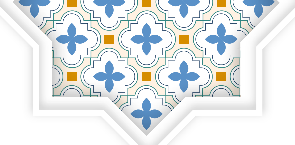
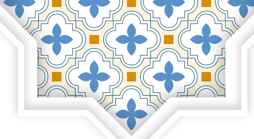
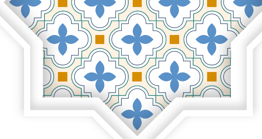
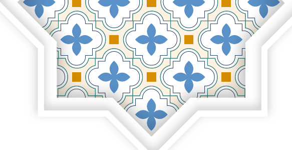
ومما أضافه إلى الشام «**التوت**» فهو يتحدى كل العشاق أن يكون واحد منهم قد أطعم نهدي تلك السيدة «**بلح البصرة/أو توت الشام**» (٤٨/٢)

كما أضاف النحاس إلى الشام في صورة جميلة يذكر فيها البدوي وحب الهال والقهوة فوق الجمر، وهذه كلها صفات أو أوصاف للنهد الإفريقي الذي يقول فيه: «**وقديم مثل نحاس الشام**» (١٦٩/٢)

ومنها القطة التي نسبها إلى الشام أو وصفها كناية عن المرأة التي تطيع الرجل، وهذا المصطلح ما زال مستعملاً عند أهل الشام، فالمرأة في قصيدته «**قطتي الشامية» تتمنى أن تكون بين كفي الرجل الوحشية**» (٦٦٧/١)

وفي القصيدة التي يرثي فيها ابنَه توفيق يُسمِّيه «**الأمير الدمشقي**» ولا شك أنها ستنال حظّاً وافراً من الألفاظ الخاصة بدمشق، فحاله التي آلت إليه جعلته «**كمئذنة كسرت قطعتين**» ثم يصف ابنَه بصفات بالغ فيها، وحُقّ له..أما ما يتصل بدمشق في القصيدة فهو أنه جعل رأس ابنه وهو يحمله بين يديه «**وردة دمشقية**»، وأظن أن نزاراً قصد بها اللون الأحمر الذي يرمز إلى القوة والعنفوان عند الشباب، لكن هذا الوجه استحال «**بقايا قمر**» رمزاً للون الميت بعد موته، فيميل إلى الاصفرار، وهكذا وجه ابنه توفيق الذي كان أحمر..ومرر الكلمة السحرية عنده «**الياسمين**» عندما قال:

«سألناه كيف يفسر موت البلابل والياسمين» (٢٨٤/٢)



أما الحمام الدمشقي فهو «**يحمل تحت جناحيه دفء هواك**» مخاطباً ابنه.

وفي «**مئة رسالة حب**» تمر كلمات كثيرة تذكرنا بما في دمشق، من أشجار التوت وأكياس الحلوى وأطواق الياسمين والشراشف وفناجين القهوة وحقول القمح وأشجار التين وأجنحة السنونو وشجرة الفل وماء الورد والبيادر والتين والزبيب والشرشف الدمشقي والبيلسان وزهر البرتقال وطرابين الزعتر البري..واللافت أن هذه الرسائل تجاوز عدها مئتي صفحة لم يمر فيها إلا هذه الألفاظ وهذا عدد قليل نسبياً.

بالمقابل فقد برز بوضوح عدد من الألفاظ التي استعارها نزار من دمشق في قصيدته «**إليه في يوم ميلاده**» التي ألقاها في ذكرى ميلاد جمال عبد الناصر في العام ١٩٧١، فالتاريخ «**مسك وعنبر**» و«**في الحقول سنابل وصنوبر**»

ومثلها ما جاء في قصيدة الخطاب فقد أورد «**الياقوت**» و«**الياسمين**» وفي قصيدة «**ملاحظات في زمن الحب والحرب**» يقول: (٢/٨٧٦)

«**ألاحظتِ؟**

«**كيف نثرنا عليهم**

«**عقود البنفسج والياسمين**»

وخص دمشق في مقطع كامل قال:»

ألاحظتِ؟

«**كم تشبهين دمشق الجميلة**

«**وكم تشبهين المآذن**

«**والجامع الأموي**

«**ورقص السماح**

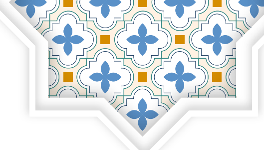
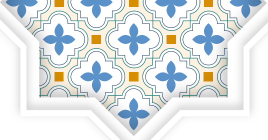
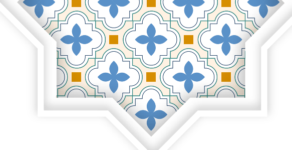
«**وخاتم أمي**

«**وساحة مدرستي**

«**وجنون الطفولة**

«**ألاحظتِ كم كنتِ أنثى**

«**وكم كنتُ ممتلئاً رجولة**» (٢/٨٨٢)

ومن القصائد التي خص بها دمشق قصيدة «**من مفكرة عاشق دمشقي**» ومطلعها: (٨١٦/٢)

فرشتُ فوقَ ثراكِ الطاهرِ الهُدُبا فيا دمشقُ لماذا نبدأ العَتبا؟

فثرى دمشق طاهر، رمى عليه هدب العيون، ربما كان قد خاصمها أو خالفها، فيعاتب نفسه «**لماذا نبدأ العتبا؟**»

قد تكون المرأة هي دمشق أو العكس، فكثيرة هي الصفات التي قالها نزار في الاثنتين، وهنا يقرر أن دمشق هي حبيبته، فيدعوها أن تستلقي على ذراعه أغنية جميلة تغفو، أم هو من يريد أن يغفو على صوتها ونغماتها؟!

ويضيف إلى ذلك فيعتبرها كل النساء، وهو لم يحب امرأة واحدة كما أحبَّها، بل إن كل من أحبَّهنَّ كان حبه لهن كذباً، هو لا يقصد أنه كاذب، بل يرمي إلى أن أي علاقة مع غيرها لم تكن بذات المستوى الذي يحب فيه دمشق، ومن الأبيات الجميلة التي لا يمكن تجاوزها قوله: (٨١٦/٢)

يا شامُ إن جراحي لا ضفافَ لها فمَسّحي عن جبيني الحزنَ والعتبا

يصور حاله المتعبة الحزينة، ويجد في دمشق الطبيب الوحيد القادر على أن يشفيه من جراحه الكثيرة التي طالت وطالت، فلم يعد لها ضفاف تقف عندها.

ويرى أن جراحه لا يشفيها إلا الشام بطرق عديدة، أن تعيده إلى أسوار مدرسته التي كان يدرس فيها، أو يقف على بابها ينتظر من يحب، وأن تعيد له مقاعد الدراسة والحبر والطبشور والكتب..ففي تلك الحارات الدمشقية التي يُسمِّيها زواريب ترك ذكريات كثيرة هي كنز..يضم أحلى الذكريات التي تُعيده صغيراً، فعلى تلك الجدران رسم ولوّن..ويعود مرة أخرى إلى أحزانه فيقول: (٨١٧/٢)

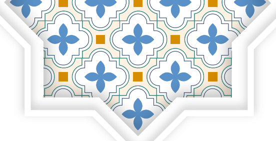
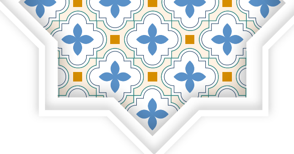
أتيتُ من رَحِمِ الأحزانِ يا وطني أُقبِّلُ الأرضَ والأبوابَ والشُّهبا

لقد شبه أحزانه بامرأة في رحمها كل الأحزان التي يحملها، جاء من هذا الرحم ليعيد إلى نفسه التوازن ويعود كما كان عاشقاً، فهو سيقبّل الأرض والسماء، وما بينهما من أبواب، أهي أبواب دمشق أو أبواب الأحبة، لقد ترك لنا نزار حريةَ التفكير والموازنة وربما كان عن قصد، فأبواب دمشق هي أبواب كل الأحبة وأبواب كل بيت دمشقي.

هذا البيت مدخل للقصيدة التي يُعبِّر فيها عن ذكرياته في دمشق مذ عاد إليها وهو يحمل الأحزان عسى أن ترحل عن دمشق..!

في دمشق وُلدت حبيبات نزار كلهن، وفي دمشق بدأ حبه، وهو يريد أن يعود إليهن وإليها قبل أن يذهب العمرَ، ويسأل: «**فمن يُعيد لي العمر الذي ذهبا؟**»

تعال نقرأ ثم نحلل:

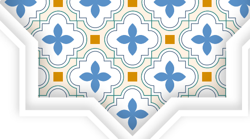
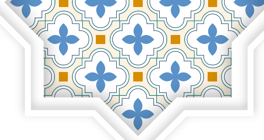
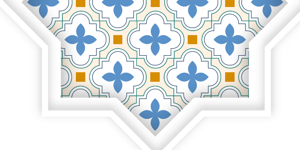




أنا قبيلةُ عشاق بكاملها ومِنْ دُموعي سقيت البحر والسُّحبا

هل يتكلم نزار على نفسه أم على دمشق؟ كلاهما واحد هي دمشق التي صارت فيها كل صفصافة امرأة، وكل مئذنة رصّعتها بالذهب وبساتين دمشق وغوطتها من أمتعة السفر الرئيسية عنده، تركت الكروم خيوطاً على كل قميص يلبسه..

ثم ينتقل إلى الجانب السياسي والوطني في القصيدة، والسياسة في شعر نزار توازي وأحياناً تتفوق على الغزل، فيسأل عن عيني معاوية، وكل من وصل إلى الشهب بمنزلته، يبحث عن خيول بني حمدان وعن المتنبي وقبر خالد بن الوليد في حمص، طلب منه أن يُعيره سيفاً يحارب به بعد أن صارت سيوف العرب خشباً لا تستطيع أن تحارب، ولا يستطيع مَن يحملها أن يقف في وجه عدوه! إنه يصور حال العرب التي شكا لدمشق حالهم، وصور حال العرب الذين لا يزالون يعيشون هزيمة حزيران..يقول: (٢/٨٢٠)

سقَوا فلسطين أحلاماً ملوّنة وأطعموها سَخيف القول والخطبا





وفي مقطع آخر يخص فيه فلسطين يطلب أن يطمئنه أحد عن حالها..(٨٢٠/٢)

وعن بساتين ليمون، وعن حلم   يزداد عني ابتعاداً كلما اقتربا

ويتمنى لو يجد أحداً يُعيد لفلسطين زهرها وورودها وبنفسجها وزنبقها، ومن يُعيد لها ما فقدته من بيوت أهليها..

ويُجيب أنْ لا أحد ما دام العرب بعضهم يبحث عن الجنس، وبعض عن الذهب، وآخر للغواني، ورابع «**أعمته البصيرة**» وخامس «**ببحار النفط مغتسل**»، وينهي المقطع بقوله: (٨٢١/٢)

إن كان من ذبحوا التاريخ هم نسبي   على العصور فإني أرفض النَّسبا

يعود في المقطع الأخير للحديث عن الشام ويعتذر ماذا سيقرأ من شعره؟ فكل الأقلام التي قالت الحقيقة اغتيلَت أو صُلبت..إلى أن وصل مرحلة أن يشعر أن حبل الفجيعة ملتفٌ على عنقه، وينهي القصيدة ببيتين (٨٢٣/٢)

الشعر ليس حمامات نُطيّرها   نحو السماء ولا نايا وريحَ صَبا

لكنه غضبٌ طالت أظافره   ما أجبن الشعرَ إن لم يركبِ الغضبا

ومن قصيدة «**الاستجواب**» نقرأ: (٧٥٩/٢)

«لست شيوعيّاً كما قيل لكم يا سادتي الكرام

«ولا يَمينيّاً كما قيل لكم يا سادتي الكرام

«مسقط رأسي في الشام

«هل واحد منكم يعرف أين الشام

«هل واحد منكم أدمن سكنى الشام

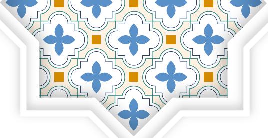
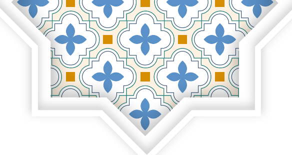
«رواه ماء الشام، كواه عشق الشام

«تأكدوا يا سادتي

«لن تجدوا في كل أسواق الورود وردة كالشام

«وفي دكاكين الحُلي لؤلؤة كالشام

«لن تجدوا مدينة حزينة العينين مثل الشام»

التعليق:

ينفي نزار أن يكون قاتل الإمام فهو لا ينتسب إلى اليمين ولا إلى اليسار، بل هو من الشام التي يعرف كل مَن يعرفها أن ناسها هم الصالحون الذين لا يقتلون، هم الأبرياء الذين لا يجوز لأحد أن يتهمهم بأي جريمة؛ لأن نفوسهم طاهرة ما دامت قد شربت من ماء الشام، وهم العاشقون وطنَهم ما دام العشق الشامي كواهم، فالشام درة كل شيء ورداً ولآلىءَ، لكنها حزينة لأنها متهمة..!

لقد أشار نزار إلى الوطن في البيت الأخير من قصيدة «**إلى عينين شماليتين**» فقال: (١/٢٩٤)

تاهت بعينيها وما علمت   أني عبدتُ بعَينها وطني

..عينا الحبيبة وطن نزار، وسبق البيتَ أبياتٌ عديدة نثر فيها ألفاظ الطبيعة التي اعتدنا عليها في قصائده، فالجنينة الخضراء تضحك وتزرعه على حدود النجم، وصور العصفور الذي طلب منه تصويره، والكروم معرشة..كما يذكر البحر والسفن والأشرعة والمرافئ، بل المرفآن عينا الحبيبة ليصل البيت الأخير فيقول:

بيتي وبيت أبي وبيدرنا   وشجيرة النارنج تحضنني

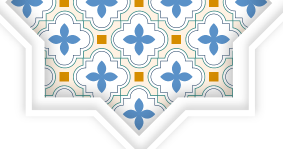
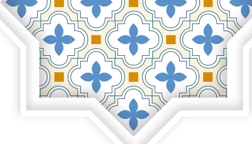
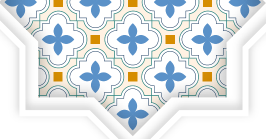
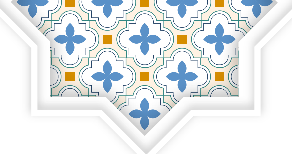
_ الخاتمة:

طغت على شعر نزار ثلاثية فيها الوطن وفيها البيت الدمشقي وفيها الحبيبة، هذه الثلاثية الملازمة نزاراً أين حل وماذا كتب..لم نستطع أن نحرر واحدة من أختيها، وإلا أسأنا التعبير والتحليل، وأسأنا إلى الشاعر نفسه الذي قدم لنا لوحة ثلاثية الأبعاد أبدع في رصف كلماتها وأجاد في تلوين تفاصيلها الصغيرة قبل الكبيرة، وافتنَّ في شدنا إليها فعشنا معه ومعها.

_ مصادر البحث:

_الأعمال الشعرية الكاملة – المجلد الأول – مطبوعات نزار قباني - بيروت ١٩٧٩.

_ الأعمال الشعرية الكاملة – المجلد الثاني – مطبوعات نزار قباني - بيروت ١٩٨٠.



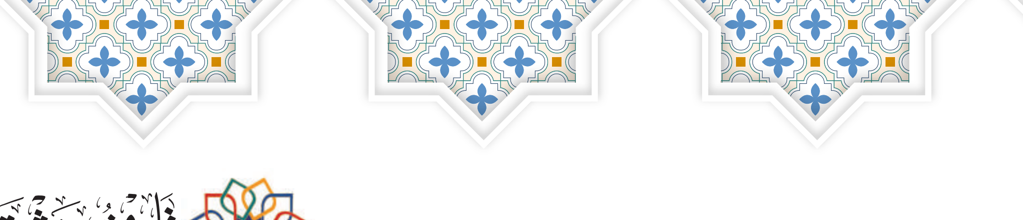
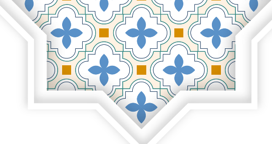




Ibn Fadlallah Al-Omari Al-Dimashqi

The unrecognized brilliance

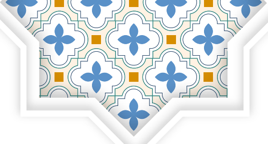
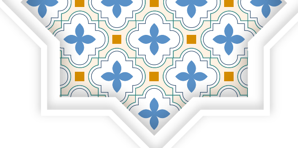
Prof. Ammar Mohamed Al-Nahar


ابن فضل الله العمري الدمشقي الألمعي الذي لم يشتهر ٧٠٠ - ٧٤٩هـ = ١٣٠١ - ١٣٤٩م

أ.د عمار محمد النهار[1]

(1) أستاذ التاريخ والحضارة العربية الإسلامية في جامعة دمشق وجامعتي بلاد الشام واليرموك. ورئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق

ملخَّص البحث

يعدُ ابن فضل الله العمري من عمالقة التَّأريخ عبر العصور، وقدَّم مؤلَّفات وموسوعات تعدُ من المصادر الأساسيَّة إلى يومنا هذا، ومع ذلك لم يشتهر هذا العالم، على حين اشتهر مَن أخذ عنه، ومن هذه الأهمِّيَّة انطلق هذا البحث ليتحدَّث عن حياة هذا العالم، والوظائف التي عمل بها، وأساتذته، ومؤلَّفاته، وأتى على التَّعريف بموسوعته: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وأهمِّيَّتها واكتشافها، وخُتِم البحث بمقتطفات نادرة من كتابات العمري، كحديثه عن كروية الأرض، واكتشاف أمريكة.

ـ المقدمة:

يتحدث هذا البحث عن عالم دمشقي عملاق، وُلد بدمشق وتوفِّي فيها .

مع ما يتَّصف به العمريُ من ألمعية وبراعته في علوم عدَّة، وإنجازات كبيرة، تتمثَّل بمؤلفاته، وعلى رأسها موسوعته الرائدة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، مع كُلِّ هذا ما تزال المكتبة العربية الإسلامية تفتقد كتابًا أو ترجمة مستقلَّة تحكي سيرة هذا العالم ومسيرته العلمية الظافرة، وهذا الذي ألزمني أن أُقدِّم هذا العمل الذي أرجو أن يسدَّ هذه الثغرة، يُضاف إلى ذلك رغبتي أن أضع بين أيدي القرَّاء والباحثين والمهتمين سيرةَ عالم من دمشق، وُلد ونشأ وتوفِّي فيها، فكان فخرًا لها، كما هو فخر للحضارة العربية الإسلامية.

ومع أن العمري لم يعش طويلاً (٧٠٠ ـ ٧٤٩هـ/ ١٣٠١ ـ ١٣٤٩م) إلَّا أنَّه ألَّف كتباً كثيرة ومتنوعة ومهمة حفلت فيها حياته، يعد الكثير منها مرجعاً أساسيًّا لمن جاؤوا بعده. وقد اشتملت كتبه على علوم واختصاصات متنوعة في التاريخ وتراجم الرجال وقوانين الكتابة الديوانية، مع إتقانه للشعر، وغير ذلك مما أورده في مؤلفاته التي تأتي في مقدمتها موسوعته «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، التي تقع في سبعة وعشرين جزءاً، وتعدُ بحقٍّ أهم ما وصل إلينا من التراث العربي الإسلامي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

ومن يطَّلع على هذه الموسوعة بدقة يجد أنَّ العمري كان يسعى للتَّأريخ للحضارة العربية الإسلامية: في مصر، والشام، والحجاز، والهند، وبلاد فارس، وبلاد الترك، والصين، والروم.

فهذه الموسوعة من أضخم الموسوعات العربية الإسلامية التي تفاخر معظم مكتبات العالم بامتلاك أجزاء منها . والأهمية الكبرى لهذا الكتاب الضخم تكمن في أنه لولاه لبقيت حقبة بأكملها من التطورات الإدارية وبنية الدولة في مصر والشام غامضة في سياقها العام وكثير من تفاصيلها :

ـ فالقلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) في (صبح الأعشى) اعتمد بشكل كبير على مسالك الأبصار.

ـ تبعه المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) في (خططه) التي استوعب فيها باباً كاملاً من أبواب العمري، وهو الباب الخاص عن دولة المماليك.

ـ وجاءت جميع معلومات السيوطي (ت٩١١هـ / ١٥٠٦م) عن مصر في كتابه (حسن المحاضرة) مأخوذة



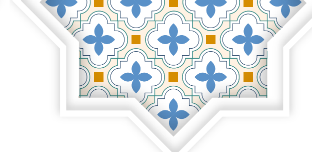
الورقة الأولى من مسالك الأبصار للعمري

عن مسالك العمري.

وقد نالت كتب هؤلاء اهتمام العلماء والباحثين، وأُخرجت إلى النور منذ وقت بعيد، وأما النبع الذي استَقوا منه معلوماتهم فقد ناله الإهمال.

فاشتهر القلقشندي والمقريزي والسيوطي، وكُتبت عنهم تراجم مطوَّلة، على حين لم يحظ العمري إلا بقليل من الاهتمام.

وقد أثنى علماء عصر العمري عليه كثيراً، ولا سيما صديقه المؤرخ الصفدي الذي قال: «هو الإمام


الفاضل المفوَّه الحافظ، حجة الكتاب، إمام أهل الآداب، وأحد رجالات الزمن كتابة وترسُّلاً وتوصُّلاً إلى غايات المعالي توسُّلاً».

ويعد العمري من الذين تحدثوا عن كروية الأرض، وقد سبق المؤرخين في ذكر رحلة سلطان مالي إلى أمريكة، وهو الوحيد الذي أنقذ أول خارطة كاملة للعالم المعروف آنذاك، وهي الخارطة المأمونية، وليس خارطة الإدريسي كما كان يُظن، وقد استطعتُ الحصول على نسخة منها من مكتبة طوب قبو سراي.

وقد أرَّخ العمري لجميع الدول العربية والإسلامية، بل وكتب عن كامل جغرافية العالم العربي الإسلامي، والنُظم الإدارية.

وترجم لجميع أصحاب الطبقات تقريباً؛ للمؤرخين والمحدثين والمفسرين والأدباء والشعراء والقضاة والأطباء والفلاسفة ... وغير هؤلاء، بل وكتب عن قبائل العرب.

وكتب عن الأديان بما يمكن أن نسميه (مقارنة الأديان)، وكتب عن الحيوان والنبات.

وتكثر مسوِّغات تخصيص كتاب لهذا العالم الفذ، الذي أرى أنه أُهمل ولم ينل الاهتمام الذي يستحقُّه من الباحثين والمحقِّقين، على الأقل أسوة بمن نقلوا عنه، ولذلك فإن هذا البحث ليس إلا محاولة لإنصافه، وكما ورد في الآثار القديمة: من أرَّخ لمؤمن فكأنما أحياه.

أولاً _ نشأة العمري وسيرته:

عاش ابن فضل الله العمري حياته في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وهذا العصر هو عصر دولة المماليك (٦٤٨ _ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ _ ١٥١٧م) الذين حكموا مصر وبلاد الشام وغيرها من النواحي آنذاك، حكم في هذه المرحلة العديد من سلاطين المماليك، ولكن الأبرز منهم كان السلطان محمد بن قلاوون الذي تسلطن ثلاث مرات.

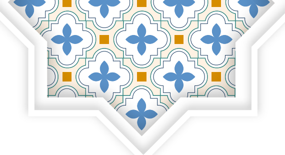
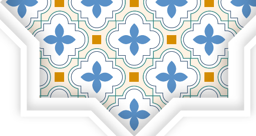
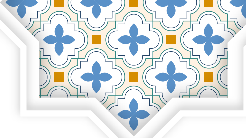
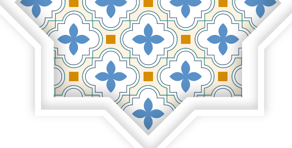
وتعد المرحلة التي عاش فيها العمري أهم مرحلة في تاريخ دولة المماليك من حيث الازدهار والاستقرار، وخاصة في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي كانت مدة حكمه في ولاياته الثلاث خمساً وأربعين سنة تعد من أزهى حقب تاريخ المماليك توسُّعاً وازدهاراً في أغلب مجالات الحياة(٢).

وسنتحدث هنا عن اسم العمري ونسبه، وسيرة حياته، والوظائف التي تولاها في الدولة المملوكية، وأساتذته، ومؤلفاته، ثم وفاته.

١_ اسمه ونسبه:

لحُسن حظنا أن ابن فضل الله العمري بدأ موسوعته الضخمة (مسالك الأبصار) بذكر اسمه ونسبه، وهذا يُعفينا من الدخول في إشكالات كثيرة، قال:«يقول العبد الفقير إلى الله تعالى، الراجي عفوه، أحمد بن

(2) انظر الخطط المقريزية: المقريزي أحمد بن علي، ج2، ص306 . نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري أحمد بن عبد الوهاب، ج31 ص267.

يحيى بن فضل الله بن المجلي بن دعجان بن خلف أبي الفضل نصر بن منصور بن عبيد الله بن عدي بن محمد بن أبي بكر عبد الله بن عبيد الله بن أبي بكر بن عبيد الله الصالح بن أبي سلمة عبد الله، وقيل أسلمة بن عبيد الله بن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي»[٣].

وبذلك ينتهي نسبه إلى الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن أجل ذلك عُرف بالعمري، ويؤكد ذلك وضعه لكتاب عن آل عمر سمَّاه «فواضل السمر في فضائل آل عمر»، كما سيأتي في مؤلفاته.

٢ـ سيرة حياته:

وُلد ابن فضل الله العمري في دمشق، وتختلف المصادر اختلافاً بسيطاً في تاريخ مولده؛ فالصفدي المعاصر له يجعله في الثالث من شوال عام ٧٠٠هـ / ١٣٠١م[٤]، ويقول في موضع آخر: «والظاهر أن مولده سنة إحدى وسبعمائة أو سنة سبعمائة»[٥]، ويذكر ابن تغري بردي أن مولد العمري كان عام ٧٠٠هـ / ١٣٠١م[٦]، ولكنه يشير في كتاب آخر إلى أنه ولد عام ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م[٧].

وتُجمع بقية المصادر على أن ولادته كانت في الثالث من شوال عام ٧٠٠هـ / ١٣٠١م[٨].

وعلى كل حال؛ فالعمري نشأ في مدينة دمشق في بيئة علمية وأسرة ذات مكانة رفيعة:

فوالده كان عالماً بالأدب، وكاتب سرِّ الدولة[٩]. وكتابة السر تعني: قراءةَ الكتب الواردة على السلطان، وكتابةَ أجوبتها، وأخذَ خطِّ السلطان عليها وتفسيرها، وتصريفَ المراسيم وروداً وصدوراً، والجلوسَ لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها[١٠].

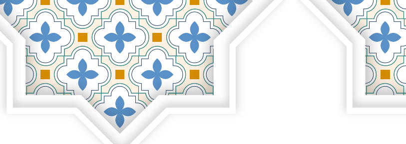
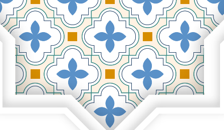
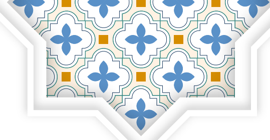
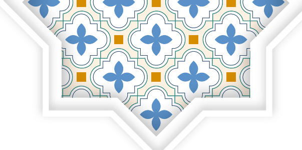
وأخوه الأول عمل في كتابة السر كأبيه.

وأخوه الثاني تولَّى ديوان الإنشاء في مصر.

وتولَّى أولاد أخيه هذه المناصب الجليلة كذلك.

انتقل بعد ذلك مع أبيه من دمشق إلى مصر عندما وُلِّي والده منصب كاتب السر هناك، وصار يقرأ في مصر البريد على السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهناك تغيَّرت الأحوال عليه، إذ سخط على السلطان الناصر الذي عيَّن رجلاً بوظيفة كتابة السر لم يقبله العمري، وأظهر غيرته من ذلك، إلا أن الناصر لم يلتفت؛ بل أمر بزيادة أجر هذا الرجل، وعندها امتنع العمري عن الأمر، ونطق بالكلمة التي تسبَّبت بعزله

(3) مسالك الأبصار: العمري أحمد بن يحيى، قطعة منه بعنوان: الأرض وسكان الأرض. وانظر الوافي بالوفيات: الصفدي صلاح الدين خليل، ج8، ص252.
(4) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص 254.
(5) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص268.
(6) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي يوسف، ج10، ص185.
(7) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: ابن تغري بردي، ج2، ص261.
(8) من هذه المصادر: فوات الوفيات: الكتبي محمد بن شاكر، ج1، ص159، طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبه أبو بكر بن أحمد، مج2، ص169، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر أحمد بن علي، ج1، ص354.
(9) انظر البداية والنهاية: ابن كثير إسماعيل بن عمر، ج14، ص148، أعيان العصر وأعوان النصر: الصفدي صلاح الدين خليل، ج5، ص571 - 576.
(10) مسالك الأبصار: العمري، قطعة منه بعنوان: «مملكة مصر والشام والحجاز»، ص120.





من منصبه على الرغم من وساطة والده، وقتها قال للناصر محمد: «خدمتُك عليَّ حرام»، فأُقيم أخوه بدلاً عنه، وأُجبر على التزام بيته، وذلك عام ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م.

وبعد ذلك توفي والدُه، فرفع كتاباً إلى السلطان يسأله فيه مغادرة مصر إلى الشام، ويبدو أن ذلك الكتاب ذكَّر السلطان بالعمري، وحرك ما كان ساكناً، فأمر باعتقاله في شعبان ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م، وزاد الأمرَ سوءاً ما نقله بعض الكتَّاب عنه إلى السلطان متهمين إياه بتزوير توقيع[١١]، فأمر السلطان بقطع يده، ثم أفرج عنه بعد أن سأله العمري ذلك عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م، ثم عادت الثقة من جديد بينه وبين السلطان فولَّاه كتابة السر في دمشق عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م[١٢].

ولكن هذه الثقة لم تدم طويلاً لَمَّا كثرت الشكايات منه في دمشق، فعزله السلطان من منصبه عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م، وطلبه إلى مصر للنظر في أمره، وقَبِلَ السلطانُ هذه المرة شفاعةَ شقيقه، فعاد العمري مجدداً إلى مسقط رأسه دمشق[١٣].

٣_ الوظائف التي تولاها:

عاش ابن فضل الله العمري في أسرة ذات صلة وثيقة بالعمل في دواوين (وزارات أو مديريات) بلاد الشام ومصر، فشاركت هذه الأسرة في إدارة الدولة بعدد من الوظائف المهمة بدءاً من والد العمري وانتهاءً بأولاد أخيه.

وقد تولَّى العمري الوظائف الآتية:

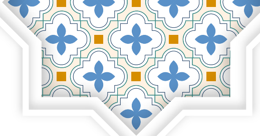
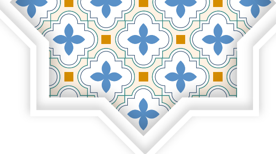
- وظيفة الكتابة في ديوان إنشاء دمشق ثم مصر.
- وعُين قارئاً للبريد على السلطان في مصر.
- وأُذن له بالإفتاء على المذهب الشافعي.
- كما عمل كاتباً فقهيّاً[١٤].

تعدُ هذه الوظائف التي تسلمها وظائفَ مهمة ومُؤثِّرة في الدولة، ولاسيما وظيفة الكتابة في ديوان الإنشاء وكتابة السر[١٥]، فهما لا تُوكلان إلا لمن نال الثقة الكبيرة من الدولة المملوكية، ولمن اشتهر بعلمه وحذقه، وهذا ما توافر في العمري، إذ تدلُ مؤلفاته على علم وفير وخبرة كبيرة، وعليها اعتمد كبار العلماء ولاسيما القلقشندي في صبح الأعشى الذي اعتمد على كتاب العمري «التعريف بالمصطلح الشريف» اعتماداً كبيراً، وهو كتاب خاص بالكتابة وأعمال الإنشاء في الدواوين.

٤_ أساتذته الذين تعلَّم على أيديهم:

درس العمري على كثير من العلماء، فقرأ الأدب على والده يحيى بن فضل الله بن المجلي بن دعجان

(11) ولم تُثبت المصادر هذه التهمة.
(12) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج1، ص352، 353.
Hurt (Clement), Ahistory Of Arabic Literature: P 327
(13) الدرر الكامنة: ابن حجر، ج1، ص 354.
(14) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص254. النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج10، ص185. الدرر الكامنة: ابن حجر، ج1، ص352.
(15) تعادل منصب وزير.

الخارطة المأمونية التي رسمها فلكيو المأمون

(ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م)[١٦]، ويبدو أنه اكتسب على يديه خبرةَ الوظائف التي تسلَّمها .

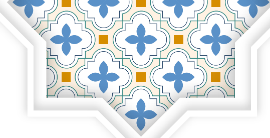
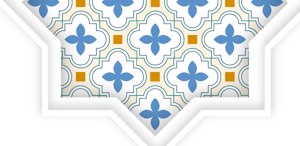
كما درس علوم العربية على العالم النحوي الشيخ عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن قاضي شهبة (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٥).

وتعلَّم الفقه على محمد بن عبد الله بن المجد الإربلي (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) المفتي.

وسمع الحديث من ست الوزراء أم محمد بنت الشيخ تاج الدين أبي الفضل يحيى بن مجد الدين محمد (ت ٧١٥هـ / ١٣١٥م)، ومن أحمد بن نعمة بن حسن البقاعي الدمشقي الحجَّار (ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م)[١٧].

وقرأ الأدب وتعلم العروض وعلوم البلاغة على يد الشيخ محمد بن الحسن بن سباع شمس الدين الصائغ (ت ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م)، وعلى الشيخ العلامة محمود بن سليمان بن فهد الحلبي

(16) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد عبد الحي أحمد، ج8، ص274.
(17) أعيان العصر: الصفدي، ج1، ص352، 353.

الدمشقي (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، والشيخ محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري الزملكاني (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م).

وأما أشهر من تلقَّى العمريُ العلمَ على أيديهم، فمنهم عالم ذاع صيته في عصره، وفي العصور التالية إلى زماننا، وهو أبو حيان الغرناطي الأندلسي (ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م)[١٨].

وهكذا يتبين لنا اتصال العمري الوثيق مع أشهر علماء عصره، وتلقيه العلم عليهم؛ وهذا ما منحه شهرة إضافية، وقاعدة علمية قوية متينة، ظهرت بوادرها وأساسياتها في مؤلفاته.

٥ ــ مؤلفاته:

مع أن العمري لم يعش طويلاً (٧٠٠ - ٧٤٩هـ /١٣٠١- ١٣٤٩م) إلّا أنه ألف كتباً كثيرة ومتنوعة ومهمة، يعد الكثير منها مرجعاً أساسيّاً لمن جاؤوا بعده.

وقد اشتملت كتبه على علوم واختصاصات متنوعة في التاريخ وتراجم الرجال وقوانين الكتابة الديوانية، مع إتقانه الشعر، وغير ذلك مما أورده في مؤلفاته التي تأتي في مقدمتها موسوعته «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، وهذه أهم مؤلفاته:

«التعريف بالمصطلح الشريف»: المقصود بالمصطلح الشريف مصطلح الكتابة الديوانية والقوانين التي تُراعى عند المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء، وأُطلق على الكتب المتعلقة بهذا الموضوع اسم الدساتير، ولأهمية هذا الكتاب أطلق عليه القلقشندي أيضاً اسم الدستور[١٩].

«فواضل السمر في فضائل آل عمر»: وهو في أربع مجلدات، ويظهر أن الذي دفعه إلى تأليفه انتسابه إلى آل عمر بن الخطاب ﷺ، فهو دراسة لأسرته ورجالاتها وفضائلها، وما زال هذا الكتاب مفقوداً حتى الآن[٢٠].

«ممالك عبَّاد الصليب»: وفيه وصف لملوك الإفرنج في عصره، فوصف ملوك فرنسا وألمانيا وأهل جنوة والبندقية، وأحوالهم الاجتماعية والسياسية، وعلاقاتهم بالمسلمين، وطُبع هذا الكتاب في روما مع ترجمة إيطالية له عام ١٨٨٣م[٢١].

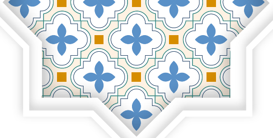
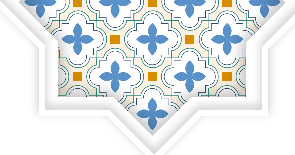
«الشتويات»: ويشتمل على رسائل أرسلها في شتاء عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م من دمشق إلى عدة رجال متعلمين، ومخطوط هذا الكتاب موجود في ليدن، ومعهد المخطوطات العربية في القاهرة[٢٢].

وله في تراجم مشاهير المائة الثامنة من معاصريه كتابان: «ذهبية العصر»، و«مختصر قلائد العقيان»[٢٣].

ومن كتبه أيضاً: «الدعوة المستجابة»، و«دمعة الباكي»، و«يقظة الساهر»، «نفحة الروض»، و«سفرة السفرة»،

---

(18) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص 254، 255.
(19) طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبة، مج2، ص 274. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص255، النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج10، ص185.
(20) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص 255، النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي،ج10، ص 185.
(21) الأعلام: الزركلي خير الدين، ج1، ص 268.
(22)A history of Arabic Literture: Huart, P 327
(23)): كشف الظنون: حاجي خليفة مصطفى القسطنطني، ج5، ص 110. الأعلام: الزركلي، ج1، ص، 268،

و«النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية»، و«الدائرة بين مكة والبلاد»، و«تذكرة الخاطر»، و«الجواهر الملتقطة»[٢٤].

يضاف إلى ذلك أن العمري كان شاعراً، وفي ذلك يقول ابن إياس: «كان من أعيان شعراء مصر»، وله في هذا المجال قصيدة رائية سمّاها: «حسن الوفا لمشاهير الخلفا»، وديوان كامل في المدائح النبوية سمّاه: «صبابة المشتاق»[٢٥].

وأختار من شعره ما ذكره الصفدي (ت٧٦٤هـ / ١٣٦٣م): [الطويل]

وحَقِّ الذي أبلى فؤادي بحُبِّكُم ... وصيَّر قلبي فيكمُ هائماً صَبّا
فحُبُّكُمُ المُضني على ما عَهدتُمُ ... ولم يَجنِ فعلاً في الفراق ولا ذَنبا
ولكنَّها الأقدارُ تَجري على الفَتى ... وتَحملُ فيها من أحبَّتِه عَتبا
أَأحبابَنا أنتُم بِقَلبي وناظري ... لذلكَ لا أشكو بِعاداً ولا قُربا[١]

وذكر ابن إياس له: [السريع]

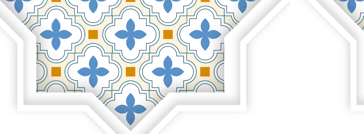
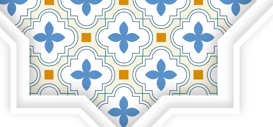
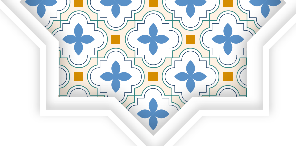
أنا معَ التَّمكين في قُدرتي ... ليسَ يَشُكُّ الناسُ في عفَّتي
يُثني على صدق لساني الوَرى ... في حال إثقالي وفي خفَّتي
كَم من يَدٍ مُمتدَّةٍ في الغنى ... صارَت بما تَحويه في كفَّتي[٢]

٦_ وفاته:

تُجمع المصادر على أن وفاة العمري كانت في شهر ذي الحجة من عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٩، وهو العام الذي حلَّ فيه الطاعون الجارف الذي أباد كثيراً من الناس، فأقلق ذلك ابنَ فضل اللّه العمري، فانعزل عن الناس، ثم تجهَّز للسفر إلى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج، ولكنه تراجع عن ذلك، وغيَّر وجهة السفر إلى بيت المقدس، مصطحباً معه ابنَه وزوجتَه التي تُوفِّيت هناك، فدفنها ثم عاد إلى دمشق، ومع يوم وصوله إليها أصابته حمى أدَّت إلى وفاته، فشُيِّع ودُفن في الصالحية بقرب أبيه وأخيه، بعد أن صُلِّي عليه في الجامع الأموي[٢٦].

كانت وفاة العمري مؤثِّرة ومُؤلِمة للناس عامةً وللعلماء خاصةً، وقد كتب المؤرخ صلاح الدين الصفدي صديق العمري كتاباً إلى شقيق العمري يُعزِّيه، قائلاً: «يُقبِّل الأرض ويُنهي ما عنده من الألم الذي برَّح، والسقم الذي جرَّ ذيول الدمع على الخدود وجرَّح، لما قدَّره اللّه من وفاة القاضي شهاب الدين، سقته بألطف أذرائها وأغزرها ساريات الغمام، فإنَّا للّه وإنَّا إليه راجعون، قولُ مَن غاب شهابُه، وآبَ التهابُه، وذابَ

(24) الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص 160. حاجي خليفة: كشف الظنون، ج5، ص110.
(25) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس محمد بن أحمد، ج1، ص 487. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص255، النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج10، ص 185.
(26) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص 268. ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص 184.

قلبُه فصار للدمع قليباً ... فيا أسفاً على هذا الوجه المليء بالملاحة، واللسان الذي طالما سحر العقول ببيانه، فصاحت يا ملك الفصاحة، واليد التي كم روَّضت الطُروسَ أقلامُها، وأنشأت أسجاعاً لم تُذكر معها باناتُ الحِمى ولا حَمامُها، فكأن أبا الطيب ما عنى سواه بقوله:

تعثَّرَت بكَ في الأفواه ألسُنُها والبُردُ في الطُّرقِ والأقلامُ في الكُتُبِ

فرحم اللّه ذلك الوجه وبلَّغه ما يرجوه، وضوَّأه بالمغفرة يوم تبيضُ وجوهٌ وتسودُ وجوهٌ»(٢٧).

وذكر ابن إياس أن العمري رثى نفسه قبل موته ببيتين من الشعر هما: [السريع]

قلتُ لأقلامي اكتُبي وانطقي فقالَت الأقلامُ واسَوءَتاهْ
وشقَّتِ الألسُنُ مِن حُزنِها ووَلوَلَت واسُودَ وَجهِ الدَّواه(٣)

ثانياً ـ موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار:

تشتمل هذه الفقرة على أهمية موسوعة العمري، واكتشاف مخطوطة العمري.

١ـ أهمية موسوعة مسالك الأبصار:

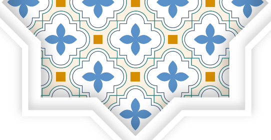
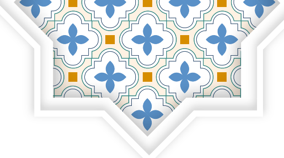
لم يتيسر ـ لسوء حظنا وحظ العمري ـ لموسوعة مسالك الأبصار مَن يتفرَّغ لتحقيقها كاملة إلا في السنوات الأخيرة، ولذلك اشتهر المقريزي والقلقشندي والسيوطي ـ وهم الذين عاشوا بعد وفاة العمري ـ مع أنهم اعتمدوا كثيراً على هذه الموسوعة، ونقلوا منها الشيء الكثير، وأشاروا إلى ذلك بأمانة علمية جلية وواضحة، وتوفَّر لهم مَن أقدم على دراسة كتبهم وتحقيقها.

إن لموسوعة العمري أهمية تفوق أهمية كثير من الموسوعات؛ فهي موسوعة جغرافية تاريخية بيوغرافية، وجدت فيها الدراسات الحديثة مَعيناً لا ينضب للجغرافيا البشرية والتاريخية.

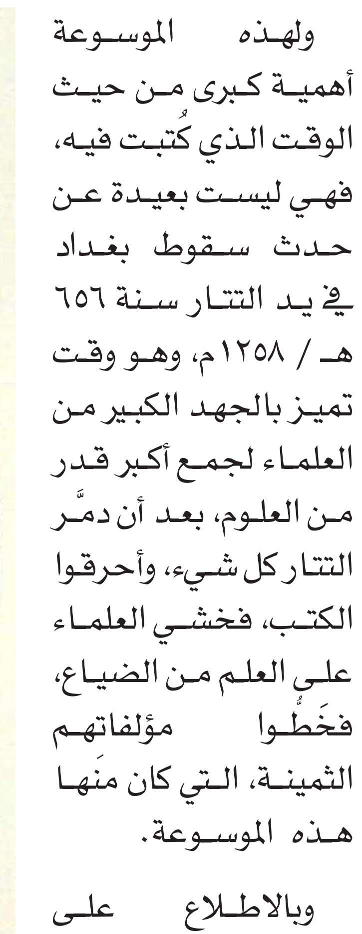
وتبرز أهميتها في اعتماد كبار المؤرخين عليها والاقتباس منها، كما ذكرنا قبل أسطر؛ فالقلقشندي اعتمد عليها اعتمادا كبيراً، ولاسيما في مقالته الثانية في كتابه صبح الأعشى، ونقل المقريزي في خططه منها الشيء الكثير عن عصور سلاطين المماليك، وعن خلع المماليك وأزيائهم حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون، ونقل السيوطي في كتابه حسن المحاضرة من هذه الموسوعة كلَّ معلوماته عن مملكة مصر في عصر المماليك(٢٨).

وتدلُّ هذه النقول ـ من مُؤرِّخين لهم مكانتهم على مرِّ التاريخ ـ على الغنى العلمي الذي تتَّصف به موسوعة مسالك الأبصارَ من جهة، وعلى الثقة بمعلومات العمري فيها من جهة أخرى. وتعد هذه الموسوعة من المصادر القليلة التي اختصَّت بذكر كل علم من العلوم ذكراً مستقلاً تفصيليّاً؛ ولاسيما العلوم التطبيقية كالموسيقا والطب والحيوان والنبات والمعادن وغيرها.

(27) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص 268.
(28) انظر عن ذلك بالتفصيل العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قطعة منه بعنوان: ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، ص 2 - 29.

ولهذه الموسوعة أهمية كبرى من حيث الوقت الذي كُتبت فيه، فهي ليست بعيدة عن حدث سقوط بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م، وهو وقت تميز بالجهد الكبير من العلماء لجمع أكبر قدر من العلوم، بعد أن دمَّر التتار كل شيء، وأحرقوا الكتب، فخشي العلماء على العلم من الضياع، فخَطُّوا مؤلفاتهم الثمينة، التي كان منها هذه الموسوعة.



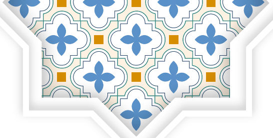
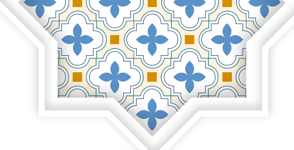
الخارطة المأمونية التي رسمها فلكيو المأمون

وبالاطلاع على محتوياتها يظهر غناها بالمعلومات المتعلقة بأكثر أنواع العلوم النظرية والتطبيقية، فهي تمثّل مصدراً مهمّاً أساسيّاً لكل باحث ومُهتم، وهذا ما يُفسِّر الاهتمام الإسلامي والأوربي والشرقي بها، فقد انكب على تحقيقها الباحثون العرب، وبذل العلماء الغربيون جهوداً كبيرة في دراستها وتحقيق أقسام كثيرة منها.

وتجدر الإشارة إلى أن عصر المماليك تميَّز بميزة مهمة، وهي بروز عدد من العلماء الموسوعيين فيه، وقد قدم هؤلاء عدة موسوعات مهمة اشتهرت عبر الأيام والقرون، ومنهم العالم الموسوعي محمد بن إبراهيم بن يحيى بن الوراق (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م)، وقد قدم لنا موسوعته «مباهج الفكر ومناهج العبر» وجعلها في أربعة أجزاء[٢٩].

وللعالم الموسوعي الآخر شهاب الدين أحمد النويري (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) موسوعة مهمة ومشهورة هي (نهاية الأرب في فنون الأدب)[٣٠].

(29) مباهج الفكر ومناهج العبر: الوطواط محمد بن إبراهيم، ص 82.
(30) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري، ج1، ص 4 - 25.

وظهر موسوعي آخر في ذلك العصر هو أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، وقد ألف موسوعته المشهورة (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)[٣١].

٢ _ اكتشاف مخطوط مسالك الأبصار للعمري:

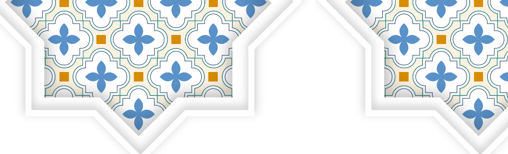
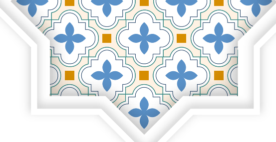
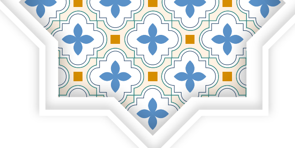
تُعَدُّ موسوعةُ «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» أهمَّ ما أنتجه ابن فضل الله العمري، ومن أثمن ما وصلنا من عصره، فهي موسوعة كبرى، مؤلفة من سبعة وعشرين جزءاً، وصلتنا كلها، وقد ذكرها المؤرخون، فمنهم من قال إنها عشرة أجزاء[٣٢]، ومنهم من ذكر أنها أكثر من عشرين جزءاً[٣٣]، وذكر الباقون أنها سبعة وعشرون جزءاً[٣٤]؛ ولعل مَرَدَّ هذا الاختلاف في عدد أجزائها إلى أن بعض المؤرخين قد رأوها قبل أن تكتمل.

ظهرت هذه الموسوعة في العصر المملوكي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وانتقل أحد أجزائها في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي من حلب إلى باريس، حيث بدأ بعضُ المستشرقين بترجمته ودراسته، إلى أن اكتشف العالم المصري أحمد زكي باشا في أوائل القرن الماضي نسختين في إستنبول تُؤلِّفان معًا نسخة كاملة للكتاب، ونشر المجلد الأول عام ١٣٤٣هـ / ١٩٢٣م[٣٥].

وفي حديثه عن قصة كشفه لهذا المخطوط يقول أحمد زكي: «ومع ذلك بقي المصريون[٣٦] محرومين وحدهم من بضاعة أجدادهم إلى أن وفقني الله لردها إليهم، بعد أن بذلتُ ما بذلتُ في هذا السبيل من التعب والعناء، فيما لا يقل عن ربع قرن من الزمان، اهتديت إلى مكامنه في دور الكتب بأمهات العواصم في ديار أوربة وفي خزائن المخطوطات بالقسطنطينية العظمى، لكن الجزء الأول بقي في حكم المفقود، فإن نسخته التي بخزانة أيا صوفيا ليست بذاك، ولقد تداركتني العناية فعثرت بطريق الصدفة على كتاب مدشوت[٣٧] في الأضابير المبعثرة بين الأوراق المتناثرة في أسافل الخزانات بسراب طوب قبو بالقسطنطينية، وكان هذا الكتاب بعنوان (مرآة الكائنات)، تصفحته قليلاً وإذا به الضالة المنشودة، نبهت (رشاد بك) أمين تلك الخزانة في عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م إلى هذه الدرة اليتيمة، وطلبت إليه إعادة العنوان إلى أصله، وإضافة الولد المفقود إلى أهله، ففعل، وحينئذ أسرعت فأخذت بالفوتوغرافية صورة عن الكتاب بأكمله - مع النسخة الأخرى من الجزء الأول التي بآيا صوفيا - وأحضرت الكل إلى القاهرة، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية، وليس يوجد في أي قطر آخر بالمشارق والمغارب نسخة كاملة مثل التي أعدتُها لمصر، وقد كان عند أجدادنا من هذا الكتاب ما لا يقلُّ عن عشرين نسخة كاملة، طوَّحَت بها أيدي الزمان إلى هنا وإلى هنا»[٣٨].

وكان في دار الكتب المصرية من هذا المخطوط حتى أواخر السبعينيات الأجزاء: الأول، ومن الجزء الخامس

(31) انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج1، ص 2 60-.
(32) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج8، ص 255.
(33) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ج10، ص185.
(34) انظر تاريخ ابن قاضي شهبة: ابن قاضي شهبه، مج2، ج3، ص 170، شذرات الذهب: ابن العماد، مج8، ص274.
(35) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط، آيا صوفيا، إستنبول، نشرة فؤاد سزكين التصويرية، ج1، المقدمة، ص 5.
(36) أستغرب هنا ادعاء زكي أن موسوعة مسالك الأبصار مصرية، مع علمه بأن العمري دمشقي المولد والوفاة، ومع كل ذلك فهي ملك للأمة العربية الإسلامية، ولم يكتبها العمري للمصريين أو الشاميين !!.
(37) أي مدفون.
(38) مقدمة كتاب مسالك الأبصار للعمري: الأرض وسكان الأرض.

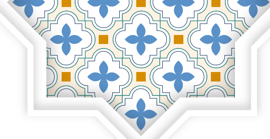
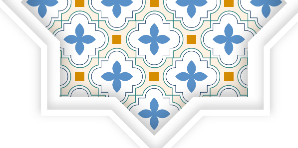


العمري يتحدث عن كروية الأرض في مخطوطه مسالك الأبصار

إلى الجزء العاشر، والجزء الخامس عشر[٣٩]. وهناك مجلدات منفردة ومتناثرة في مكتبات دول العالم؛ في كل من السعودية ومصر والمغرب وتونس وتركيا وبريطانيا وفرنسا[٤٠].

وعلى الرغم من أن الكثير من أجزاء المخطوط متناثر هنا وهناك إلا أنها لم تكمّل نسخة كاملة من الكتاب الذي يقع في سبعة وعشرين جزءاً كما ذكرناه، وفيما يتعلق بالنسخة الكاملة في إستنبول فإنها ليست إلّا أجزاء مُلفّقة مُجمّعة من نسخ مختلفة[٤١].

(39) معجم المؤرخين الدمشقيين: المنجد صلاح الدين، ص 177.
(40) انظر عن أماكن هذا المخطوط: تاريخ الأدب العربي: بروكلمان، ج6، ص 593 - 594. فهرس مخطوطات جامعة الرياض: الحجي صالح، ج1، ص 56. فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية إلى عام 1368هـ / 1949م.
(41) انظر مقدمة كتاب مسالك الأبصار للعمري، تح دوريتيا، ص 69.

وهذا كله يجعل من الصعوبة بمكان الحصول على نسختين من مصدرين مختلفين لموضوع أو جزء واحد من هذا المخطوط، وهذا يدل على الجهد الكبير والفضل العظيم الذي قام به الأستاذ فؤاد سزكين بتجميع نسخة كاملة منه من مصادر مختلفة.

ثالثاً _ مختارات مهمة من كتابات العمري:

جاءت كتابات ابن فضل الله العمري غاية في الأهمية، وأمام ضيق المساحة ليس أمامنا إلا أن نقتطف مختارات نادرة من كتاباته، وهي كما يأتي.

١_ حديث العمري عن كروية الأرض:

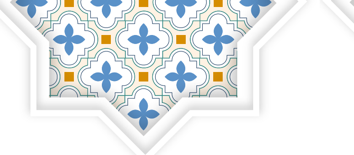
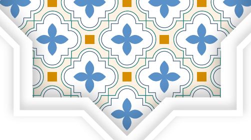
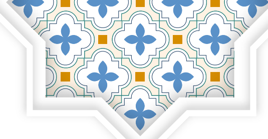
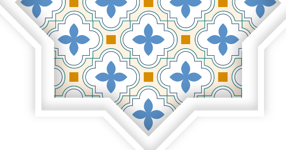
جاء في موسوعة العمري (مسالك الأبصار) ما نصه: «الذي نبدأ بعون الله وقدرته في القول في هذا الفصل، وما قام عليه البرهان: وهو أن العالَمَ كرةٌ، ويدل عليه المشاهدة بالعيان لمن رعى الشمس من مطلعها إلى مغيبها، وكذلك النجوم من مشارقها إلى مغاربها، لأنها تطلع حتى تتوسَّط السماءَ (تقويساً)، فعلم بالضرورة أنها تقطع في الغيبوبة نصف دائرة، نظير ما قطعت في الظهور ليكمل (تمام الدائرة). والذي تلخص من أقوال العلم والنظر في الهيئة[٤٢] أن العالَمَ كرةٌ، الأرضُ مركزُها والماء محيط بها لا يفارقها، فالأرض في جوف الماء، والماء في جوف الهواء، والهواء في جوف الفلك، كالمحة في جوف البيضة في النشر»[٤٣].

وذكر العمري كروية الأرض أيضاً عن طريق علماء آخرين، ومنهم أبو الثناء الأصفهاني: إذ ورد في الصفحات (٢٣ و٣١) من الجزء الثالث من مسالك الأبصار ما نصه: «قال شيخنا فريد الدهر، وارث العلم والحكمة، شمسُ الدين أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الأصفهاني، أطال الله مدته وأمتع به: لا أمنع أن يكون (ما انكشف) منكشفاً عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً في الجهة الأخرى، وإذ لم أمنع أن يكون منكشفاً في تلك الجهة، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا، أو من أنواع وأجناس أخرى، والذي ظهر لنا من ذلك عقلاً ونقلاً ذكرناه وبالله التوفيق»[٤٤].

٢ – العمري يتحدث عن اكتشاف أمريكا عن طريق رحلة سلطان دولة مالي:

جاءت أخبار رحلة سلطان دولة مالي الأفريقية الإسلامية أبي بكر الثاني إلى هذا الجزء من الكرة الأرضية الأكثر إثارة من رحلة كولومبوس في مجلة (العلم والحياة) الفرنسية، والتي ذكرت أن أبا بكر انطلق في عام ٧١١ هـ / ١٣١١م، في رحلة بحرية لعبور الأطلنطي على رأس أسطول تجاري كبير ليصل في نهاية رحلته إلى هيسبا نيولا (إسبانية الصغيرة) التي تُعرف اليوم باسم كوبا، وزاد الأمرَ تأكيداً ما جاء عن كولومبوس نفسه أنه علم من السكان الأصليين هناك – عند سؤاله عن الذهب الذي وجده بين أيديهم – بأنهم كانوا يتاجرون مع السود الذين باعوا لهم رؤوس حراب تتألف من (١٨) قيراطاً من الذهب، وستة أقراط من الفضة، وثمانية أقراط من النحاس، وهي النسبة الكيميائية التي كان الماليون يستخدمونها[٤٥].

(42) أي علم الفلك.
(43) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري، نشرة سزكين، ج1، ص12، 13.
(44) انظر مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري، نشرة سزكين، ج3.
(45) انظر دور العرب في اكتشاف العالم الجديد: فهمي مقبل، ص58. الكشوف الجغرافية: محمود شاكر، ص52.



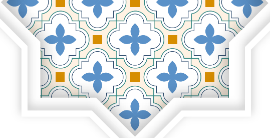
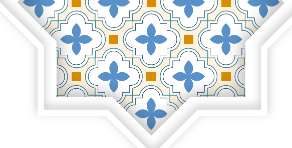
ذكر العمري لحادثة السلطان موسى والرحلة إلى أمريكا في مخطوطه مسالك الأبصار

ولحسن الحظ فإن من علمائنا الأقدمين مَن وثَّق هذه الرحلة، ومنهم العمري والقلقشندي الذي كان العمري مصدره في ذلك، إذ جاء في موسوعتيهما: (مسالك الأبصار) و(صبح الأعشى) عند ذكرهما ملوك مملكة مالي في السودان الغربي أنه تولى منهم الملك منسي موسى بن أبي بكر، ثم يذكران: «قال ابن أمير حاجب: سألته عن سبب انتقال الـمُلك إليه؟ فقال: إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تُدرَك، فجهّز مئين السفن، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمر مَن فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزوادهم، فغابوا مدَّة طويلة، ثم عاد منهم سفينة واحدة، وحضر مُقدَّمها، فسأله عن أمرهم؟ فقال: سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر وسط اللُّجة واد له جريةٌ عظيمة، فابتلع تلك المراكب، وكنتُ آخر القوم فرجعتُ بسفينتي. فلم يُصدِّقه، فجهّز ألفي سفينة، ألفاً للرجال وألفاً للأزواد، واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك، فكان آخر العهد به وبمن معه»[٤٦].

وقال العمري في مسالك الأبصار: «حكي ابنُ أمير حاجب أنه فتح بسيفه أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع».

وقال أيضاً: «حكى ابن أمير حاجب: سألت السلطان (منسي موسى) عن انتقال الملك إليه، فقال: إن الذي كان ملكاً قبلي وهو (محمد بن قو)؛ كان يظن أن البحر المحيط له غاية تُدرَك ... فجهّز مئين

(46) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري، ج4، ص43. صبح الأعشى: القلقشندي، ج5، ص283.

السفن، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمر مَن فيها ... ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته، أو تنفذ أزوادهم ... فغابوا مدة طويلة، ثم عادت منهم سفينة واحدة، وحضر مُقدَّمُها فسأله الملك عن أمرهم فقال: سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر وسط اللجنة واد له جريةٌ عظيمة، فابتلع تلك المراكب، وكنتُ آخرَ القوم فرجعتُ بسفينتي. فلم يُصدِّقه الملكُ، فجهَّز (السلطان محمد بن قو) ألفي سفينة، ألفاً للرجال، وألفاً للأزواد، واستخلفني على الملك، وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك فكان آخر العهد به وبمن معه».

فإن صحَّت هذه الرواية - ولا يوجد دليل على كذبها - يكون العرب المسلمون قد حاولوا اكتشاف القارة الجديدة مرتين، أولاهما عندما أبحر أبناء العم المغرورون من لشبونة موغلين في البحر المحيط الأطلسي(٤٧)، وأخراهما على يد هذا الملك الذي حاول هذا الأمر مرتين، وذهب في سبيله شهيداً. والله أعلم بمصيره.

وكان حجَّ السلطان منسي موسى في سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م، فلو فرضنا أن رحلة السلطان محمد بن قو لاكتشاف أمريكة، أي معرفة نهاية المحيط الأطلسي، كانت في سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م، ولما كانت رحلة كريستوف كولومبوس «لاكتشاف طريق غربي يُوصل إلى الهند» عبر المحيط الأطلسي في سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م، فيكون للعرب المسلمين فضل السبق بنحو قرنين أو ١٩٢ عاماً(٤٨).

_ الخاتمة:

مما يدلنا على عظمة عالمنا العمريِّ توجُّه أنظار المختصِّين إلى دراسة وتحقيق موسوعته مسالك الأبصار، التي سموها بـ (الكنزَ المدفون)، ووجدوها موسوعة جغرافية تاريخية بيوغرافية، كما وجدت الدراسات الحديثة التي جرت إلى الآن فيها معيناً لا ينضب للجغرافية البشرية والتاريخية.

وقد اطلعتُ شخصياً على النسخ المحقَّقة من أجزاء مسالك الأبصار (وهي قليلة تبعاً لأهمية هذا الكتاب) فكان كل محقق يُنبِّه إلى أهمية هذه الموسوعة، ويحثُّ في الوقت نفسه على بذل الجهد من أجل تحقيق هذا الكتاب الضخم بأكمله، ويطلب من الهيئات والدول أن توجه وتعمل عملها فيما يخصُّ هذا الموضوع، حتى إنَّ العالم المصري أحمد زكي باشا عزم على تحقيق هذه الموسوعة كاملة وعاهد نفسه على ذلك، لكنه لم يُنجِز إلا الجزء الأول منها، وتوقَّف بعد ذلك مُشيراً أن تحقيقها يحتاج إلى عشرات العلماء.

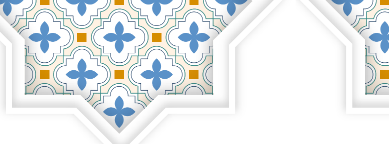
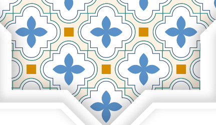
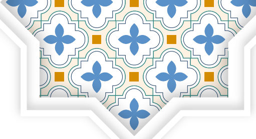
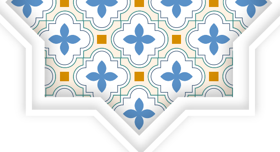
كما أني قرأتُ عن الاهتمام العربي والأوربي والشرقي بهذا المخطوط المهمِّ في السنوات الأخيرة، وهذا كله يشكل دعوة صريحة لتكوين مجموعة عمل من جانب الهيئات العلمية، أو دور النشر المهتمة بالتراث العربي والإسلامي، لتحقيق هذا الكتاب تحقيقاً علميًّا رصيناً لتعمَّ به الفائدة(٤٩).

وهذا الاهتمام الشرقي والغربي بهذه الموسوعة يدلُّ على براعة العمري ومصداقيته، لذلك أرجو أن أكون

(47) وهي الرواية التي قدمها لنا الإدريسي، إذ ذكر قصة مغامرين مخاطرين شجعان سمَّاهم (الشباب المغرَّرين)؛ وهم عصبة من الشباب تتألَّف من ثمانية رجال، كلهم أبناء عم من مدينة لشبونة. انظر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله، ج2، ص548، 549.

(48) انظر مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري، ج4، ص43. اكتشاف العرب أمريكة قبل كريستوف كولومبوس: صبري فريد البديوي، ص49.

٤٩ () تم تحقيق موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار كاملة، لكن هذا التحقيق لم يكن على المستوى العلمي والمنهجي المطلوب.



قد وُفقت بتقديم دراسة لشخصيته الموسوعية الفذة، ومن كافة جوانبها، لا سيما أنني لم أقف على ترجمة وافية للعمري في المراجع الحديثة، وهذا ما دفعني إلى أن أُعوِّض ذلك في هذا البحث.

ـ مصادر البحث ومراجعه:

- المصادر:

ـ الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس محمد بن أحمد، تح: محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٢م.

ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: ابن تغري بردي يوسف، تح محمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

ـ كشف الظنون: حاجي خليفة مصطفى القسطنطيني، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢م.

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر أحمد بن علي، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦م.

ـ أعيان العصر وأعوان النصر: الصفدي صلاح الدين خليل، تح علي أبو زيد وآخرين، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م.

ـ الوافي بالوفيات: الصفدي، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م.

ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري أحمد بن يحيى، مخطوط، آيا صوفيا، إستنبول، مكتبة السليمانية، نشرة فؤاد سزكين التصويرية، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية.

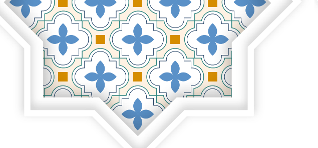
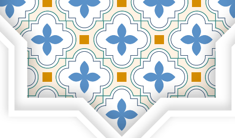
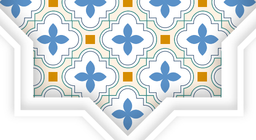
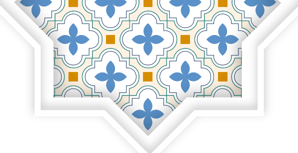
ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري، تح: أيمن فؤاد سيد، قطعة منه بعنوان: ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٥م.

ـ مسالك الأبصار: العمري، قطعة منه عن السيرة النبوية، تح محمد عيسى الحريري، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٧ .

ـ مسالك الأبصار: العمري، تح: أحمد زكي باشا، قطعة منه بعنوان: الأرض وسكان الأرض، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م.

ـ مسالك الأبصار: العمري، قطعة منه بعنوان: «مملكة مصر والشام والحجاز»، تح دوريتا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٦م.

ـ مسالك الأبصار: العمري، قطعة منه بعنوان: ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تح أيمن فؤاد

سيد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٥م.

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد عبد الحي أحمد، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م.

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي أحمد بن علي، تح محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م.

ـ طبقات الشافعية: ابن قاضي شهبه أبو بكر بن أحمد، تح: عبد العليم خان، بيروت، دار الندوة، ١٩٨٧م.

ـ تاريخ ابن قاضي شهبة: ابن قاضي شهبه، تح: عدنان درويش، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٤م.

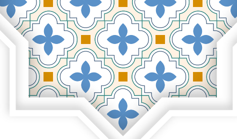
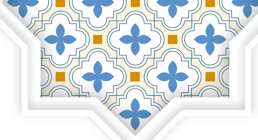
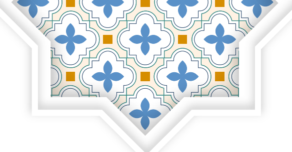
ـ فوات الوفيات: الكتبي محمد بن شاكر، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

ـ البداية والنهاية: ابن كثير إسماعيل بن عمر، وثقه محمد معوض وغيره، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م.

ـ الخطط المقريزية: المقريزي أحمد بن علي، بيروت، دار صادر.

ـ نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري أحمد بن عبد الوهاب، تح د. الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢.

ـ مباهج الفكر ومناهج العبر: الوطواط محمد بن إبراهيم، تح: عبد الرزاق الحربي، الدار العربية للموسوعات.

ـ تتمة المختصر في أخبار البشر: ابن الوردي زين الدين عمر، تح أحمد البدراوي، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٩٧٠م.

- المراجع:

ـ اكتشاف العرب أمريكة قبل كريستوف كولومبوس: البديوي صبري فريد، دار الآثار للطباعة، ط١، ١٩٦٧م.

ـ تاريخ الأدب العربي: بروكلمان كارل، تر عبد الحليم النجار وغيره، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ فهرس مخطوطات جامعة الرياض: الحجي صالح، ١٩٧٥م.

ـ المراجع العربية: الخريمي مسعود بن عبد الله، الرياض، دار عالم الكتب، ط٢، ١٩٩٧م.

ـ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي: رزق سليم محمود، مكتبة الآداب.

ـ الأعلام: الزركلي خير الدين، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٢، ١٩٩٧م.

ـ الكشوف الجغرافية: شاكر محمود، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م.

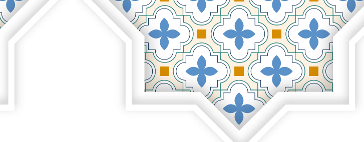
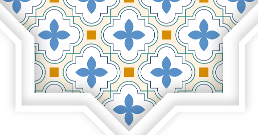
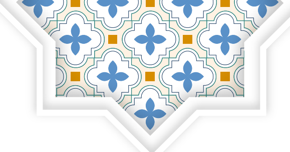
ـ فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية إلى عام ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م، مطبعة الأزهر، ١٩٤٩م.

ـ دور العرب في اكتشاف العالم الجديد: مقبل فهمي، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م.

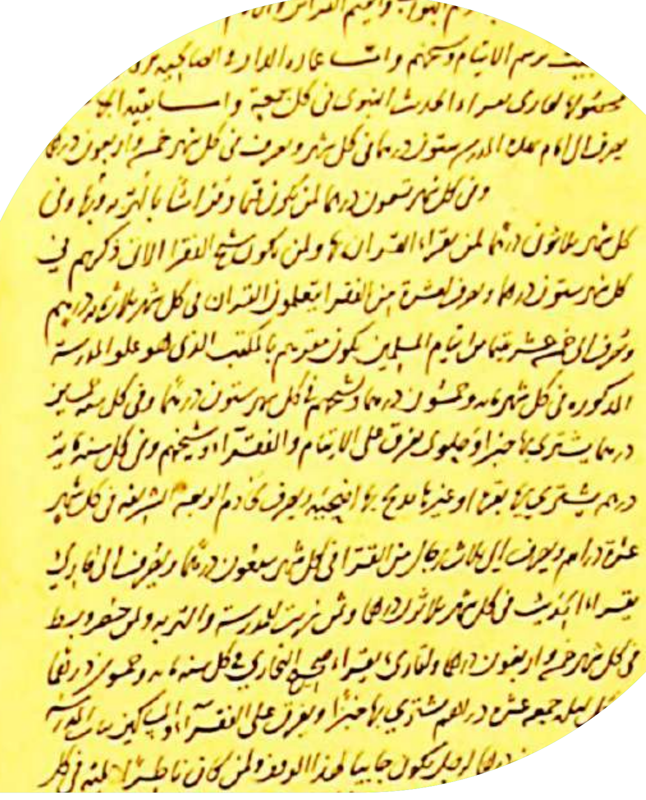
ـ معجم المؤرخين الدمشقيين: المنجد صلاح الدين، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٩٧٨م.

_ Ahistory Of Arabic Literature; Hurt (Clement), Beirut, 1966.

,London, Oxfored.) H.A.R(_ Arabic Literature; Gibb

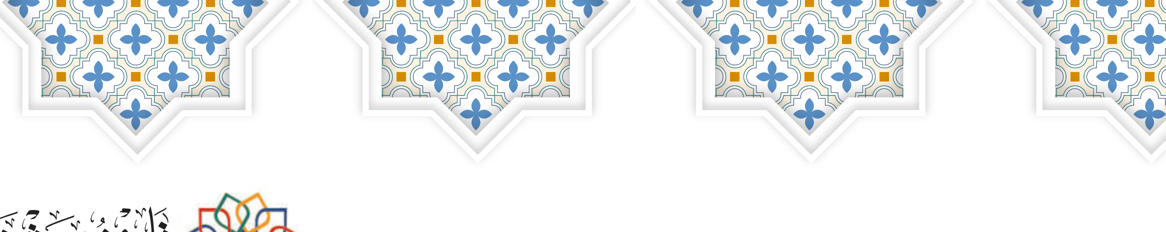




Endowment on education services in Damascus

In the era of the Mamluks

Dr. Asma Khaled Moaz

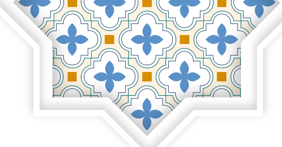
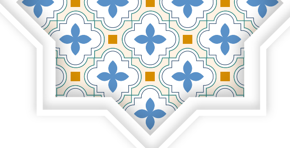




الوقف على خدمات التعليم بدمشق في عصر المماليك

د. أسماء خالد معاذ(١)

(1) دكتوراه في التاريخ العربي الإسلامي من جامعة دمشق، مهندسة معمارية وخبيرة أوقاف في وزارة الأوقاف.


ملخص البحث

قدَّم الوقفُ خدمات كثيرة للعلم والعلماء، إضافةً لدوره الأساسي في إنشاء المؤسسات الوقفية التعليمية، وتلك الخدماتُ منها ما يتعلّق بالمباني الوقفية نفسها، كإيصال الماء وتأمين الإنارة لها، والقيام بأعمال الترميم المستمرّة، وفرش المباني حسب متطلبات العصر، وقد خُصص لذلك وقفٌ ثابتٌ، ومنها ما يتعلّق بالعلماء والطلاب بشكل شخصي، كالسكن والرواتب، وتقديم الطعام والملابس واللوازم الدراسية من كتب وأقلام وغيرها، كل هذا كان مساهمة في العملية التعليمية، وتكافل المجتمع، وإعمار المدينة، وإكمال مرافقها والحفاظ عليها.

مقدمة:

تعد الأوقاف وتاريخها ومسيرتها من روائع مدينة دمشق، وخاصة في عصر المماليك، إذ كثرت الأوقاف على التعليم في ذلك العصر، فبُنيت عشرات المدارس، وتنافس التجار والأمراء ونواب السلطنة وغيرهم في بنائها وتخصيص أكبر قدر من الموارد لها، واجتذبت دمشقُ والقاهرة العلماءَ والطلاب، ليجدوا كلَّ ما يحتاجونه من العناية والسكن وسُبُل العيش مُتاحًا لهم، وهذا مكَّنَهم من التفرُّغ للعلم والاشتغال فيه، ونتج عن ذلك نهضة علمية كبيرة.

وقد خُصِّص هذا البحث لعرض نماذج من الخدمات التي قُدِّمت للمدارس الموقوفة وللعلماء والطلبة في ذلك العصر، والتي تؤكد رغبة الواقفين في نجاح العملية التعليمية واستمرارها بشكل دائم، وذلك بتخصيص وقف ثابت يضمن لها موارد مستقرّة.

والخدمات التي يُقدِّمها الوقف منها ما يتعلق بالأبنية، ومنها ما هو متعلق بالعلماء والطّلاب، بشكل شخصي، يُقدَّم لكل فرد منهم.

أولاً- الخدمات المتعلقة بالأبنية:

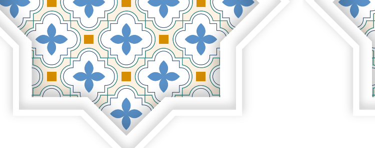
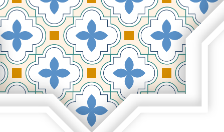
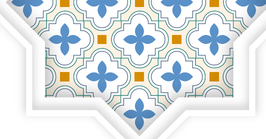
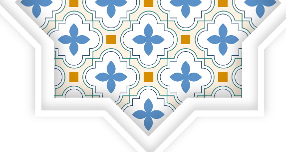
وتعني الخدمات التي تُوجَّه للعناية بالمؤسسة التعليمية، وتضمن لها البقاء والاستمرار في أداء وظيفتها التعليمية، ومنها:

١_ وقف الماء:

يُعدُ الماء أساسيًّا في جميع المباني ومنها التعليمية لأغراض الشرب والوضوء والنظافة، ولذلك تفنَّن الواقفون في أنواع الخدمات التي تُساعد على توفير المياه لمنشآتهم، فأسهمت الأوقاف بحفر آبار جديدة، أو شق قنوات وجداول مائية لتيسير الحصول على الماء، وكان الهدف تحقيق المنفعة للطلبة والأساتذة في المؤسسات التعليمية، من أهم أنواع الوقف على المياه التي وردت في الوثائق الوقفية والمصادر:

أ- وقف إجراء الماء:

ويُقصد به إيصال الماء إلى منطقة أو منشأة معينة، ومن الملاحظ أن الوقف كان له دور كبير في إيصال الماء إلى الكثير من مناطق المدينة والمشاركة في تنشيطها عمرانيّاً، وقد ذُكر في المصادر أنه



«في العشر الأول من شوال جرى الماء بالنهر الكريمي، الذي اشتراه كريم الدين(٢) بخمسة وأربعين ألفاً، وأجراه في جدول إلى جامعه(٣) بالقبيبات(٤)، فعاش به الناس، وحصل به أنس إلى أهل تلك الناحية، ونُصبت عليه الأشجار والبساتين، وعَملَ حوضاً كبير تجاه الجامع من الغرب يَشرب منه الناس والدواب، وهو حوض كبير، وعَمل مطهرة، وحصل بذلك نفع كثير ورفق زائد، أثابه اللّٰه(٥)».

يتبيَّن من هذا الوصف كيف كان هذا الوقف سبباً في انتفاع الناس، بل في إنعاش منطقة كاملة، ولا شك أن وجود الماء يشكل جذباً للسكان، وانتعاشاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية، فقد تم تأمين مياه الشرب للناس والدواب في المنطقة، وبدأت معالم المنطقة تتوضَّح.

تتمة وقف خانقاه جقمق

وكذلك جامع البزوري(٦) بعد توسعته، حيث أُوصلت قناة الماء إلى المسجد، وجُعلت لوضوء المصلين، واستفاد الناس منها كثيراً(٧).

ومن أمثلة وقف إجراء الماء، التي ذكرتها الوثائق، وقفُ القنوات، فقد وقف إسماعيل بن إبراهيم بن قرا (٨)وقفاً، تضمَّن في شروطه أن الناظر في كل سنة يصرف من محصول الوقف المذكور (٥٠) درهماً لعمارة القناة التي أنشأها عمُّ الواقف، وفي كل سنة (١٦) درهماً لثمن دلو وسلب(٩) برسم بئر

(2) القاضي كريم الدين بن عبد الكريم بن هبة الله، ترقَّى في عهد الملك الناصر حتى أصبح الرجل الثالث بالدولة بعد السلطان ونائبه في الشام تنكز، ثم غضب عليه الناصر وصادره، توفي سنة 724هـ/ 1324م. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، ج3 ص 203206.

(3) يقع بالميدان ويُعرف بجامع الدقاق. خطط دمشق: أكرم العلبي، ص326.

(4) حي القبيبات: التسمية القديمة لحي الميدان الفوقاني، ورد ذكرها في العصر المملوكي، وسُمِّي الحي بذلك نسبة الى بيوته التي كانت سقوفها مُقبَّبة الشكل. معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج4 ص308.

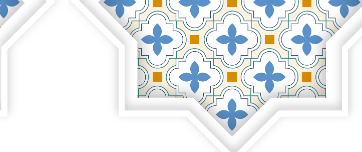
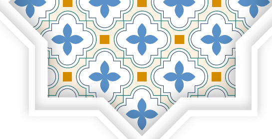
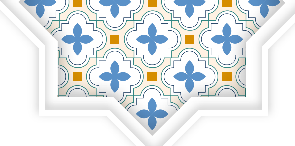
(5) البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير، ج14 ص97.

(6) جامع البزوري: في قبر عاتكة، يُظن أن بانيه محفوظ بن معتوق البزوري البغدادي، توفي سنة (694هـ/1294م). ذيل ثمار المقاصد: أسعد طلس ثمار المقاصد، ص197.

(7) مفاكهة الخلان: ابن طولون، ص 91.

(8) بنو قرا: أسرة من حي الميدان وكان لبعضهم أوقاف وزاوية بها. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج2ص54.

(9) السلب هو الحبل. تكملة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، ج6 ص113.


المُصلَّى(١٠)، تاريخ الوقفية سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)(١١). ومن الواضح أن الوقفيات لم تُهمل حتى مخصصات للدلو والحبل الذي يساعد على استخراج الماء.

ب- وقف الآبار:

تُستعمل الآبار في حال انقطاع الماء عن القنوات في فصل الصيف (١٢)، وكثيراً ما كان يوجد بئر في المسجد أو المدرسة، وتعد جزءاً من الوقف، ومن أمثلة ذلك ما جاء في وصف المسجد الذي في دار الحديث الضيائية (١٣): «ولهذا المسجد شباكان مطلان على صفّة(١٤) بها بئر ماء»(١٥)، فالبئر يقع في الصفّة التي يُطلُّ عليها المسجد، وكذلك ورد في وصف العديد من الأبنية الوقفية وجود بئر، ومن ذلك ماجاء في وصفَ المدرسة اليغمورية(١٦): «بشرقيها وغربيها إيوانان(١٧) لطيفان، بالشرقي بئر ماء ينتفع الناس به أيام انقطاع الأنهار(١٨).» وهذا يدل أن الواقفين كانوا يحفرون الآبار في المدرسة وغيرها، ويجعلونها لنفع عامة الناس.

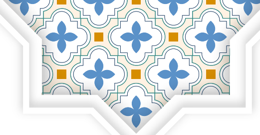
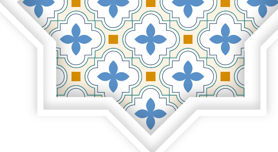
جـ- وقف تخزين الماء:

كان تأمين المياه لبعض المنشآت يتم عن طريق الصهاريج الخاصة بهذه المنشأة، والصهريج هو خزان يُبنى لحفظ المياه، ويُملأ عن طريق تسريب الماء له من عين ماء قريبة، أو قناة أو عن طريق صب الماء الذي يَجلبه بالقُرَب عامل مُخصَّص، ويُؤخذ الماء من الصهاريج الخاصة بواسطة فتحة في سقف الصهريج ، ويُبنى عادةً من الآجر أو الحجر، ويُطلى بمادة مقاومة للرطوبة كالكلس المعالج، وقد يكون سقفُه مغطَّى بقبة(١٩)، وقد خَصَّصت بعضُ الوقفيات مالاً لشراء الماء الذي يُملأ في الصهاريج، ففي كتاب وقف تربة أركماس، الذي كان نائب دمشق بين عامي٩١٠- ٩١١هـ/ ١٥٠٥-١٥٠٤م، تحديد عدة أراض وأملاك موقوفة، ثم ذكر عدة مصارف للوقف، منها أن يُصرف ثمن ماء يُصبُّ في الصهريج في التربة(٢٠).

د- وقف سبل الماء:

أما السُّبُل فإن وجودها يعد جزءاً مهمّاً الخدمات التي تُقدَّم للمنطقة، وفي العصر المملوكي ومع تطور فن العمارة تطورَّ شكلُ السُّبُل، وتميَّزت حسب أعمال النحت الحجري وشكل القوس وارتفاع السبيل،

(10) المصلى في ميدان الحصى، وكانت تُقام به صلاة العيدين، بدأ بإنشائه الملك العادل سيف الدين بن أيوب سنة (606هـ/1209م)، ولم يتهيأ له وقف، وتمت عمارته سنة (613هـ/1216م). الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج2ص324.
(11) الأرشيف العثماني: سجل أوقاف الشام، ص 261.
(12) سبل المياه في مدينة دمشق القديمة: عبد الرحمن النعسان، ص26.
(13) تقع بسفح قاسيون بانيها الفقيه الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي أحد أعلام الحنابلة ت 643هـ / 1246م. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج2ص71.
(14) الصفة هي موضع مظلل من المسجد. المعجم الوسيط: أحمد الزيات وآخرون، ج1ص517.
(15) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1ص164.
(16) تقع بالصالحية، تُنسب إلى جمال الدين بن يغمور البارومي ت 663هـ / 1265م، ولد بالصعيد وكان من أعيان الأمراء ولي نيابة مصر ونيابة دمشق. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج1ص223.
(17) الإيوان أو الليوان: كلمة فارسية معربة مأخوذة من إيفان، وتعني لغوياً قاعة العرش، ومنه إيوان كسرى، ويمثل في العمارة المملوكية وحدة معمارية مربعة أو مستطيلة الشكل لها ثلاث حوائط من ثلاث جهات والجهة الرابعة مفتوحة، وغالباً على واجهة الإيوان عقد. المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، محمد أمين، ص 17.
(18) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1ص215.
(19) المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، محمد أمين، ص 73.
(20) – سجل أوقاف الشام: ص86.


والعناية بالزخارف[٢١]، ومن سُبُل العصر المملوكي سبيل دار القرآن الصابونية[٢٢]، وقد أنشأ الواقف دار قرآن وتربة وسبيل[٢٣]، وسبيل المدرسة الشاذبكية[٢٤]، ويوجد في الواجهة الشرقية منها،[٢٥] وكانت هذه السبل تؤدِّي خدمة الشرب لعابري السبيل، وتُعَدُّ جزءاً من مرافق المدينة.

ولم يكتف الواقفون بإيصال الماء إلى مدارسهم، بل حرص بعضُهم على أن يحصل عليه الطلاب ساخناً في أيام الشتاء، ففي المدرسة العمرية ورد في نص الوقف: "ومن وقفها مسقاة[٢٦] لها أباريق للوضوء، وسخانة[٢٧] يُسخَّن فيها الماء في سائر الشتاء والبرد للاغتسال، ثم صار يَغتسل فيها غالب أهل الصالحية[٢٨].

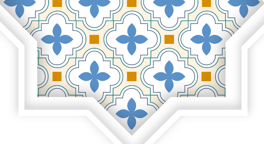
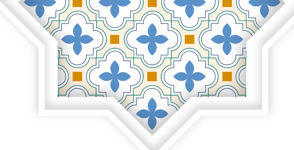
وهذا دليل على حرص الواقفين على أن تتمَّ العملية التعليمية على أكمل وجه، ويعمَّ نفعها المجتمع أيضاً.

هـ - وقف على المهن المتعلقة بالماء:

من الملاحظ أن كتب الوقف قد خصَّصت أجوراً للمهن التي تتعلق بوقف المياه خاصة، ومن هذه المهن مهنة الشاوي، وهو عامل مهمته الحفاظ على توزيع المياه بالأيام المختصة لكل صاحب حق، يسوق المياه، ويحافظ على القنوات نظيفة من الأوساخ وورق الشجر حتى لا تدخل القساطلَ وتفسدها، ويأخذ الشاوي أجرة سنوية، ويُعرف بالقنواتي أيضاً.[٢٩] ومن

وقف دار القرآن الاسعردية

(21) سبل المياه في دمشق القديمة: النعسان، ص42 43.
(22) خارج دمشق قبليّ باب الجابية، وبها جامع وتربة الواقف وأخيه وذريتهما، أنشأها شهاب الدين أحمد بن علم الدين سليمان بن محمد البكري الدمشقي المعروف بالصابوني. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج1ص11.
(23) – ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد: أسعد طلس، ص216.
(24) تقع بالقنوات، بناها شاذبك الجلباني أتابك دمشق، توفي سنة 887هـ /1482م. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوي، ج3ص290.
(25) ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد: أسعد طلس، ص231.
(26) مسقاة بالفتح موضع الشرب، وهو بالكسر آلة الشرب، وما يتخذ للجرار والكيزان تعلق عليه.: لسان العرب: جمال الدين ابن منظور، ج14ص391.
(27) شبه إبريق من النحاس لتسخين الماء به. تكملة المعاجم العربية: دوزي، ج6 ص47.
(28) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1ص 266 268.
(29) قاموس الصناعات الشامية: ظافر القاسمي وآخرون ، ج2 ص 49 ،250 ، 364.



وقفيات المباني التي ذُكر فيها الشاوي: وقف مسجد القصب[٣٠]، فقد خُصِّص للشاوي (١٠) عشرة دراهم[٣١]، وفي المدرسة الظاهرية[٣٢]: خَصَّص الواقفُ أجراً للشاوي، ولإصلاح القنى وغير ذلك مما تحتاج إليه.[٣٣]

وهذا يدل أن هذا العامل كان يتناول أجره عن طريق الوقف، وهذا يُسهم في العناية بالقنوات في المدينة ومنع انسدادها.

هذا وهناك أبنية أخرى متعلقة بالماء كدور الوضوء والحمامات، فقد ذكر ابن جبير وجود (١٠٠) حمام، وأربعين داراً للوضوء في دمشق[٣٤]، أما بالنسبة لدور الوضوء فالمقصود بها حجرات بها دار خلاء وموضَّأ، وقد كانت غالباً منفصلة عن المساجد، ولكن تقع قريباً منه[٣٥].

ويدل وقف الماء على حرص الواقفين على تقديم الخدمات لأبنيتهم، وتزويدها بأهم الوسائل التي تضمن قيامها بوظيفتها، ومن الملاحظ أن هذا الوقف لم يكن مقتصراً على المباني نفسها، بل عمَّت فائدتُه الأحياء والطرق العامة التي يقع فيها ذلك المبنى، فأحياناً كانت هناك أحياء جديدة تفتقر إلى الماء، فكان شقُّ القنوات وإيصال الماء إليها كفيلاً بتنشيط الحي بأكمله، كما حدث في الجامع الكريمي، بالإضافة إلى اعتناء الوقف بتنظيف القنوات، كما ساعد الوقف في حفر الآبار وتخزين الماء واستخراجه، وكانت السقايات والسبل على أبواب المدارس تخدم المارة في الأحياء.

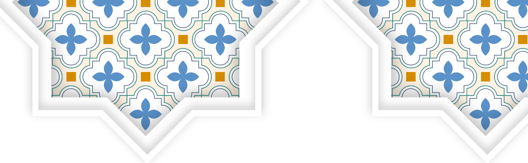
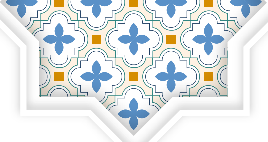
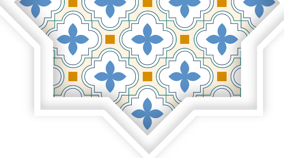
٢-وقف الإنارة:

من الأمور التي لابد منها لاستمرار العملية التعليمية إنارة المؤسسات التابعة لها، وذلك ليستطيع الطلاب إتمام تحصيلهم العلمي، واستذكار ما حصّلوه خلال النهار، بالإضافة إلى تأدية الشعائر الدينية الليلية، وقد حرص الواقفون على تزويد المؤسسات بما يلزم عملية الإنارة في ذلك الوقت، وخصَّصوا لها أوقافاً معينة، ومن أهم ما جرى وقفُه هو الزيت اللازم لإيقاد الأسرجة، وكذلك الشمع والقناديل وغيرها، وهو ما ورد ذكره بكثرة في وثائق الوقف، ومن ذلك:

أ-وقف الزيت:

يُعَدُ الزيت أساسيّاً في إيقاد الأسرجة التي تُنير المدارس والمساجد والمنازل، والسراج هو مصبَاحُ زيت مُكوَّنٌ منْ إناء في وَسَطه فتيلة تضيء في السراج مادام فيه زيت[٣٦]، والأسرجة تكون من الخزف أو المعدن مع فتيل للاَشتعال مَن شعبة أو شعبتين[٣٧].

(30) يقع الجامع خارج باب السلام، كان جامعاً صغيراً، وقد جدد بشكل كامل سنة 811 هـ/ 1408مـ على يد الأمير ناصر الدين محمد إبراهيم بن منجك. النعيمي: الدارس، ج 2ص331.
(31) – سجل أوقاف الشام: تاريخ الوقفية 832هـ /1429م، ص9.
(32) في دمشق شمالي الجامع الأموي، بناها السلطان بركة خان ودَفن بها والدَه الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام، الذي حكم بين عامي (658هـ/1260م676هـ/1277م). ؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج 1ص264.
(33) سجل أوقاف الشام، ص 175176.
(34) رحلة ابن جبير، ص 261.
(35) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماة رحلة ابن بطوطة، ج4ص315.
(36) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ج2 ص1053.
(37) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، محمد أمين، ص 169.

وقف اسمعيل بن ابرهيم بن قرا على نفسه ومن شرطه ان يصرف من له
النظر في ذلك في كل سنة من محصول الوقف المذكور خمسون درهما
لعمارة القناة التي انشاها عم الواقف وفي كل سنة اربعماية درهم
يشتري بها خبزا ولحما يطبخ طعاما بتربة الواقف في راس القبيبات
تفرق على الحاج عند قدومه لدمشق وفي كل سنة اربع عشر درهما
يشتري بها زيتا يوقد في ليالي شهر رمضان المبارك بمصلى العيدين وفي
كل سنة ست عشر درهما لثمن دلو وسلب بيبر المصلى وما فضل بعد
ذلك على الواقف ثم على اولاده وانساله واعقابهم وبعد الانقراض
يصرف في سماط الحاج المذكور اعلاه بتربة الواقف في تاريخ الوقفية
في سنة خمس وثمانين وثمانماية

وقف اسماعيل بن قرا

وكان الزيت يُوقف إما بتحديد الواقف لكمية معينة للمؤسسة، كما جاء في وقف المدرسة الشاذبكية، فقد حدد الواقف في كل سنة ما يكفي لشراء ٤٢ رطلاً[٣٨]، أو عن طريق تحديد مبلغ من المال لشراء الزيت، ومن ذلك وقف جامع منجك بدمشق، فقد حدد الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سيف الدين منجك،[٣٩] (ت٨٤٤ هـ/١٤٤٠م)، في وقفه على جامع منجك[٤٠]، ثمن زيت للجامع في كل شهر ٤٥ درهماً.[٤١] ومن وقف دار القرآن الإسعردية بدمشق: ثمن زيت للمدرسة والتربة مع ثمن حصر وبسط في كل شهر ٤٥ درهماً.[٤٢]

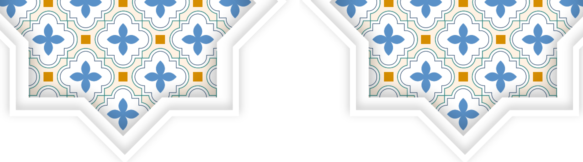
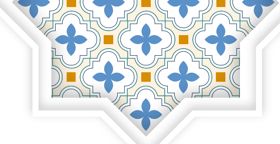
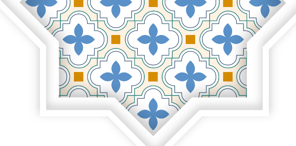
ب-وقف الشمع:

كانت مجالس الخلفاء وليالي المساجد الكبيرة فقط هي التي تُضاء بالشموع، لأنها تكلف أضعاف الأسرجة والقناديل، غير أن استخدام الشمع انتشر وزاد بعد ذلك بعد أن كثرت وتنوَّعت صناعته، وكثر استيراده، ووُضعت الشموع على حوامل هي الشمعدانات، التي أصبحت تُصنع من الحديد والنحاس والذهب والفضة، وتفنَّن الحرفيون في صناعتها، وصار للشمع أسواق خاصة[٤٣]. وزُيِّنت بعض المدارس بالشمعدانات، ولكنها كانت غالباً تُخصَّص للجوامع الكبيرة، ومن ذلك وقف جامع منجك الذي خُصِّص له (٤٠) درهماً للشمع .[٤٤] وورد في الوقف على المدرسة الظاهرية بدمشق «**ويُشترى** في كل شهر شمع وزيت»[٤٥] .

جـ- وقف القناديل:

القنديل هو مصباح فيه فتيل يُضاء بالزيت، وله زجاج شفّاف يُوضع حول الفتيل لحفظ نار المصباح من هبات الهواء[٤٦]، وبسبب تكاليفها المرتفعة نوعاً ما، كانت خاصة بدور العبادة، والقصور

(38) سجل أوقاف الشام، ص 66 67. والرطل وحدة قياس أوزان وهي تختلف من بلد لآخر، ورطل بلاد الشام حوالي 1.85 كغ. المكاييل والأوزان الإسلامية، هنتس، ص33.
(39) حفيد سيف الدين منجك الأمير الكبير، نائب دمشق، وكان ناصر الدين من أمراء دمشق، وصحب المؤيد شيخ عندما كان نائب الشام، فلما تسلطن المؤيد أنعم عليه بتقدمة بدمشق وبإقطاع في مصر، ودفن في تربته قرب جامعه في الميدان. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: السخاوي، ج6ص281.
(40) في آخر ميدان الحصى عند جسر كان يقال له جسر الفجل. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج 2ص342.
(41) سجل أوقاف الشام، ص132.
(42) سجل أوقاف الشام، ص235.
(43) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: تقي الدين المقريزي، ج 3 ص175.
(44) سجل أوقاف الشام، ص132.
(45) تاريخ الملك الظاهر: عز الدين ابن شداد، ص228.
(46) البعد الوظيفي في دراسة الفنون التطبيقية الإسلامية، عبد الستار عثمان، مجلة (شدت)، ص 101.

والقاعات الكبيرة، وقد تطورت صناعة القناديل فأصبحت من الفضة ومن الذهب، وجعلت سلاسلها التي تُعلّق بها من مختلف المعادن بما فيها الفضة والذهب.(٤٧) وقام الواقفون بتزويد الأماكن التعليمية بهذه القناديل، ومنها المدرسة **الفارسية**(٤٨)، فقد زودها الواقف بـ (٦) قناديل، تُعلَّق على التربة وعلى شباك التربة وباب المسجد، وهذا يدل أن الواقف قد يُحدِّد موقع هذه القناديل، التي كان بعضُها يُوضع أحياناً على أبواب بعض المباني، لاسيما الترب والمساجد، مما يضيء السبيل خارجها للعابرين، بالإضافة إلى أنه دليل على أهمية وتميز المكان، وحدد واقف المدرسة السيبائية٤٩ ثمن قناديل (١٠٠) درهم(٥٠).

- الوقف على الإنارة في مناسبات وأماكن مخصوصة:

ارتبطت الأفراح والمناسبات عموماً، والدينية خصوصاً، بإيقاد الأضواء والشموع والمشاعل والقناديل والأنوار والثريّات، تعبيراً عن الفرح، ولأن هذه المناسبات تحتاج إلى الأضواء ولا سيما ليلاً، وقد حرص الناس على زيادة الإنارة بمختلف أنواعها في المناسبات، فخَصَّص الواقفون لهذه المناسبات أوقافاً إضافية، ففي جامع منجك حدد الواقف في موسم رجب ثمن زيت للجامع في كل شهر (٤٥) درهماً، وزيادة في شهر رمضان (١٠٠) درهم وشمع (٤٠) درهمًا،(٥١) **وفي المدرسة الشاذبكية**: خصَّص الواقف رطلي شمع يُوقد في صلاة التراويح، وثمن شمع برسم قراءة صحيح البخاري عُقيب صلاة الصبح.٥٢

كما قد تُخصَّص الإنارة لقراءة وتدريس كتاب معين، فقد رتَّب واقف دار القرآن الدلامية(٥٣) للشمع لقراءة البخاري والتراويح ١٠٠درهم.(٥٤)

وغالباً كان الذي يقوم بإشعال القناديل هو القيِّم المسؤول عن المكان، وأحياناً يكون هناك شخص مُخصَّص لهذا العمل، ففي المدرسة السيبائية شعّال القناديل له (٦٠) درهماً في كل شهر.٥٥

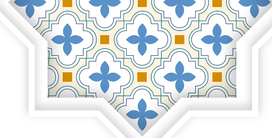
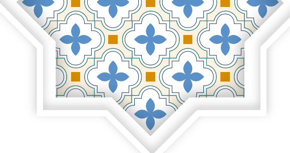
تدل هذه الأوقاف على اهتمام الواقفين بالعملية التعليمية، عن طريق إنارة المدارس والمساجد وغيرها من المؤسسات التعليمية.

كما تُقدِّم فائدة عامة لأحياء المدينة، بإنارة الأحياء بالقناديل المعلقة على بعض أبوابها ومناراتها.

٣ -وقف فرش الأبنية التعليمية:

كان الفرش المتعارف عليه في المدارس والمساجد هو الحصر والبسط والسجاد، وهي من

(47) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر: محمد أمين، ص 169.
(48) جنوب الجامع الجامع الأموي، واقفها الأمير سيف الدين فارس الدوادار في سنة 808هـ /1405م. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج1ص324.
(49) تقع المدرسة خارج باب الجابية، والواقف هو سيباي بن بختجا، آخر نواب الشام المماليك، قُتل في مرج دابق سنة (922هـ/1516م). إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى: شمس الدين ابن طولون، ص296.
(50) سجل أوقاف الشام، ص57 59.
(51) سجل أوقاف الشام، ص132.
(52) سجل أوقاف الشام، ص 66 67.
(53) تقع بدمشق بالجسر الأبيض، أنشأها التاجر زين الدين دلامة البصري عام 847هـ /1443م. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج1 ص8.
(54) الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج 1 ص9.
(55) سجل أوقاف الشام، ص57 59.

الأمور التي لا بد منها في المباني، وذلك لأنها كانت تُستخدم للجلوس والصلاة والتدفئة في الشتاء، وكانت تُفرش بها قاعات الدراسة والغرف الخاصة بالطلاب والمدرسين، وكان الحصير يُستعمل صيفاً، والبساط والسجاد شتاء.

وقد ورد ذكر هذه الاحتياجات في الوقف على المدارس وغيرها، ومنها المدرسة الفارسية، فقد جاء في الوقف: «بعد أجر إصلاح وترميم التربة، وأجر الناظر، يُصرَف مبلغ الوقف فيما تحتاج إليه التربة من فرش وحصر وبسط».[٥٦]

وقد تكون مُخصَّصة للمُتعبِّدين أو الطلاب، إذ كان من وقف المدرسة العمرية[٥٧] حصر لبيوت المجاورين كل سنة.[(٥٨)]

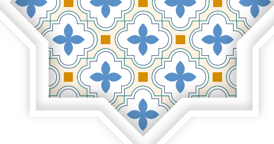
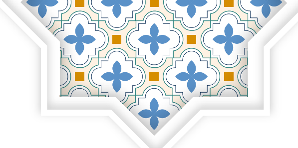
وفي دار القرآن الإسعردية: خُصص ٤٥ درهماً ثمن حصر وبسط[(٥٩)]، وكذلك في المدرسة الشاذبكية، حيث ذكر الواقف تحديد ثمن حصر وبسط وغير ذلك،[٦٠] ومن الملاحظ أن هذه المبالغ مُخصَّصة بشكل دائم كوقف، لاستبدال الفرش والحصر والسجاد في حال تلفها.

٤- وقف الترميم: من أهم ما يُمكن أن يُقدَّم من خدمات للمبنى هو خدمة الترميم، لأنها ضمان لاستمرار عمله، وعدم تهاوي جدرانه وسقوطها مع الزمن، وقد خصَّص الواقفون مبالغَ لترميم المباني بشكل شهري أحياناً، فقد جاء في وقف الظاهرية: «يُصرف في كل شهر (٣٠) درهماً ثمن زيت وحصر ومصابيح وترميم»[(٦١)]، وفي وقف المدرسة الفارسية ورد وقف لترميم التربة التي في المدرسة[(٦٢)].

وهذا دليل على حرص الواقفين على سلامة المباني، ورغبتهم في استمرار وظيفتها، وتعهُّدهم إياها بالعناية، وهذا يمثل جزءاً من الحفاظ على عمران المدينة والمساهمة في استمراريته.

وقف جامع منجك

(56) سجل أوقاف الشام، ص175176.
(57) في الصالحية، بناها أبو عمر المقدسي محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت607هـ/1210م)، وأصبحت من أهم وأكبر مدارس دمشق. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج2ص78.
(58) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1ص 266 268.
(59) سجل أوقاف الشام، ص235.
(60) سجل أوقاف الشام، ص 66 67.
(61) سجل أوقاف الشام، ص 175176.
(62) سجل أوقاف الشام، ص 175176؛


ومن الملاحظ أن جميع الخدمات المُقدَّمة للمباني تُفيد العلماء وطلاب العلم، وتُقدِّم لهم الراحة، وتُيسِّر لهم سبل التعلم، وفي الوقت نفسه تتجاوز منفعتها المدارس، لتخدم أحياء المدينة وسكانها .

ثانياً: الخدمات المتعلقة بالمدرسين والطلاب:

بالإضافة إلى ما تؤمنه معظم المدارس الموقوفة للطلاب والمعلمين من سكن ورواتب تضمن لهم معيشة كريمة، وتضمن تفرُغهم للتعليم وطلب العلم، فقد قدَّمت الأوقاف خدمات إضافية أخرى، تدل على اعتناء الواقفين براحتهم وتأمين معظم احتياجاتهم، فحدَّدوا لهذه الخدمات مُخصَّصاتٍ في نصوص الوقف ومنها :

١-السكن: إن أهم الخدمات التي قدَّمها الوقف للطلاب والعلماء هو تأمين السكن، فقد يأتي بعض هؤلاء من مدينة أخرى ولا مأوى له، فيجد في المؤسَّسات مكاناً يستقرُ فيه، وكان من شروط بعض الواقفين أن يسكن المدرّسُ بالمدرسة، كواقف الركنية البرانية[٦٣]، وعندما أتى الإمام النووي[٦٤] (ت ٦٧٦هـ /١٢٧٧م) إلى دمشق لطلب العلم سكن المدرسة الرواحية .[٦٥]

٢-وقف رواتب العلماء والطلاب: تكفَّلت المدارس بتأمين رواتب تضمن للطلاب والمدرسين معيشة كريمة ، فكان أجر مدرس الظاهرية (١٥٠) درهماً[٦٦]، أما أجر مدرّس المدرسة الفارسية فهو(٨٠) درهماً[٦٧]، وأجر مدرس السيبائية (٣٠٠) درهماً[٦٨]، ويعد راتب المدرس راتباً مرتفعاً، ومستوى معيشة المدرس يعد مريحاً، وأسهم مثل هذا الراتب المرتفع في إعطاء هيبة لمنصب المدرس، وكذلك للموظفين والطلاب في المدارس[٦٩].

٣-وقف الكتب: حرص الواقفون على إلحاق خزائن للكتب بالمدارس وأماكن التعليم، ليرجع إليها المدرسون والطلاب، ويستعينوا بها في البحث والدراسة، وكانت تُزوَّد بقاعات للقراءة، وتكون الخزائن عادة مقسمة إلى رفوف مقطعة بحواجز، وتضمُ كلُ خزانة منها تخصُصاً معيَّناً، ويُلصق على باب كل خزانة ورقة تُوضِّح محتوياتها(٧٠)، وقد أُنشئ الكثير من خزائن الكتب في العصر الأيوبي، واستمرَّ الوقف عليها في العصر المملوكي، ومنها مكتبة دار الحديث النورية(٧١)، التي أوقف فيها البرزالي(٧٢)

(63) بالصالحية، مُنشئُها الأمير ركن الدين منكورس غلام فلك الدين أخي الملك العادل لأمه حوالي سنة 620هـ/ 1223م. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج 1ص 398.
(64) يحيى بن شرف النووي، علامة بالفقه والحديث، صاحب الأربعين النووية، مولده ووفاته في نوى (من قرى حوران، بسورية). طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، ج8ص395.
(65) شمال شرقي الجامع الأموي، بانيها زكي الدين أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة (ت622هـ /1225م). الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج1 ص202.
(66) سجل أوقاف الشام، ص 175176؛
(67) سجل أوقاف الشام، ص 175176؛
(68) سجل أوقاف الشام، ص57 59.
(69) The Endowment of the Zahiriyya in Damascus, GARY Leiser, p49.
(70) زبيدة عطا: مكتبات المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي ، ص219.
(71) بناها الملك العادل نور الدين محمود بسوق العصرونية من الجانب القبلي (ت 569هـ / 1173م). الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج 1ص74.
(72) علم الدين البرزالي الإشبيلي ثم الدمشقي، محدث مؤرخ. أصله من إشبيلية، ومولده بدمشق ألف كتابا في " التاريخ " جعله صلة لتاريخ أبي شامة.



(ت ٧٣٩/ ١٣٣٨م) كتبه(٧٣)، وخزانة دار الحديث الأشرفية وغيرها(٧٤). وورد في نصوص الوقف أنه كان في المدرسة السيبائية راتبٌ مخصَّص لمباشر خزن كتب، وهو (١٥٠) درهماً(٧٥).

وقد يسَّرت هذه المكتبات سبلَ وصول العلم والاطلاع إلى الطلبة والعلماء.

٤- وقف الطعام: كان وقف بعض الأطعمة الأساسية من الأوقاف التي ذُكرت في نصوص الوقف، وقُصد بها كفاية المدرسين والطلاب، وتأمين احتياجاتهم اليومية، لتفريغهم لطلب العلم، ومن ذلك:

وقف المدرسة الظاهرية

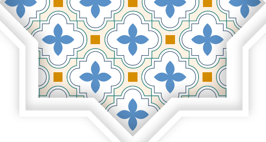
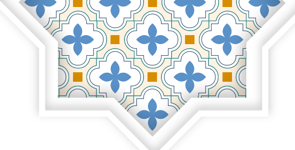
أ-وقف الخبز: ورد ضمن وقف المدرسة الظاهرية وقف للخبز بحصص محدَّدة، فقد خَصَّص لكل مدرس رطلين خبزاً، ولكل واحد من المعيدين الأربعة رطلاً من الخبز، ولكل إمام من الأئمة الثلاثة رطلاً واحد، ولكل واحد من الخادمين بالتربة والفقهاء والمؤدبين والفراشين والبوابين في كل يوم من الخبز ثلثا رطل(٧٦).

وفي المدرسة الشاذبكية كان يُصرف في كل جمعة ١٧ رطلاً من الخبز للأيتام والفقراء(٧٧).

أما المدرسة العمرية: فكان فيها وقف خبز يُفرَّق كل يوم أكثر من أي مدرسة أخرى، إذ يُفرَّق فيها كل يوم ألف رغيف أو نحو ذلك(٧٨).

وفي الخانقاه الجقمقية(٧٩): حُدِّدت كمية الخبز المستهلكة بالخانقاه يومياً، وهي (١٥) رطلاً،

(73) البداية والنهاية: ابن كثير، ج 18 ص413.
(74) دار الحديث الأشرفية جوار باب القلعة الشرقي بناها الأشرف موسى بن العادل افتتحت عام 630هـ/1233م. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج 1ص15.
(75) سجل أوقاف الشام، ص59.
(76) تاريخ الملك الظاهر: ابن شداد، ص229.
(77) سجل أوقاف الشام، ص 66 67.
(78) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1ص 266 268.
(79) أورد المؤرخون أن المدرسة الجقمقية بها تربة، وتجاهها من الشمال خانقاهها يفصل بينهما الطريق، واقفها الأمير جقمق، تولى نيابة دمشق سنة (822ه/1419م)، وقُتل بعد سنتين. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج 1 ص375.


تُوزَّع على شيخ الخانقاه، وشيخ الأيتام، وقيِّم التربة والخانقاه، وبوّاب التربة والخانقاه، وخادم التربة، وإمام التربة، ولكل صوفي مقيم بالخانقاه، ولكل يتيم داخل الخانقاه[٨٠].

ب- وقف اللحم: كانت بعض المؤسسات تقوم بتوزيع اللحم أيضاً، ففي الخانقاه الجقمقية: خَصَّص الواقف في كل يوم (٣) أرطال من اللحم، كي توزع في الخانقاه[٨١].

كما خُصَّت المناسباتُ الدينية بإنفاق معين، ففي **المدرسة الفارسية** يشتري المسؤول عن الوقف في عيد الأضحى ثلاثة رؤوس غنم بـ(٩٠) درهماً، يعطي لمعلم الأيتام واحداً، وينحر اثنين للتوزيع[٨٢].

وفي العمرية **وقف لشراء الغنم**؛ إذ يشترى بستة آلاف درهم غنماً للطعام في رمضان، **وفي ليلة العيد**؛ يطبخ لهذه المدرسة ثلاثة أطعمة: هريسة[٨٣] ورز حلو وطعام حامض، ولها أضحية في العيد، وتُعطى كلَّ مَن هو مُنزَل بها، وكان يُطبخ لها جشيشة[٨٤] في الشتاء.[٨٥]

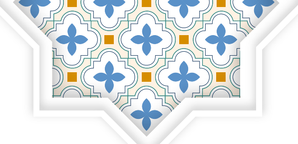
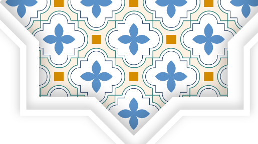
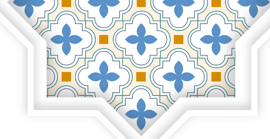
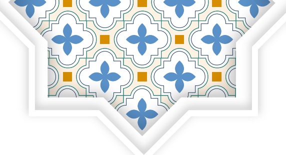
جـ - وقف الحلوى: لم ينسَ الواقفون تخصيص حلوى معينة للطلاب وأساتذتهم زيادة في العناية بهم، ففي المدرسة الفارسية حدَّد الواقف في رجب وشعبان ثمنَ خمسة أرطال حلوى جوزية وغيره، يُفرَّق ذلك على الأيتام العشرة في المدرسة وشيخهم، مع رطلين مع الجردق.[٨٦]

وفي الخانقاه الجقمقية، يُوزَّع في كل شهر (٣٥) رطلاً من العسل، وطحين الحنطة، وزيت السيرج لطبخ الحلوى الأعجمية.[٨٧]

وفي المدرسة **العمرية** وقف لحلوى في موسم رجب، وحلوى في نصف شعبان، وحلوى دهنية في كل شهر، ولها وقف زبيب وقضامة كل ليلة جمعة، ولها وقف مشبك[٨٨] بعسل في ليلة العشرين من رمضان، وأُخّر إلى ليلة سبع وعشرين منه، وكنافة ليلة العشر الأول منه، ثم أُخِّرت إلى ليلة النصف منه.[٨٩] ويلاحظ أن الواقف حدَّد نوع الحلوى الموقوفة في مؤسسته، وهذا يدل على مدى دقة النصوص الوقفية، وتدخل الواقف في التفصيلات، والرغبة في الاعتناء بطلاب العلم.

٥- وقف الملابس: من الأمور التي اهتم بها الواقفون أيضاً، والتي تُحقِّق الكفاية للموقوف عليهم، وتعتبر من أساسيات الحياة، وقفُ الملابس، فقد خصَّص الواقفون للطلاب والأساتذة وقفاً خاصّاً، وذلك بشكل سنوي أو في المناسبات، ليبدو الجميع في مظهر لائق، ومن خلال النصوص الوقفية

(80) سجل أوقاف الشام، ص 179180.
(81) سجل أوقاف الشام، ص 179180.
(82) سجل أوقاف الشام، ص 174 175.
(83) طعام يطبخ من القمح المدقوق واللحم.: معجم اللغة العربية المعاصرة، عمر، ج3 ص2343.
(84) دشيشة ويقال لها جريشة، والراجح أنها حساء بجريش القمح، والدشيشة تكون باللحم والقمح. القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1 ص267؛ معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد أحمد دهمان، ص 75.
(85) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1ص 266 268.
(86) نوع من حلوى الفطائر الرقيقة تُصنع من دقيق القمح، ويُوضع عليها الدبس. تكملة المعاجم العربية: دوزي، ج2ص183. سجل أوقاف الشام، ص 175176.
(87) سجل أوقاف الشام، ص 179180.
(88) نوع من الحلوى على هيئة أنابيب متشابكة. المعجم الوسيط: أحمد الزيات وآخرون، ج1ص471.
(89) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1ص 266 268.



يمكن التعرف على أنواع مختلفة من الملابس كانت تستعمل في ذلك العصر من كساء الجسم وأغطية الرأس والأحذية، **ففي المدرسة الفارسية :** لكل يتيم في أول فصل الصيف في كل سنة ملوطة(٩٠) قطنية وقميص وسروال ومنديل ومتاع.(٩١) وفي أول فصل الشتاء لكل يتيم فروة(٩٢) بـ (١٥) درهماً(٩٣).

وفي **المدرسة العمرية** وقف على قمصان وفراء وأبشات (٩٤) كل سنة، لكل نزيل فيها .(٩٥)

وكان في المدرسة الشاذبكية: لكل يتيم ، في كل عيد، ثمن قميص قطن وجبة قطنية وطاقية ومنديل ومتاع(٩٦)، **أما في جامع منجك:** فيُصرف في كل عام عند العيد من الفائض لكل من الأيتام ملوطة صالحي وقميص قطن وطاقية ومشاية.(٩٧)

وفي الخانقاه الجقمقية يُشترى في كل فصل شتاء لكل يتيم قميص وجبة وفروة وطاقية ومشاية، ويُشترى في كل فصل صيف لكل يتيم قميص وجبة وطاقية ومشاية(٩٨).

إن وقف الطعام والملابس يدلُّ على رغبة الواقف في كفاية العلماء والطلاب، والإحسان إليهم، وتفريغ أذهانهم، ليقوموا بالمهمة المطلوبة منهم وهي طلب العلم.

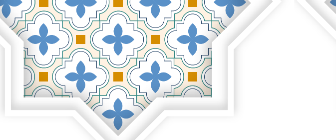
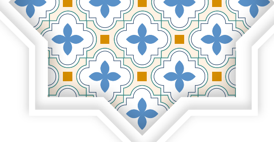
٦- وقف أدوات الكتابة: ومن الأوقاف المتعلقة بالعملية التعليمية، التي لا بدَّ منها لطلاب العلم، وقف أدوات الكتابة والحبر وغيرها .

وقف خانقاه جقمق

ففي المدرسة الفارسية خصَّص الواقفُ في كل شهر (٤) دراهم ثمن دواة وألواح وأقلام وغيره(٩٩).

وفي مكتب الأيتام في جامع منجك: خصَّص الواقف ثمن حبر وألواح وأقلام. وهذه المواد تُوزَّع على

(90) ملوطة. هو رداء واسع طويل يُصنع من الحرير أو الكتان الرقيق، ويكون بشكل ثوب ملتف. معجم الألفاظ التاريخية: دهمان، ص144
(91) متاع: من متعة المرأة، وهو قميص وإزار وملحفة. المعجم العربي لأسماء الملابس: عبد الجواد إبراهيم، ص461.
(92) فروة: كلمة فارسية معربة معناها الإزار ويكون عليه وبر أو صوف، ومنها أنواع كثيرة. المعجم العربي لأسماء الملابس، عبد الجواد إبراهيم، ص356.
(93) سجل أوقاف الشام، ص 175176.
(94) البشت عباءة واسعة، وأيضاً نسيج من صوف أسمر، أي بلون الصوف الطبيعي، يُتَّخذ منه لباس للفلاحين والنساء. تكملة المعاجم العربية: دوزي، ج 1 ص347.
(95) القلائد الجوهرية: ابن طولون، ج1 ص268.
(96) سجل أوقاف الشام، ص 66 67.
(97) هي النعال. تكملة المعاجم العربية: دوزي، ج 10 ص 73.
(98) سجل أوقاف الشام، ص 179180.
(99) سجل أوقاف الشام، ص 175176.



الطلاب والمدرسين[١٠٠].

وهكذا فإن المدرسين والطلاب يحصلون في المؤسسة التعليمية على مسكن، وراتب مناسب، وطعام، وربما ملابس وأدوات كتابة، وجميع الاحتياجات الأساسية في الحياة.

خاتمة:

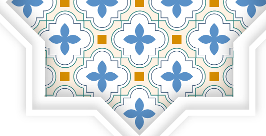
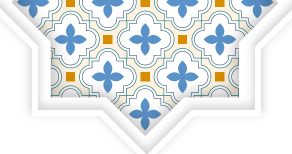
كل الأوقاف التي قُدِّمت في المؤسسات التعلمية تدل على العناية الشخصية بالطلاب والعلماء، وهناك أمور أخرى اعتنى بها الوقف، كاهتمامه بجودة التعليم، واختيار أفضل علماء العصر للتدريس في المدارس، وتعيين معيدين لمساعدتهم وتفهيمهم، والاعتناء بالناحية النفسية للطلاب، وقد ألف العلماء الكتب في ضرورة الاهتمام بالطلاب وتوجيههم، وكان جمال المباني وحسن عمارتها واختيار موقعها وجريان الماء فيها من أهم العوامل النفسية التي تساعد على تفتح الأذهان وصفائها واستعدادها لتلقي العلوم والمعارف.

لقد تبلورت فكرة تفرُّغ الأساتذة خلال القرنين ٦هـ/ ١٢م،٧هـ/١٣م من خلال المؤسسات الوقفية[١٠١]، وكان لها نتائج على الصعيد العلمي، فهذا التفرغ مع تأمين الاحتياجات جعلهم يمنحون وقتهم بكامله للتعليم، وقد صفا ذهنهم وتفرَّغوا للعطاء والتأليف، فظهرت المؤلفات العظيمة والموسوعات الضخمة.

كذلك دفع تأمين هذه الاحتياجات الطلاب إلى الاهتمام بالتحصيل العلمي وتفرُغهم له وتنافسهم في ذلك، فاندفعت عجلة الحركة العلمية إلى الأمام، ويُشير المؤرخون إلى أن الآلاف من أعضاء المجتمع من العلماء المبرزين في مختلف التخصُّصات كانوا غير قادرين على التفرغ لطلب العلم، ومكّنهم نظام الوقف من الوصول إلى أعلى المراتب العلمية بما أمّنه لهم من أساتذة ومؤسسات وكتب[١٠٢]. فساعد نظام الوقف على تحسين المستويات الاقتصادية والعلمية والثقافية لكثير من أفراد المجتمع[١٠٣]. ومن خلال نظام الوقف وُجدت وظائف جديدة أسهمت في القضاء على البطالة، وتوظيف عدد كبير من الأفراد، واحتاجت المؤسسات لشراء مواد استهلاكية بشكل دائم كالورق والحبر والشموع، فكان لذلك إسهام في تحريك السوق الاقتصادي، وكانت الرواتب مادية وعينية فزاد الطلب على سلع مهمة كالقمح وغيره مما يفيد التجار.

كما كان لهذه الخدمات نتائج على الصعيد العمراني، إذ ساهمت في تنوير المباني والطرق وإيصال المياه وشق القنوات وتخزين المياه والمساعدة على استخراجها، لقد كان للوقف دور كبير في المجتمع والعمران، وعلى أساسه قامت النهضة العلمية، وأسهم في رفد النهضة الاقتصادية وتحقيق التكافل الاجتماعي.

(100) سجل أوقاف الشام، ص132.
(101) Institutionalization of Muslim scholarship, Gilbert, p 126.
(102) أثر الوقف في إنجاز التنمية الشاملة: شوقي دنيا، ص 136.
(103) الآثار الاجتماعية للأوقاف: عبد الله السدحان، ص27.


ـ مصادر البحث ومراجعه:

المصادر:

– إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى: شمس الدين ابن طولون (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م): تح: محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٩٤٦م.

– البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) دمشق، دار الفكر،١٩٨٦م.

– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماة رحلة ابن بطوطة: محمد بن عبد الله، ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٨م) ، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م.

– ثمار المقاصد في ذكر المساجد، يوسف بن عبد الهادي (ت ٨٨٣هـ /١٤٧٨م)، تح أسعد طلس، بيروت، المعهد الفرنسي، ١٩٤٣م.

– الجامع لأحكام القرآن: شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م): تح: أحمد البردني، وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م.

– الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ /١٤٤٨م)، حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية،١٩٧٢م.

– رحلة ابن جبير: محمد بن أحمد بن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) بيروت، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

– سجل أوقاف الشام، الأرشيف العثماني، إستانبول.

– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، بيروت، دار مكتبة الحياة، ط١، د.ت.

– طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت: ٧٧١هـ/ ١٣٦٩مـ)، تح: محمود الطناجي، عبد الفتاح الحلو، القاهرة، دار هجر، ط٢، ١٩٩٣م.

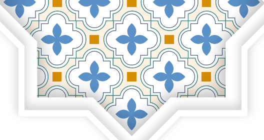
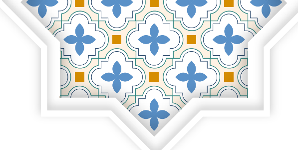
–عز الدين بن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ألمانيا، تح: أحمد حطيط فرانز شتاينر، ١٩٨٣م.

– القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، شمس الدين بن طولون (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، تح: محمد أحمد دهمان، دمشق، مجمع اللغة العربية، ط٢، ١٩٨٠م.

– لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ/١٣١٢م)، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٩٩٤م.

– معجم البلدان: ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م.

– مفاكهة الخلان في حوادث الزمان: شمس الدين بن طولون (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، تح: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.



– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي (تقي الدين، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

- المراجع العربية:

– الآثار الاجتماعية للأوقاف: عبد الله السدحان، ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

– أثر الوقف في إنجاز التنمية الشاملة: شوقي أحمد دنيا، الرياض، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة السادسة عشر، ١٤١٥هـ.

– الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر: محمد محمد أمين، القاهرة، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٠م.

– البعد الوظيفي في دراسة الفنون التطبيقية الإسلامية، دراسة حالة لمسرجة متعددة الأغراض والقناديل الزجاجية المملوكية: عبد الستار عثمان، مجلة (شدت)، كلية الآثار بجامعة الفيوم، العدد الثاني، ٢٠١٥م.

– خطط دمشق: أكرم العلبي، دمشق، دار الطباع،١٩٨٩ .

– سبل المياه في مدينة دمشق القديمة: عبد الرحمن النعسان، دمشق، المعهد الفرنسي لدراسات الشرق الأدنى، ٢٠٠٨م.

– قاموس الصناعات الشامية: ظافر القاسمي وآخرون، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٨م.

– المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية: محمد أمين، القاهرة، الجامعة الأمريكية، ١٩٩٠م،

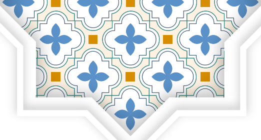
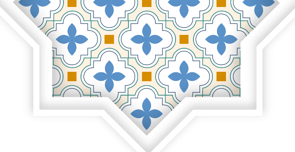
– معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد أحمد دهمان، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٠م.

– المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث: عبد الجواد إبراهيم، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٢م

– المعجم الوسيط، أحمد الزيات وآخرون، القاهرة، دار الدعوة، د.ت.

– معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر، د.م، عالم الكتب، ٢٠٠٨م.

– مكتبات المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي: زبيدة عطا، ندوة المدارس في مصر الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٥١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.


-المراجع المعربة:

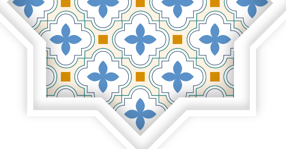
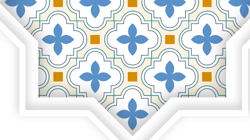
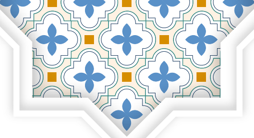
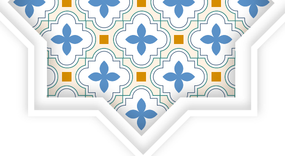
– تكملة المعاجم العربية، رينهارت دوزي، تر: محمَّد سَليم النعَيمي، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٧٩م.

– المكاييل والأوزان الإسلامية، فالتر هانتس، تر: كمل العسلي، الأردن، منشورات الجامعة الأردنية،د.ت.

المراجع الأجنبية:

- Gary Leiser: The Endowment of the Zahiriyya in Damascus, Journal of the Ecnomic and Social History of the Orient, V. XXVII, Part I, 1984.

- Joan Gilbert:» Institutionalization of Muslim scholarship and professionalization of the Ulama in medieval Damascus», Studia Islamica, No. 52 ,1980.





The Shamdin Agha family and its role in Damascus in the nineteenth century

Dr. Ali Salih Hamdan Hamed





أسرة شمدين آغا ودورها في دمشق في القرن التاسع عشر

أ. م د. علي صالح حمدان حامد(٦)

.

(1) قسم التاريخ _ كلية العلوم الانسانية، جامعة زاخو _ إقليم كردستان _ العراق.





ملخَّص البحث

شهد العديد من حواضر بلاد الشام هجرة كثير من الأسر الكردية إليها، كغيرها من شعوب المنطقة، وازدادت هجرة الأسر الكردية إليها مع إقامة فرسان الدولة الأيوبية الكرد في ضواحي مدينة دمشق لاحقًا، وكان أبرزها أحياء الصالحية وصاروجة، إلا أن الوجود الكردي ترسَّخ مع تأسيس الحي الكردي بدمشق أكثر فأكثر، لاسيما أنه ضمَّ في غالبيته الأسر الكردية التي قدمت من مختلف أرجاء كردستان إلى دمشق ولأسباب عديدة.

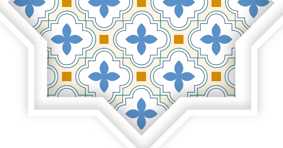
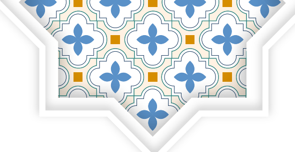
لقد أدَّى عدد من الأسر الكردية أدوارًا مهمة في دمشق على مختلف الأصعدة، ومن أبرزها أسرة شمدين آغا، التي تنحدر من مؤسسها شمدين آغا بن موسى الكردي، من أعيان دمشق البارزين، الذي عُرف عنه قيادته لفرسانه الكرد في أماكن عدة، ومشاركته بفعالية في الأحداث التي شهدتها دمشق ومحيطها في النصف الأول من القرن التاسع عشر، قُبيل وفاته في عام ١٨٦٠.

أعقب شمدين آغا عددًا من الأبناء الذين برزوا في مختلف المجالات، وواصلوا الإرث الكبير الذي خلَّفه لهم والدهم، وتصدَّر بعضهم ساحةَ الأحداث في دمشق طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لاسيما محمد سعيد نجل شمدين آغا، الذي تولى العديد من المناصب العسكرية والإدارية في بلاد الشام، وأهمها إمارة الحج، إلى جانب وظائف أخرى لا تقلُّ أهمية.

_ المقدمة:

أدَّت أسرةُ شمدين آغا _ وهي إحدى الأسر الكردية الدمشقية المهمة _ أدوارًا بارزة في دمشق ومحيطها، على مختلف الصعد، طوال القرن التاسع عشر، لاسيما مُؤسِّسها شمدين آغا بن موسى الكردي، الذي قاد العشرات من فرسانه الكرد الدمشقيين، وتمكَّن بخصاله القيادية، وأهمها الحزم والانضباط، من إخماد العديد من بُؤر الفوضى في ولاية دمشق وأطرافها، إلى جانب التصدي لدخول إبراهيم باشا إلى دمشق، فضلاً عن اعتزاله الأحداث الدموية التي عصفت بدمشق في عام ١٨٣١، وعند وفاته في عام ١٨٦٠، وكان قد ترك إرثًا من الهيبة والنفوذ بين مختلف مكونات المجتمع الدمشقي بصورة عامة، والمجتمع الكردي الدمشقي بصورة خاصة.

لم تقتصر أهمية هذه الأسرة على مؤسسها فحسب، بل إن عددًا من أبناء شمدين آغا برزوا بدورهم، لاسيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، منهم عبد الله آغا، وأخاه إسماعيل آغا، إلا إنه يمكن القول بأن دور نجله محمد سعيد باشا فاق دور إخوته الخمسة الآخرين، حيث كان قائدًا

محليًّا، يتمتَّع بالنفوذ والسلطة، كما تولَّى العديد من المناصب في الدولة العثمانية، تراوحت بين الوظائف العسكرية والإدارية على حدٍّ سواء، ومن أهمها توليه إمارة الحج في دمشق لأعوام عدة، قبل أن يُوَلِّيها لسبطه عبد الرحمن باشا اليوسف، سليل أسرة كردية دمشقية متنفذة أخرى.

يحاول البحث تتبع الظروف التي أسهمت في بروز دور هذه الأسرة في المجتمع الدمشقي، البعيد عن موطنها الأصلي في كردستان، إلى جانب رصد موقفها من مختلف التطورات التي شهدتها دمشق طوال القرن التاسع عشر، لاسيما تلك التي شهدت الاضطرابات والقلاقل، كما في أحداث عامي ١٨٣١، و١٨٦٠، إلى جانب أحداث أخرى لا تقل أهمية.

اعتمد البحث على المنهجين الوصفي والتحليلي للوصول إلى صورة واضحة لدور أسرة شمدين آغا في القرن التاسع عشر، عبر رصد التحولات المهمة التي شهدتها دمشق بصورة عامة، والمجتمع الكردي الدمشقي بصورة خاصة.

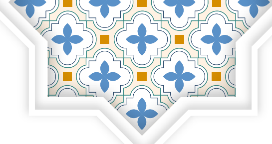
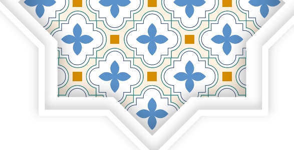


اللوحة التأسيسية لجامع محمد سعيد باشا

واستفاد البحث من المصادر المتنوعة، التي سدَّت الثغرات التي اعترت الكتابة عن تاريخ هذه الأسرة الدمشقية المهمة، ومن أهم المصادر كتاب ليندا شيشلر، المعنون بـ(دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)، الغني بمعلوماته الموثقة، إلى جانب الأبحاث والمقالات المنشورة هنا وهناك.

ـ تمهيد:

يعود استيطان الكرد في حواضر بلاد الشام إلى العصر الوسيط على الأغلب، إذ تذكر المصادر على سبيل المثال أنَّ صالح بن مرداس (١٠٢٤-١٠٢٩)، مؤسس الدولة المرداسية في حلب (١٠٢٤-١٠٧٩)،

عهد بحماية قلعة السفح إلى المقاتلين الكرد، فعُرفت بـ(حصن الأكراد) نسبة إليهم فيما بعد، فقد ورد في أحد المصادر ما يأتي:» أسكَنَ نصرُ بن مرداس، صاحبُ حمص، قومًا من الأكراد في عام اثنتين وعشرين وأربعمئة، فنُسب إليهم»(٢).

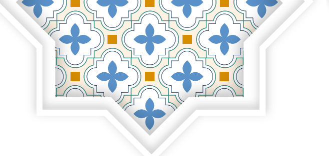
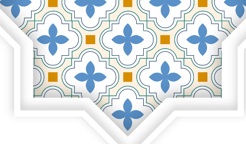
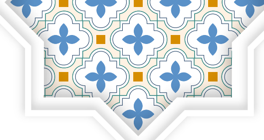
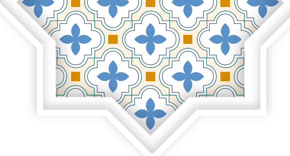
وأشار المؤرخ المعروف ابن الأثير إلى وجود الكرد في حواضر بلاد الشام في حقبة مبكرة بقوله:«سمع شرفُ الدولة صاحب حلب الخبرَ فخافه، فجمع أيضًا العرب من عقيل والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه كثير...» (٣).

يلاحظ أن أعداد المهاجرين الكرد إلى مدن بلاد الشام كان قد ازداد بصورة واضحة مع مرور الوقت، حتى إن مُؤرِّخًا حلبيًّا تحدث عن مجزرة مروعة حلَّت بالكرد في بلدة شيزر في محافظة حماة الحالية، بقوله:» سافر الأميرُ ناصر الدين المحبي من حلب بعسكر لتسكين فتنة ببلد شيزر بين العرب والأكراد، قُتل فيها من الأكراد نحو خمسِمئة نفس، ونهبت أموالٌ ودوابُّ»(٤).

استنادًا إلى ما سبق، يمكن القول إنَّ دمشق شهدت كغيرها من حواضر بلاد الشام توافُدَ الهجرات الكردية إليها طوال قرون، بدليل أن المدينة تزخر بالآثار التي بناها الأمراء والقادة من الأصول الكردية، ومنها جامع السادات المجاهدين، والذي يُنسب إلى الأمير مجاهد الدين بزان بن يامين الكردي الجلالي(٥)، وكذلك المدرسة الشافعية الواقعة جنوب غرب الجامع الأموي، وشمال المدرسة النورية الكبرى، والذي بُني في المدة (١١٣٤-١١٣٥) (٦)، وكان الأمير الكردي من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوفًا بالشجاعة والبسالة والسماحة، مثابرًا على بثِّ الصِّلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء(٧).

وفي ضوء ما تقدم، يُمكن الاستنتاج أنَّ الكرد كانوا قد بدؤوا بالتوافد إلى دمشق وغيرها حتى قبيل بروز دور السلطان صلاح الدين الأيوبي في القرن الثاني عشر بأعوام عديدة، إلا أنَّ كردستان شهدت أوسع هجرة باتجاه دمشق في عهد الأيوبيين لاحقًا، لاسيما عندما عسكر الجنود الأيوبيون الكرد مع أسرهم خارج سور المدينة بين الأعوام (١١٦٩-١٢٥٠)، وتمركزوا في موقع صاروجة الذي أسَّسه اثنان من القادة الكرد، وقد تم دفنهما هناك(٨)، بعدها هاجرت معظم الأسر الكردية من صاروجة إلى حي الصالحية عند سفح جبل قاسيون، حيث أشار أحد المؤرخين في معرض حديثه عن حي الصالحية الدمشقي بقوله: «الصالحية خارج دمشق الشام، في تل تحت جبل قاسيون، مقابل مقام الأربعين»(٩).

(2) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة: ابن شداد، ص 115. يقع حصن الأكراد في سهل البقيعة، يحده من الجنوب جبل عكار وجبل لبنان، حيث اشتُقَّ اسمُه من حامية كردية أقطعَها الموضعَ مع الحقول المجاورة الأميرُ شبلُ الدولة نصر، يوم كان الحصن ضعيفًا، ويُسمَّى حصنَ السفح، أقام هؤلاء الكرد فيه مع عائلاتهم، مقابل حماية الطريق الرئيسية التي تربط حمص بحماة وطرابلس، ينظر: حصن الأكراد: موريتز سوبرنهايم، عكار وحصن الأكراد.
(3) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي، ص 310.
(4) نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل الغزي، ص150.
(5) مديرية أوقاف دمشق، المعالم الدمشقية الأثرية، المساجد الأثرية، مسجد السادات المجاهدين.
(6) المدرسة المجاهدية الجوانية.
(7) الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، ص ص343-344.
(8) يقع حي صاروجة في مدينة دمشق القديمة، وكانت المدرسة الشامية البرانية أساسًا لإنشائه، حيث أخذ بالاتساع حولها تدريجيًا حتى اكتمل وأصبح له سوق خاص، ينظر: حي صاروجة تراث دمشقي.
(9) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: عبد الرزاق البيطار، ص ص1216 - 1256.

حيث أسَّس الكرد حيَّ الزينبية في البداية، ثم انتشروا بعدها في مناطق مجاورة من الحي الكردي، واستمرَّ تدفُّق الكرد إلى دمشق يومًا بعد يوم(١٠).

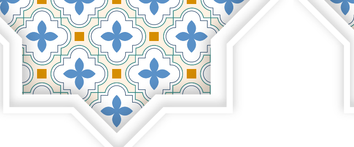
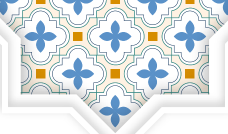
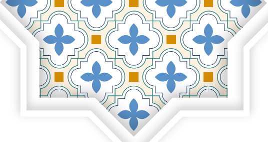
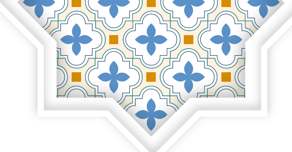
أعقبت تلك الموجةَ الكردية الواسعة إلى دمشق الموجاتُ المتتالية، لاسيما بعد سقوط عاصمة الخلافة العباسية، إثر اجتياح المغول للعالم الإسلامي، إذ ذكر ابن فضل الله العمري (١٣٠١-١٣٤٧) على سبيل المثال أنَّ قبيلتي اللوسه والبابيرية، الأكثر رجالًا ومالًا في نواحي شهرزور، رحلتا إلى الشام بعد خراب البلاد على يد المغول(١١)، كما استمرَّت الهجرات في العصور المملوكية والعثمانية وما تلاها دون انقطاع، وترسَّخ وجودهم على امتداد المسار الشمالي الغربي من قناة يزيد بن معاوية، من ساحة شمدين آغا الحالية حتى بئر التوتة، وتجاوزوا فيها منطقة العفيف وأشادوا بيوتهم من الطين والحجارة، وسقفوها بقباب من الطوب والآجر»(١٢).

أولًا _الحي الكردي في دمشق:

عُرفت دمشق على الدوام بأنها مدينة تعجُّ بالسكان الذين وفدوا إليها من المناطق البعيدة، ولوَّنوا نسيجها العمراني والاجتماعي والثقافي باستمرار(١٣)، ومن أبرز هؤلاء كان المهاجرون الكرد، الذين تركوا بصماتهم الواضحة في مختلف مناحي الحياة، حيث أُطلق اسم الحي الكردي على المنطقة التي استقرَّ فيها المهاجرون الكرد مع غيرهم، والتي تمتدُّ بين سهلي برزة والقابون شرقًا ومنطقة أبي جرش غربًا وجبل قاسيون شمالًا وشريط من البساتين تواكب نهر يزيد جنوبا(١٤)، حيث ذكر أحد المؤرخين قدوم الكرد إلى دمشق بقوله: «فكانت هجرة الأكراد إلى الصالحية، والألبان والشركس والأرمن والحجازيين إلى دمشق»(١٥).

تجدر الإشارة إلى أنَّه ورد في أحد المصادر، بخصوص تمركز العوائل الكردية بدمشق ودورهم الفاعل في المدينة مبكرًا، ما يأتي:» يتركز وجود الأكراد في الصالحية والميدان، ولمَّا لم يستطع هؤلاء الدخول إلى المدينة استقرُّوا في الصالحية بشكل خاص، وانتحل زعماؤهم لقب آغا، وأقاموا لأنفسهم قوَّات شبه عسكرية مؤلَّفة من رجال قبائلهم للدفاع عن مصالحهم»(١٦)، ومن المفيد القول أيضًا إن الحي الكردي كان قد أصبح منطقة معروفة بدمشق ككل في وقت مبكر، حتى إن أحدهم أشار إلى ذلك في معرض حديثه عن أحياء دمشق بقوله :» هي قرية في سفح قاسيون، مكانها اليوم في محلة طاحون الأشنان، أسفل حي الأكراد »(١٧)، كما ذكر مؤرِّخٌ آخرُ الحيَّ الكرديَّ قائلاً :»هي تسمية قديمة للجزء الشرقي من سفح قاسيون، إلى الشرق المجاور من الصالحية، وجرى على ألسنة الناس تسمية حارة

(10) وسام حسن، وثيقة بريطانية عن حي الأكراد في مدينة دمشق. هاجر الكرد بأعداد أكبر في العصر العثماني، وسافروا على متن قوافل الحج حتى الخمسينيات من القرن الماضي، وكان يُشار إلى الحي الذي يقيمون فيه باسم الحي الكردي، ثم تغيَّر إلى ركن الدين. ينظر:
.Kurds of Damascus: Trapped Between Secession and Integration
(11) لمحة عن تاريخ الكرد في بلاد الشام: محسن سيدا.
(12) حي الأكراد في مدينة دمشق بين عامي 1250-1979 دراسة تاريخية _ اجتماعية _ اقتصادية: عز الدين علي ملا، ص 17.
(13) الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (1876-1918)، د. محمد أحمد، مجلة جامعة دمشق، ص 305.
(14) حي الأكراد في مدينة دمشق بين عامي 1250-1979 دراسة تاريخية – اجتماعية- اقتصادية: عز الدين علي ملا، ص 21.
(15) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: ابن طولون، ص 9.
(16) مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين 1772-1840: يوسف جميل نعيسة، ص89.
(17) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: ابن طولون، ص61.


الأكراد، ويُعرف اليوم بحي ركن الدين[18].

كما يُلاحَظ أن الأسر الكردية كانت قد حافظت على خصوصيتها القومية في دمشق نوعًا ما، على الرغم من اندماجها في المجتمع الدمشقي، إذ أشار أحد المصادر المحايدة إلى تلك الحقيقة بقوله:« يُلاحَظ سكنُ العناصر غير العربية صاروجة والبحصة والقنوات والعمارة والميدان، واستطاعت دمشق أن تهضم هذه العناصر في بوتقتها العربية، وشذَّ عن هذه القاعدة بعض الأقليات الكبيرة التي سكنت معزولة في أحياء خاصة بها كالأكراد، وإلى أوائل القرن العشرين»[19].

ثانيًا ـ أسرة شمدين آغا الكردي:

ينحدر شمدين آغا من أسرة كردية هاجرت من ديار بكر، وتذكر المصادر أنه وُلد في مطلع القرن التاسع عشر لأب كردي يُدعى موسى، وأن موسى الكردي كان مُتسلِّمًا في عكا، ثم استوطن دمشق وسكن في الحي الكردي، وانتهت إليه زعامة الحي[20].

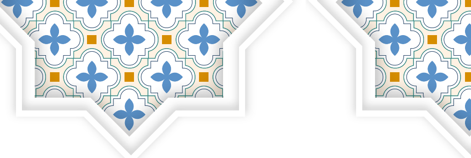
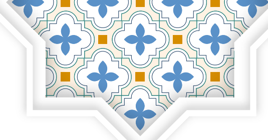
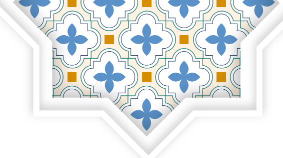
لا تقدم المصادر المتوفرة معلومات أخرى عن حياة موسى الكردي، والتاريخ الدقيق لقدومه من كردستان إلى عكا أول مرة كان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ومن ثم إلى دمشق في مطلع القرن التاسع عشر.

واستنادًا لما سبق، يمكن القول إن شمدين بن موسى الكردي هو المُؤسِّس الفعليُّ لأسرة شمدين آغا المعروفة في دمشق والحي الكردي على السواء[21]، والذي كان قد انتقل إلى حي صاروجة، حيث بنى دارًا كبيرة هناك[22]، وبسبب خصاله وأعماله المعروفة وُصف من قبل أحد المؤرخين الدمشقيين بأنه «كان من أعيان دمشق وصاحب ثروة كبيرة، وله مواقف عظيمة»[23]، كما ذكره مؤرخ معاصر له قائلاً:» كان كريم النفس جداً، فتح محلاً للضيافة، حتى إنه كان يوجد عنده عدد عظيم من الضيوف في كل يوم يأكلون ويشربون على مائدته»[24].

إذن امتلك شمدين آغا صفات أهلّته لأداء دور مهمٍّ في الأحداث التي شهدتها دمشق في بدايات وأواسط القرن التاسع عشر، لاسيما بعد إسناد العثمانيين مهمة الحفاظ على الأمن إليه في العديد من المناطق في وقت مبكر من شبابه[25]، واستعان بفرسانه الكرد في القيام بمهام الشرطة وجباية الضرائب إلى جانب مهمات أخرى وُكلَت إليه، من أهمها إخماد الحركات المتمردة في المناطق البعيدة،

---

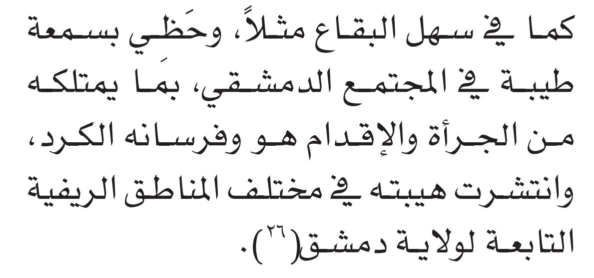
(18) معجم دمشق التاريخي: قتيبة الشهابي، ص218.
(19) مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين 1772-1840: يوسف جميل نعيسة، ص81.
(20)Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Centuries: Linda Schatkowski Schilcher,p.148.
تجدر الإشارة إلى أن أشهر شخصيتين عُرفتا باسم شمدين آغا بين الكرد في العصر الحديث هما: شمدين آغا في دمشق، وشمدين آغا زعيم عشيرة السليفاني في مدينة زاخو الكردية في إقليم كردستان- العراق، الذي كان معاصرًا للأول، كما أن كرديًّا ثالثًا برز باسم محمود أفندي شمدين آغا في مصر، واشتهر بكونه من كبار الضباط في عهد محمد علي باشا (1805-1848).
(21)Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 18601920-: Philip S. Khoury, p.40.
(22) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص181.
(23) موسوعة الأسر الدمشقية: تاريخها أنسابها أعلامها: محمد شريف عدنان الصواف، ص391.
(24) بسام سلام: الحمام الناصري.
(25)The Mamluks in Egyptian and Syrian Politics and Society,The Medieval Mediterranean: Michael Winter, Amalia Levanoni, p.333.


كما في سهل البقاع مثلاً، وحَظي بسمعة طيبة في المجتمع الدمشقي، بما يمتلكه من الجرأة والإقدام هو وفرسانه الكرد، وانتشرت هيبته في مختلف المناطق الريفية التابعة لولاية دمشق(٢٦).

ثالثًا _ تعاظم نفوذ شمدين آغا:

تجاوز نفوذ شمدين آغا مدينة دمشق إلى مناطق أبعد مع مرور الوقت، وكان العامل الأبرز لتوسُّع نفوذه في دمشق ومحيطها هو وجود العشرات من الفرسان الكرد الذين يأتمرون بأوامره، بدليل أنه ورد في أحد المصادر المعاصرة لشمدين آغا في معرض حديثه عن صراع مراكز القوى في لبنان الحالي في تلك المدة: «أتى الجميع في العسكر إلى دير القمر، وكان العسكر دالاتية مئتين صحبة شمدين آغا، ومئتي خيال هواره، وثلاثمئة نفر ارناوط الذين كانوا فى قرية جباع»(٢٧).



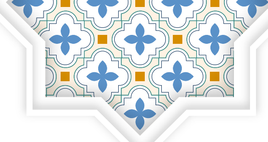
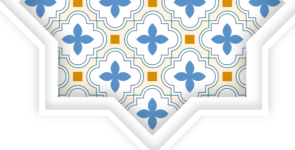


جامع محمد سعيد باشا

تعاظم دور شمدين آغا بعد النجاحات التي حقَّقها، ومنها إخماد التمرُّد الذي حدث في لواء نابلس في فلسطين بعد قيام والي صيدا سليمان باشا العادل (١٨٠٥-١٨١٩) بترتيب الأوضاع لإعادة حكم لواء نابلس إلى أسرة الجيوسي، وعندما لم ينجح في الأمر بسبب تحصُّن موسى بك طوقان في قلعة صوفين، ورفضه دفع الأموال في عام ١٨١٣، وأمام إخفاق الوالي بوضع حدٍّ للفوضى العارمة هناك، استنجد بشمدين آغا،

٢٦ () دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ليندا شيشلر، ص١٨١. والجدير بالذكر أن عددًا من الشخصيات، ذات الأصول الكردية، كانت قد تسلَّمت زمام الأمور في بلاد الشام في تلك المرحلة، ومنهم الوالي إبراهيم باشا الكردي في عام ١٧٨٨، وفي عهده نشبت الحرب في وادي أبي عباد في البقاع بين عسكر الجزار وعسكر الشهابيين أمراء لبنان. للتفاصيل ينظر: كتاب خطط الشا : محمد كرد علي، ص ٦-٧.

٢٧ () لبنان في عهد الأمراء الشهابيين: حيدر أحمد الشهابي، ص٦٦١.

الذي قام بإعداد حملة تأديبية ضمَّت المئات من الفرسان، وتمكَّن من فرض الحصار على قلعة نابلس، وهدم أبراجها، وأسر زعيمها(٢٨).

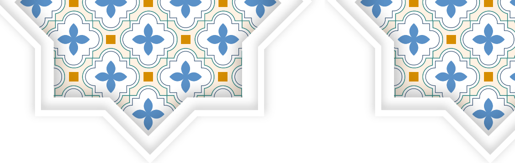
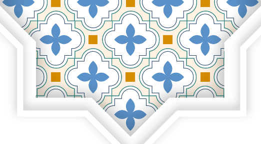
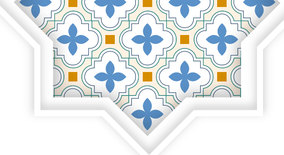
لقد احتفظ شمدين آغا بنفوذه الواسع لمدة طويلة نسبيًا، حتى إنه كان واحدًا من أكثر زعماء القوات شبه العسكرية سطوة في دمشق(٢٩)، بل إنه كان ضمن المعسكر الدمشقي المعادي لدخول جيش إبراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٤٨) إلى المدينة في عام ١٨٣١، فقد ورد في أحد المصادر أنه: «في ١١ حزيران توجَّه العسكر المنصور إلى جهة دمشق، فوصل في ١٤ منه إلى القنيطرة، ثم انتقل إلى داريا ... وكان علي باشا والي دمشق، والشوربجي، وشمدين آغا، في المعسكر، في المكان المسمَّى المرجة، وكل من أمين الكلار والمفتي والنقيب ورشيد آغا والترجمان والقاضي في المكان المُسمَّى باب توما، فهربوا جميعًا، وكانوا نحو ١٥٠٠ فارس، و٥٠٠ راجل، وحينئذ جاءت جماعة من المدينة طلبًا للأمن والأمان، وطلبوا أن يتشرفوا بمقابلة أفندينا رئيس العسكر، فأرسل إليهم رسولًا يبلغهم بأنه أعطاهم ما طلبوه من الأمن والأمان»(٣٠).

وذكر مؤرِّخٌ دمشقيٌّ كان شاهد عيان على الحادث شيئًا من التفاصيل، موضحًا أنَّ الفرسان الكرد قاتلوا بشراسة بقيادة شمدين آغا، مقابل خذلان جنود الوالي العثماني، قال: «بعد أن فتح إبراهيم باشا عكا قصد دمشق، ومعه الأمير بشير وأمراء حاصبيا وراشيا، فجمع علي باشا والي المدينة عسكرًا من الأكراد وأحداث البلد، قُدِّر بعشرة آلاف، وكشف إبراهيم باشا بمنظاره خيول الأكراد ومقاتلة الدماشقة، فوجَّه خيل الهنادي لمقاتلة الأكراد، ونبَّه على العسكر النظامي أن يقاتلوا الدمشقيين ولا يُؤذوهم، بل يطلقون البنادق في الفضاء، فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاربوا، وقاتل الأكرادُ جهدَهم حتى غُلبوا، وفي إثرهم خيل الهنادي تقتل مَن تلحقه منهم»(٣١).

على الرغم مما تقدم، لم يتراجع نفوذ شمدين آغا وفرسانه، كقوة مهمة يُحسب لها حسابها، لإحلال الأمن في ربوع دمشق ومحيطها في العهد الجديد، بل إن إبراهيم باشا كان قد استعان بهم مرات عدة لفرض الأمن، بدليل أنه ورد في أحد المصادر أنه: «لما عجز شريف باشا والي دمشق عن كبح جماح الدروز، جاء إبراهيم باشا من شمالي الشام، وكان هناك يراقب حركة الأتراك، فساق قوةً أخرى، فرأى الرعب قد دبَّ في قلوب عسكره من رهبة الدروز، فعمد إلى ضربهم من جهة صرخد بفرسان الأكراد»(٣٢).

لقد شهدت دمشق أحداثًا عنيفة في عام ١٨٣١، لأسباب تتعلَّق بمتغيرات وتداخلات إقليمية ومحلية، ويبدو أن السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨- ١٨٣٩) أراد أن يضعف الإنكشارية المحلية في دمشق، استكمالًا للقضاء على الفرق العسكرية القديمة، لإتاحة الفرصة لجيشه الجديد الذي أطلق

(28) العائلات المتنفذة في لواء نابلس ودورها الإداري والاقتصادي المدة ١٠٨٠-١٢٤٥هـ/ ١٦٦٩-١٨٣١: محمود سعيد إبراهيم أشقر، زهير غنايم عبد اللطيف غنايم، ص98.
(29) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص181.
(30) البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام 1832: داود بركات، ص 47.
(31) كتاب خطط الشام : محمد كرد علي، ص52.
(32) خطط الشام : محمد كرد علي، ص90.

عليه اسم: العساكر المحمدية، لذا حاول إضعاف البنية الاقتصادية للإنكشارية في دمشق عبر فرض ضريبة الصليان، وكان من الواضح أن الإنكشارية اليرلية نجحوا بالانخراط في المجتمع، حيث سيطروا في القرن الثامن عشر على صاروجة، وحي الميدان الذي يُعَدُّ الشريان الاقتصادي للمدينة، حيث تمرُّ فيه قافلة الحج الشامي، وتحصل على احتياجاتها مثل وسائل النقل، كما انخرط الكثير منهم في العمل التجاري والحرفي، كما أن العامة قد تعاطفوا معهم في صراعهم مع عسكر الدولة(٣٣).

وبسبب ما تقدَّم شهدت دمشق العديد من حوادث العنف، كان السبب المباشر لها قرار السلطان محمود الثاني بفرض ضريبة على الأملاك التجارية، وعند وصول الأوامر بفرض الضريبة إلى والي دمشق عبد الرؤوف باشا قام بإعلان القانون الجديد على الناس عبر المنادي الخاص الذي يدور بين الحارات، إلا أن الخبر الذي وقع بشكل صادم على السكان، وخاصة الحرفيين، دفعهم إلى إعلان رفضهم للقرار بضرب المنادي، وعلى إثر الحادثة أرسل عثمان باشا جنوداً لمواجهة الناس المتجمهرين في حي العمارة (٣٤).

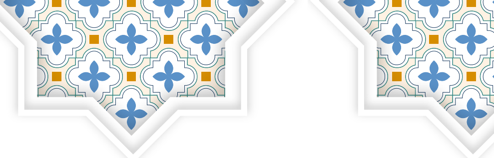
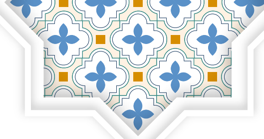
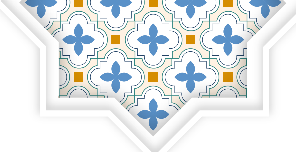
وصف مصدر مطلع الأحداث بقوله: «كان مبلغًا جسيما نحو ألفي كيس، فرفضوا طلب الوزير، وشهروا عصيانهم عليه، وأجبروه على الالتجاء إلى القلعة، وقطعوا عنه الزاد أيامًا، سلم نفسه في أواخرها إليهم فسجنوه بغرفة، وأضرموا النار بجوانب الغرفة، وقد فضَّلوا قتله حرقًا، وظلوا يراقبون النار تأكل فريستها إلى النهاية»(٣٥).

لا تذكر المصادر المطلعة أي معلومات عن مشاركة شمدين آغا وفرسانه في تلك الأحداث الدموية، مما يؤكد حفاظه على ولائه للعثمانيين أثناء الحكم المصري، بدليل مكافأة السلطان عبد الحميد له على عمله فيما بعد(٣٦)، على الرغم من أن بلاد الشام شهدت الكثير من التغييرات الإدارية بعد سيطرة إبراهيم باشا عليها بالقوة، إذ فرض الأمير بشير الشهابي (١٧٨٨-١٨٥٠) في تشرين الأول من عام ١٨٣٢ تسمية الرؤساء الإداريين للمدن، بعد قرار إبراهيم باشا بتقسيم بلاد الشام إلى ثلاث مديريات، هي دمشق وطرابلس وصيدا، وجعل على رأس كل مديرية منها مديراً مهمته الإشراف على الأوضاع العامة في مديرته، بسبب أهمية المنطقة العسكرية والاقتصادية، إلى جانب ضغط الانتفاضات الداخلية المستمرة والصعوبات التي كانت تعترضه(٣٧).

بقي شمدين آغا أحد قادة القوات العسكرية غير النظامية طوال الأربعينيات والخمسينيات في دمشق ومحيطها، كما كان الكيخيا(٣٨)، الذي رفع إليه الحرفيون المسلمون في أحياء دمشق، لاسيما

---

(33) ثورة الدمشقيين سنة (1831م /1247هـ) دراسة تاريخية: خالد محمد صافي، ص ص 91-120.
(34) بين السورين: عن ثورة العام 1831 في دمشق: عروة خليفة.
(35) مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان: ميخائيل مشاقة، ملحم خليل عبده، أندراوس حنا شخاشيري، ص156.
(36) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص181.
(37) سورية والصراعات الدولية 1831-1841 محمد علي والحسابات الخاطئة: فندي أبو فخر، ص 43.
(38) لفظ فارسي أصله كدخدا ومعناه (رب الدار)، وأصبح فيما بعد لقبًا بمعنى: حاكم أو عمدة. وفي العصر العثماني اعتُمد هذا اللقب رسميًّا، وأطلق بصفة أساسية على أي معاون أو مساعد للموظف الكبير في الدولة، وكان يُرمز إليه بلفظ كتخداسي، ينظر: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: مصطفى عبد الكريم الخطيب، ص363.

حرفيو حي القيمرية الماهرون(٣٩)، تظلُّمَهم من قبل السلطات المحلية في عام (١٨٤٦-١٨٤٧)(٤٠).

يذكر أحد المؤرخين الدمشقيين حادثةً طريفة جرت مع شمدين آغا، وهي أن أحد ولاة الشام كان قد أمر بشنق رجل من البسطاء لذنب ارتكبه، وبالصدفة كان شمدين آغا حاضراً، فتوسَّط لدى ولاة الأمر حتى عُفي عنه، وبعد بضعة أعوام تغيَّب شمدين آغا عن دمشق وترك عائلته في الشام، وكان ذاك الرجل يأتي كل عام إلى منزله ويدَّعي أنه آت من قبل شمدين آغا، ومعه مؤونة البيت من القمح والشعير والسمن والرز وغيرها من المواد، وظل على تلك الحالة نحو أربعة أعوام، حتى حضر شمدين آغا وعاد إلى دمشق، فسأله أهل بيته عن الشخص الذي كان يرسل لهم معه مؤونتهم السنوية، فتعجَّب من كلامهم وقال لهم: إنه لم يرسل شيئًا في مدة غيابه. فانذهلوا لقوله، وفي آخر العام أتى ذاك الشخص، ومعه المؤنة المعتادة، وقال لهم إنها مرسلة من شمدين آغا، فخرج عندئذ للقائه، وسأله عن سبب عمله، فأجابه الرجل أرجوك أعتقني لأنك من حين توسَّطتَ لي وخلَّصتَ حياتي أوقفتُها لك، وأقسمتُ يمينًا أنَّ ثمرة أتعابي تكون كلها لك، وها قد مر علي خمسة أعوام، أقدم لمنزلك كل ما أجنيه، فعتقه شمدين آغا شاكرًا له كرمَه(٤١).

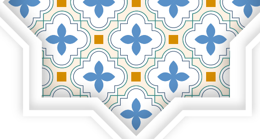
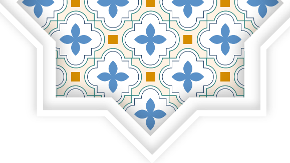
تُوفِّي شمدين آغا بعد عمر حافل بالإنجازات في عام ١٨٦٠(٤٢)، أثناء الأحداث الدامية(٤٣)، التي نشبت في بلاد الشام بصورة عامة، ودمشق بصورة خاصة (٤٤)

رابعًا _ مشاركة أبناء شمدين آغا في الحياة العامة بدمشق:

أعقب شمدين آغا ستة أبناء هم: عبدالله آغا، محمد سعيد باشا، خالد آغا، رجب آغا، حسن آغا، وإسماعيل آغا(٤٥)، وانتظم هؤلاء الإخوة من أبناء شمدين آغا في الإدارة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبرزت أدوارهم بصورة واضحة في الأحداث التي مرت على المدينة والمناطق المحيطة بها(٤٦).

تولَّى عبد اللّه آغا بن شمدين آغا مهمة قيادة إحدى الفرق شبه العسكرية في الخمسينيات ومطلع الستينيات، كما تولَّى مسؤولية الشرطة في دمشق عام ١٨٧١، وفي بيروت عام ١٨٧٩، في حين كان أخوه إسماعيل بن شمدين آغا قائداً لأحد الفيالق العثمانية عندما توفِّي والده، ومع ما تقدم، يكاد يكون محمد سعيد (١٨٤٠-١٨٩٦) أشهرَ أبناء شمدين آغا، إذ كان قد تخرَّج من مدارس إستنبول، لاسيما بعد أن عهد العثمانيون إليه بإعادة تنظيم القوات المحلية في أواخر الخمسينيات من القرن الثامن عشر، وأصبح قائداً لأكثر الفرق العسكرية فعالية في دمشق المسماة بالعوانية(٤٧)، وبذلك بدأ حياته

(39) القيمرية واحد من أعرق أحياء دمشق، كان ولايزال من أشهر أسواق دمشق القديمة، وأحسنها صيتًا، ينظر: حي القيمرية فخر دمشق.
(40) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص181.
(41) الحمام الناصري: بسام سلام.
(42) Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 18601920-: Philip S. Khoury, p.40.
(43) Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Centuries: Linda Schatkowski Schilcher,p.148.
(44) An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860: Leila Tarazi Fawaz ,pp.621-.
(45) موسوعة الأسر الدمشقية تاريخها أنسابها أعلامها: محمد شريف عدنان الصواف، ص391.
(46) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص183.
(47) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ليندا شيشلر، ص181.



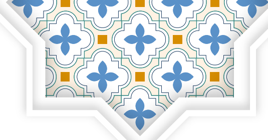
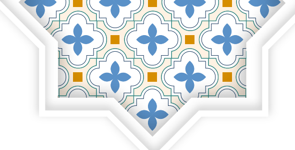
صورة نادرة لجامع سعيد باشا

العملية واحدًا من آغوات القوات شبه العسكرية، وكان تحت إمرته ما يزيد على أربعمئة رجل أثناء عمله بالتعاون مع والده في تسوية نزاعات حوران، كما أوكل إليه القيام بمهام حفظ الأمن في المدينة، والواقع أن محمد سعيد شمدين آغا كان أحد الآغوات المحليين القلائل الذين تولوا قيادة إحدى القوات الجديدة في ذلك الحين(٤٨).

عرفت بلاد الشام كذلك أحداثًا دموية في عام ١٨٦٠، لاسيما بعد توسع نطاق الأحداث، وشملت معظم أنحاء دمشق، وما يهمنا من أمر تلك الأحداث أن مصدرًا معاصرًا لها يشير إلى دور الكرد فيها بقيادة إسماعيل بن شمدين آغا بقوله: «الأكراد ونصراؤهم قد أتوا أعمالًا بربرية في ذلك اليوم ... فقتلوا المئات من النصارى، ونكلوا بالآخرين ممن وقع بأيديهم، وكان قواد الجند من الأتراك والأكراد مثل إسماعيل آغا شمدين، وفرحات آغا وسواهم ...» (٤٩). ويذكر في مكان آخر :«أكراد الصالحية هجموا علينا»(٥٠).

يُفنِّد المؤرخ والأديب المعروف محمد كرد علي مسؤولية أفراد من الجالية الكردية في دمشق عن تلك الأعمال الدموية، بل يُلقي بالمسؤولية على عاتق السلطات العثمانية والمشايخ في دمشق بقوله:» كانت

(48) Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 18601920-: Philip S. Khoury, p.40.
(49) مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، ميخائيل مشاقة: ملحم خليل عبده، أندراوس حنا شخاشيري، ص156.
(50) مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان: ميخائيل مشاقة، ملحم خليل عبده، أندراوس حنا شخاشيري، ص267.

هذه الفتنة سببَ خراب قسم عظيم من مدينة دمشق ... الذنب كل الذنب على الحكومة وعمالها أولاً لما أبدَوه من الضعف، ثم الأعيان والمشايخ ...»(٥١).

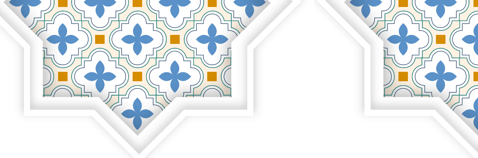
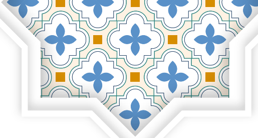
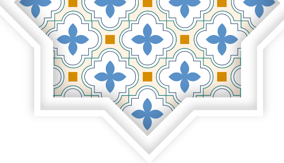
ومما يؤكد ما تقدم أنَّ عناصر العوانية قد شاركوا في أعمال الشغب عوضًا عن إيقافها في تموز ١٨٦٠، بأمر من سلطات الدولة العثمانية العليا في دمشق، وعلى إثر ذلك جرى تسريح عناصر تلك الفرق العسكرية، ونُفي محمد سعيد شمدين آغا إلى إستنبول لكونه موظفًا رفيعًا في الولاية(٥٢)، إلا أن الأخير استعاد حظوته لدى العثمانيين لاحقًا(٥٣)، وما هي إلا أشهر معدودة حتى غادر إستبول ليرافق نامق باشا الذي عُيِّن واليًا على بغداد(٥٤)، وكان من بين الذين عادوا إلى دمشق مشمولاً بالعفو العام، إذ تولى قافلة الجردة في الحج الشامي للإعاشة والتموين، وأصبح قائمقام حمص عام ١٨٦٣(٥٥)، ثم بعلبك عام ١٨٦٦(٥٦)، وفي عام ١٨٦٩ عُيِّن متصرفًا في نابلس(٥٧)، كما عُيِّن متصرفًا في شرقي الأردن في المدة (١٨٧٢-١٨٧٣)، إذ باءت جهوده في تأسيس ولاية عثمانية هناك بالفشل(٥٨).

وتجدر الإشارة أنَّه لو نجحت جهوده تلك لوضع بذلك أُسس دولة جديدة في المنطقة، قائمة على أنقاض إحدى الولايات العثمانية المهمة في بلاد الشام، كما الدول التي تأسَّست لاحقًا، وكانت أُسرة شمدين آغا ستحكم دولة الأردن الحالية بدلاً عن الأسرة الهاشمية.

ومع ما تقدم ازداد نفوذ محمد سعيد بن شمدين آغا في دمشق والأطراف أكثر من السابق، ونال لقب الباشا من قبل السلطان العثماني أثناء زيارته لإستنبول في عام ١٨٦٩، وولي إمارة الحج المهمة في بلاد الشام في المدة (١٨٧٠-١٨٩٢)، إلى جانب كونه عضواً في مجلس إدارة ولاية دمشق في المدة ذاتها(٥٩)، إلى جانب تعينه متصرفًا في عكا عام (١٨٧٠-١٨٧١)، ثم حماة عام ١٨٧٨، فطرابلس عام (١٨٨٤-١٨٨٥)، ثم أصبح عضواً في مجلس الإدارة، ثم مديراً للأوقاف، ووُصف بأنَّه كان حسن الأخلاق، يحب معاشرة أهل العلم والأدب(٦٠).

زفَّ محمد سعيد باشا ابنته ووريثتَه الوحيدة إلى محمد باشا أحمد باشا اليوسف قبل وفاته ببضعة أعوام، وسعى إلى توريث سبطه عبد الرحمن باشا اليوسف مكانته ومناصبه في النهاية، ودَبَّر أن يخلفه في إمارة الحج في عام ١٨٩٢، حيث كان ائتلاف الأسرتين شمدين آغا واليوسف عنصراً مهمًّا لنمط

(51) خطط الشام: محمد كرد علي، ص52.
(52) Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 18601920-: Philip S. Khoury, p.40.
(53) Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 18601920-: Philip S. Khoury, p.40.
(54) تولى محمد نامق باشا ولاية بغداد لمرتين، الأولى عام 1850 ولمدة سنة واحدة فقط، والثانية عام 1861 إلى عام 1867، حيث ذهب لشغل منصب وزير البحرية في إستنبول، كان يجيد اللغات الفرنسية والإنكليزية والعربية إضافةً الى لغته التركية، وكان ضابطًا في الجيش العثماني وتدرَّج فحاز رتبة المشيرية، ينظر: والي بغداد العثماني محمد نامق باشا تولى ولاية بغداد مرتين: طارق حرب.
(55) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص185.
(56) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص185.
(57) دخلت نابلس تحت الحكم المصري بقيادة القائد إبراهيم باشا في عام 1832، وثار أهل نابلس على الحكم المصري في عام 1834 ولكنهم أخفقوا، دام الحكم حتى عام 1840، حيث عادت فلسطين إلى الحكم العثماني، وفي نهاية الحكم العثماني أصبحت مدينة نابلس سنجقًا تابعًا لولاية بيروت، ويضم مئة قرية وقرية. ينظر: مدينة نابلس.
(58) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص182.
(59) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص182.
(60) موسوعة الأسر الدمشقية: تاريخها أنسابها أعلامها: محمد شريف عدنان الصواف، ص671.


محمد سعيدباشا

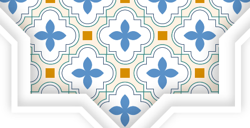
حياة النخبة المتركزة في صاروجة في أواخر القرن التاسع عشر(٦١).

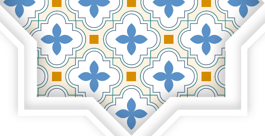
الجدير بالذكر أن أسرة اليوسف تعدُ إحدى الأسر الكردية الدمشقية المعروفة بالفضل، بل إن مؤرخًا دمشقيًا هو عبد القادر بن بدران كان قد أفرد كتابًا لتلك الأسرة سماه (الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف)(٦٢).

توفِّي محمد سعيد باشا في دمشق عام ١٨٩٦، وورث ثروته الكبيرة سبطُه عبد الرحمن باشا اليوسف، والتي تضمَّنت أراضيَ واسعةً في الجولان، وأراضيَ واسعة في برزة، والخيارة، وزبدين، وداره الشهيرة في سوق صاروجة على هيئة تشبه دار إبراهيم باشا في مصر، ومن آثاره الباقية مسجد سعيد باشا في الحي الكردي بدمشق إلى يومنا هذا(٦٣).

لقد كتب أحد المؤرخين عنه: «شمدين آغا له عدة أولاد، أحدهم محمد سعيد باشا، الذي تقلَّب

(61) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص182.
(62) الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف: عبدالقادر بدران، ص5.
(63) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ص183.






في مناصب عدة، وأصبح أمير الحج، وقضى حياته بهذه الوظيفة، وكان غنيًّا جدًّا، وله ابنةٌ وحيدة تزوَّجها أحمد باشا اليوسف، وتوفِّيت في حياته، وقد خلَّف معظم تركته لحفيده الذي تعيَّن مكانه في إمارة الحج مع صغر سنه، وهو باقٍ في إمارة الحج، ويُدعى عبد الرحمن باشا اليوسف، وهو أغنى وأكرم رجل في سوريا، وقلَّ مَن يكونُ غنيًّا كريمًا مثله، وقد كان سعيد باشا أول متصرف تعيَّن على البلقاء، وتوفي بغنًى عظيم(٦٤).

_ الخاتمة:

تُعدُ أسرة شمدين آغا من الأسر المهمة التي أدَّت أدوارًا بارزة في دمشق ومحيطها طوال القرن التاسع عشر، كانت استمرارًا لأدوار أسر كردية أقدم في المدينة، حيث برز دور هذه الأسرة في مختلف مناحي الحياة، لاسيما على يد مؤسسها شمدين آغا بن موسى الكردي، الذي عُرف بكونه قائدًا متنفِّذًا قاد العشرات من فرسانه الكرد، الذين تمكَّنوا بالحزم والانضباط من إخماد عدد من بؤر الفوضى في ولاية دمشق وأطرافها، إلى جانب تصديه مع فرسانه لدخول إبراهيم باشا إلى دمشق، فضلاً عن اعتزاله الأحداث الدموية التي عصفت بدمشق في عام ١٨٣١ ، دون أن ينخرط في يومياتها المؤسفة.

كما برز عدد من أبناء شمدين آغا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، منهم أبناؤه عبد اللّٰه آغا، وأخوه إسماعيل آغا، إلا إن دور نجله محمد سعيد باشا فاق أخوته الخمسة الآخرين، إذ عُرف بكونه قائدًا محلِّيًا واسع النفوذ، تولَّى العديد من المناصب في الدولة العثمانية، تراوحت بين المهام العسكرية والإدارية على السواء وفي أماكن عدة، وتوَّجَها بتوليه إمارة الحج في دمشق لأعوام عدة، قبل أن يُوَلِّيها لسبطه عبد الرحمن باشا اليوسف، سليل أسرة كردية دمشقية متنفذة أخرى، فضلاً عن تحلِّيه بالكثير من الصفات التي أثنى عليها المؤرخون المعاصرون له.

_ مصادر البحث ومراجعه:

_ المصادر باللغة العربية:

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد، الجزء الثاني، تحقيق: سامي الدهان، (دمشق، ١٩٦٢).

- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي، ج ١، (حلب، ١٩٨٨).

(64) الحمام الناصري: بسام سلام.




- البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢ : داود بركات، (القاهرة، ٢٠١٤).

- حي الأكراد في مدينة دمشق بين عامي ١٢٥٠-١٩٧٩ دراسة تاريخية – اجتماعية- اقتصادية: عز الدين علي ملا، (بيروت، ١٩٩٨).

- دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ليندا شيشلر، ترجمة: عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة: عطاف مارديني، (دمشق، ١٩٩٨).

- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: عبد الرزاق البيطار، تحقيق: محمد بهجة البيطار، ج١، (بيروت، ١٩٩٣).

- سورية والصراعات الدولية ١٨٣١-١٨٤١ محمد علي والحسابات الخاطئة: فندي أبو فخر، (بيروت، ٢٠٠٠).

- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: ابن طولون، تحقيق: محمد أحمد دهمان، ط٢، (دمشق، ١٩٨٠).

- كتاب خطط الشام : محمد كرد علي، ج٣، ط٣، (دمشق، ١٩٨٣).

- الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف: عبد القادر بدران، مطبعة الفيحاء، (دمشق،١٩٢٠).

- لبنان في عهد الأمراء الشهابيين: حيدر أحمد الشهابي، تحقيق: فؤاد أفرام البستاني، ج٣، (بيروت، ١٩٦٩).

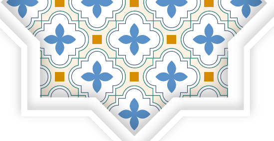
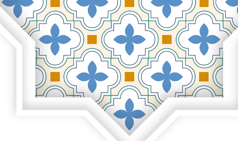
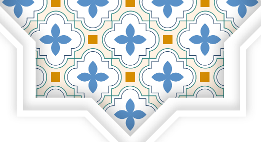
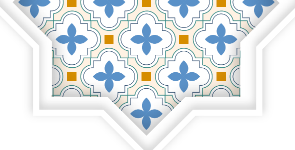
- الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، ج ١، (دمشق، ٢٠٠٦).

- مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١٧٧٢-١٨٤٠ : د. يوسف جميل نعيسة، ج١ (دمشق، ١٩٨٦) .

- معجم دمشق التاريخي: د. قتيبة الشهابي،، ج١، (دمشق، ١٩٩٩)

- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: مصطفى عبد الكريم الخطيب، (بيروت، ١٩٩٦).

- مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان: د. ميخائيل مشاقة، ملحم خليل عيده، اندراوس حنا



شخاشيري، في: سهيل زكار، تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر، (دمشق، ٢٠٠٦).

- موسوعة الأسر الدمشقية: تاريخها أنسابها أعلامها: د. محمد شريف عدنان الصواف، ج٢، ط٢، (دمشق، ٢٠١٠).

- نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل الغزي، ج٣، ط٢، (حلب، ١٩٩٨).

ـ المصادر باللغة الإنكليزية:

- An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860: Leila Tarazi Fawaz, (California,1994).
- Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Centuries: Linda Schatkowski Schilcher (Wiesbaden,1985).
- Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 18601920-: Philip S. Khoury, (Cambridge, 2003).

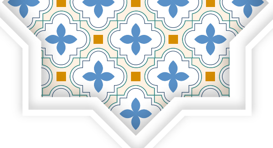
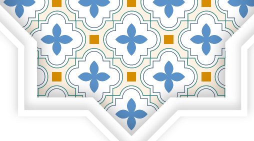
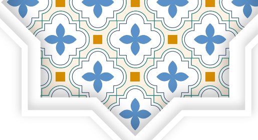
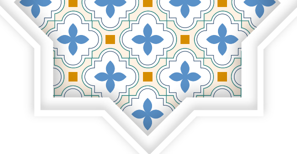
ـ البحوث باللغة العربية والإنكليزية:

- ثورة الدمشقيين سنة (١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م) دراسة تاريخية: خالد محمد صافي، مجلة جامعة الأزهر بغزة، المجلد ١٤ ، العدد ٢، (غزة، ٢٠١٢) .

- الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (١٨٧٦-١٩١٨): محمد أحمد، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧، العدد الأول والثاني ٢٠١١.

- العائلات المتنفذة في لواء نابلس ودورها الإداري والاقتصادي المدة ١٠٨٠-١٢٤٥هـ/ ١٦٦٩-١٨٣١: زهير غنايم عبد اللطيف غنايم، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد ١٢، العدد ٣ ، ٢٠١٨.

- Amalia Levanoni, The Mamluks in Egyptian and Syrian Politics and Society, The Medieval Mediterranean: Michael Winter, Volume: 51, 28 Nov 2003.

المقالات باللغة العربية والإنكليزية:

- بين السوريين: عن ثورة العام ١٨٣١ في دمشق: عروة خليفة، على الرابط: https://www.al-jumhuriya.net

- الحمام الناصري: بسام سلام، على الرابط: http://ancosh.blogspot.com

- حي القيمرية فخر دمشق، على الرابط: https://www Syria.tourism.com.

- حي صاروجة تراث دمشقي، على الرابط: http://alwatan.com

- عكار وحصن الأكراد: موريتز سوبرنهايم، على الرابط: org.kobayat.www//:https

- لمحة عن تاريخ الكرد في بلاد الشام: محسن سيدا، على الرابط: www.medaratkurd.com

- مدينة نابلس، على الرابط: https://nashet.org

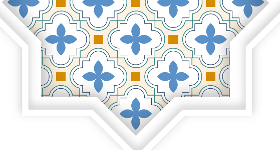
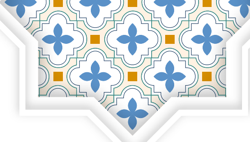
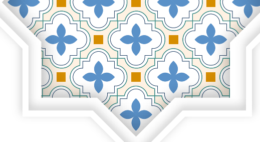
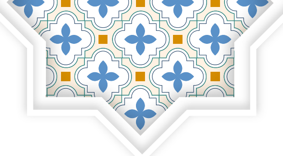
- مديرية أوقاف دمشق، المعالم الدمشقية الأثرية، المساجد الأثرية، مسجد السادات المجاهدين، على الرابط: https://awqaf-damas.com

- المدرسة المجاهدية الجوانية، على الرابط: com.blogspot.bornindamascus//:http

- والي بغداد العثماني محمد نامق باشا تولى ولاية بغداد مرتين: طارق حرب، على الرابط: https://alzawraapaper.com

- وثيقة بريطانية عن حي الأكراد في مدينة دمشق: وسام حسن، على الرابط: https://www.co.medaratkurd

-Kurds of Damascus: Trapped Between Secession and Integration. https://syrianobserver.com







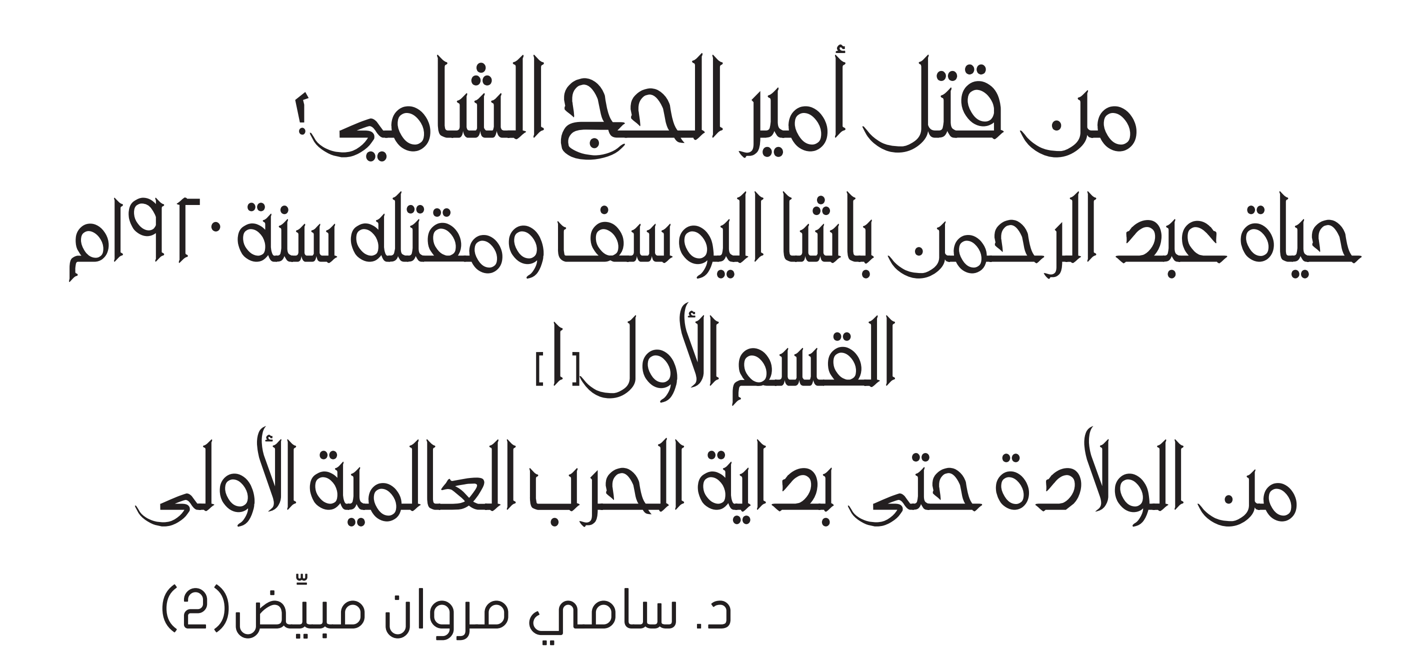
Who killed the Emir of Hajj?

The life of Abdul Rahman Pasha al-Yusuf until World War I.

Dr.Sami Moubayed





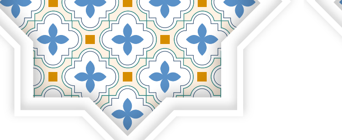
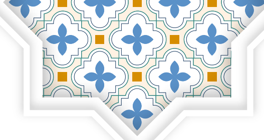


من قتل أمير الحج الشامي؟
حياة عبد الرحمن باشا اليوسف ومقتله سنة ١٩٢٠م
القسم الأول[1]
من الولادة حتى بداية الحرب العالمية الأولى

د. سامي مروان مبيِّض(2)

(1) يُنشر هذا البحث على قسمين، الأول فيه حياة عبد الرحمن باشا اليوسف من الولادة وحتى بداية الحرب العالمية الأولى، والثاني من الحرب العالمية الأولى والمرحلة الفيصلية وبداية الانتداب الفرنسي وصولًا إلى مقتله في 21 آب 1920.

(2) رئيس مؤسسة تاريخ دمشق.


ملخَّص البحث

كان عبد الرحمن باشا اليوسف من أعيان دمشق في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وسنوات القرن العشرين الأولى حتى مقتله سنة ١٩٢٠. وقد تسلّم إمارة الحج الشامي سنة ١٨٩٠، وحافظ عليها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، إضافة لانتخابه ممثلاً عن دمشق في مجلس (المبعوثان)، وعضوًا في مجلس الأعيان في إسطنبول.

يتطرق هذا البحث في قسمه الأول إلى مسيرة الباشا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وعلاقته بجمعية الاتحاد والترقي، التي أطاحت بالعهد الحميدي سنة ١٩٠٩. وينتهي عند تسلّم السلطان محمد رشاد الخامس عرش السلطنة العثمانية خلفًا لشقيقه، وكيف تمكن عبد الرحمن باشا من الانتقال السياسي من العهد الحميدي إلى عهد الاتحاديين.

_ تمهيد:

في صيف العام ١٩٢٠ وقعت جريمة مروِّعة في قرية خربة غزالة شمال شرق مدينة درعا، أودت بحياة عبد الرحمن باشا اليوسف، رئيس مجلس الشورى في حينها، وعلاء الدين الدروبي رئيس الحكومة السورية.

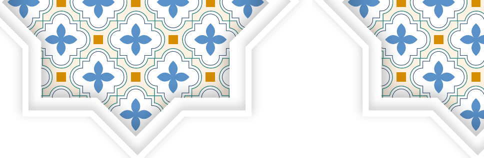
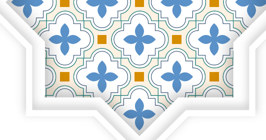
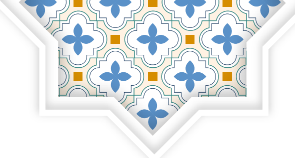
لقد كان من المفترض أن تهزَّ هذه الجريمة المجتمع الدمشقي من أعلاه، نظرًا لمكانة اليوسف الرفيعة بين الأعيان، سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، وصلات القربى بينه وبين كبرى العائلات الحاكمة في سورية يومئذ.

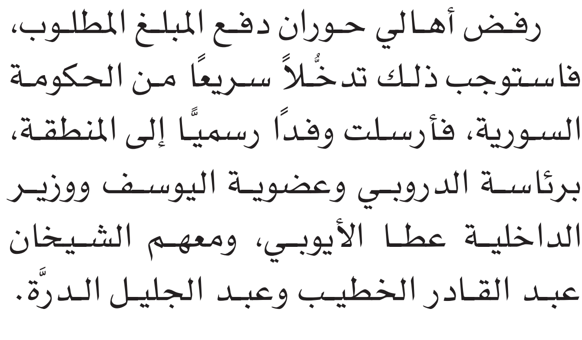
عرف الدمشقيون اليوسف _ قبل توليه رئاسة مجلس الشورى _ طوال ثلاثة عقود من الزمن، أميرًا لمحمل الحج الشامي، وقائدًا لقافلة الحجاج المتجهة سنويًّا من دمشق إلى مكة المكرمة، ومع ذلك، فقد مرَّ مقتله مرور الكرام، ولم يتوقَّف عنده أحد، لا من الأعيان ولا من الحكام، ولا حتى من المؤرِّخين المعاصرين لمدينة دمشق ورجالاتها.

أولًا _ ظروف مقتل عبد الرحمن اليوسف:

كان عبد الرحمن اليوسف متجهًا إلى جنوب سورية، برفقة رئيس الوزراء، لإقناع أهالي حوران بدفع غرامة مالية، فرضتها عليهم حكومةُ الانتداب الفرنسي بعد أن احتلَّت مدينة دمشق يوم ٢٥ تموز ١٩٢٠. وكانت وصلت عدة تقارير إلى العاصمة السورية تُفيد بأن أهل حوران كانوا يُحضِّرون لعصيان مسلَّح ضد الفرنسيين، نصرةً للملك المخلوع فيصل بن الحسين، الذي نزل ضيفًا في ديارهم بعد هروبه من دمشق، وقبل مغادرته البلاد متجهًا إلى أوروبا عبر الأراضي الفلسطينية، تحت تهديد الطيران الحربي الفرنسي.

وقامت فرنسا بفرض غرامة مالية على الحورانيين مقدارها خمسة عشر ألف دينار سوريًّا، عقابًا على موقفهم الداعم للملك فيصل، ومبالغ أضخم على مدينتي دمشق وحلب، وصلت إلى أربعين ألف دينار لكل واحدة منهم.



عبد الرحمن باشا اليوسف

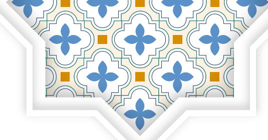
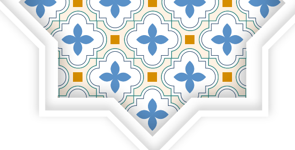
رفض أهالي حوران دفع المبلغ المطلوب، فاستوجب ذلك تدخُلاً سريعًا من الحكومة السورية، فأرسلت وفدًا رسميًا إلى المنطقة، برئاسة الدروبي وعضوية اليوسف ووزير الداخلية عطا الأيوبي، ومعهم الشيخان عبد القادر الخطيب وعبد الجليل الدرَّة.

كان الشيخ الخطيب من علماء الشَّام، ويعمل إمامًا في الجامع الأموي، والشيخ الدرَّة كان من المدرِّسين القدامى في مدينة درعا. أمَّا اليوسف فقد كان يملك أراضيَ واسعةً في جنوب البلاد، وكان وكيله هناك الزعيم أحمد مريود، أحد قادة النضال في قرى الجولان، الذي قُتل على يد الفرنسيين بعد ستِّ سنوات من مقتل اليوسف[٣].

اجتمع الرئيس الدروبي مع محافظ حوران أبو الخير الجندي، ووعده بأن يضع حدًّا للاضطرابات في جنوب البلاد، مشيرًا إلى صلابة ومكانة الوفد المرافق له، وقدرته على التأثير على مشايخ المنطقة[٤].

كان بعض المسلحين من أهالي خربة غزالة ينتظرون الوفد الحكومي القادم من دمشق عبر سكة القطار، وظهر أحدهم عند نافذة العربة الأولى، شاهرًا سلاحه في وجه الجنود السنغاليين المرافقين للوفد، الذين كانت فرنسا تعتمد عليهم في سورية ولبنان، ظنًّا منها أنهم قادرون على التفاهم مع أهالي هذه البلاد لأنهم مسلمون مثلهم، ولم تُدرك فرنسا، في ذلك الوقت المبكر من حكمها في الشرق الأوسط، أن هؤلاء الجنود، القادمين بالإكراه من مستعمراتها في شمال أفريقيا، لم يكونوا على دراية بأهالي سورية، ولا يتكلمون اللغة العربية، ولا يعرفون شيئًا عن عادات بلاد الشّام وأعرافها، فأطلق أحدهم الرصاص في وجه الحورانيين، بعد أن رأى البنادق في أيديهم، وحصل تبادل إطلاق نار أشعل فوضى عارمة في المحطة، قُتل على أثرها الجنودُ السنغاليُون الثلاثة المرافقون للوفد[٥].

(3) ميسلون: نهاية عهد، صبحي العمري، 80.
(4) سورية والانتداب الفرنسي، يوسف الحكيم، 33.
(5) سورية والانتداب الفرنسي، يوسف الحكيم، 35.


ترجَّل عبد الرحمن اليوسف من القطار، وحاول الوصول إلى الدور الثاني، حيث يسكن مدير المحطة، وهو يصيح بأعلى صوت: «هاتوا المشايخ لنتفاهم!(٦)» في دلالة واضحة على أنه أراد إخفاء هويته لشعوره بأنه هو المستهدف من كل ما يجري حوله، لبس اليوسف ملاية سوداء، كانت النساء السوريات ترتديها عند خروجهنَّ من منازلهنَّ، غطت وجهه ورأسه حتى القدمين(٧).

ثم دخل اليوسف المحطة مُتنكِّرًا، وحاول الاتصال بدمشق، وتبعه الدروبي الذي أُصيب برصاصة في ظهره، أسقطته قتيلاً على الفور. وهناك روايةٌ أخرى، رواها نقيب الصحفيين السوريين نصوحً بابيل، تقول بأن الدروبي اتجه نحو مقصورة الدرجة الثالثة في مؤخرة القطار، فعُثر عليه، وتمَّ قتلُه بين الركاب(٨).

ونجا وزير الداخلية عطا الأيوبي من الموت بفضل تاجر دمشقي من حيٍّ الميدان كان موجودًا بالصدفة في أرض المحطة، فقام بمساعدته على تفادي مصير زملائه ونقله إلى مكان آمن(٩).

ضُرب اليوسف ضربًا مُبرِّحًا، ثم أُطلقت النارُ على أماكن مختلفة من جسده قبل التنكيل به، ليفارق الحياة وهو غارق بدمائه، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والأربعين من عمره.

ثانيًا _ تاريخ الأسرة:

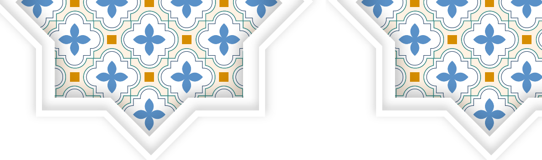
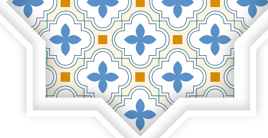
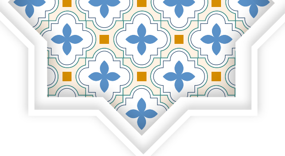
استوطنت عائلة اليوسف الكردية مدينة دمشق في بدايات القرن التاسع عشر، قادمة من ديار بكر في جنوب شرقي تركيا(١٠).

كان الجدُّ الأكبر لعبد الرحمن اليوسف تاجرَ أغنام ومواش، أحبَّ دمشق واستقرَّ بها نظرًا لمناخها الطيب ووفرة الفرص الاقتصادية فيها. ولد ابنه الوحيد أحمد في دمشق، وعمل مع أبيه في توسيع أعمال الأسرة، ثم تحالف مع الأمير بشير الشهابي، حاكم جبل لبنان في منتصف القرن التاسع عشر، وصار وكيلاً معتمدًا لأعماله في سورية. منحه الأمير بشير قرية مجدل عنجر في سهل البقاع، بما فيها من أرزاق وأملاك، تقديرًا لولائه(١١).

وفي عام ١٨٣١، تحالف الأمير بشير مع والي مصر محمد علي باشا، الذي أرسل جيشًا جرّارًا إلى بلاد الشّام لضمها إلى حكمه، وانتزاعها بالقوة من العثمانيين. وخلال سنوات الحكم المصري في دمشق (١٨٣١–١٨٤٠) عمل أحمد اليوسف مع إبراهيم باشا، ابن محمد علي باشا، مظهرًا ولاءً تامًّا لأسرته، لدرجة أنه عَيَّنه قبل مغادرته دمشق عام ١٨٤٠ متسلِّمًا، أو حاكمًا على المدينة(١٢).

ولكن اليوسف وضع نفسه تحت تصرف العثمانيين مجددًا، في وقتٍ كانوا بأشد الحاجة لفتح

(6) الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف، عبد القادر بدران، 113.
(7) لقاء المؤلف مع السيدة فاتن اليوسف، حفيدة عبد الرحمن باشا اليوسف (فينا، 5 آذار 2019).
(8) الصحافة والسياسة في سورية، نصوح بابيل، 37.
(9) سورية والانتداب الفرنسي، الحكيم، 35.
(10) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ليندا شيلشر، 184.
(11) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ليندا شيلشر، 184.
(12)دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ليندا شيلشر، 185.

صفحة جديدة مع أهالي دمشق، فقبلوا به واستدعوه إلى إسطنبول لنيل لقب الباشاوية، ليعود بعدها إلى دمشق وجيهًا ومتمولًا وزعيمًا.

استفاد أحمد اليوسف من مكانته الجديدة ونفوذه عند صُنَّاع القرار في عاصمة الخلافة، فقام بإدخال اثنين من أبنائه في العمل الحكومي، وصار الأول، محمود، قائممقام على مدينة بعلبك، وبات الثاني محمد (والد عبد الرحمن اليوسف) حاكمًا على مدينة حمص[١٣].

ثالثًا _ مصاهرة آل شمدين آغا:

تتالت المناصب الرفيعة في درب محمد بن أحمد اليوسف، فبعد حمص أصبح متصرِّفًا على مدينة عكا، ثم على طرابلس الشَّام، وخلال مسيرته السياسية اقتنى أراضيَ زراعية خصبة في كل مدينةٍ حلَّ بها، إضافة لما قُدِّم له من هدايا وهبات من سلاطين بني عثمان.

واشترى من الوجيه سليمان كلاراميني قصرًا فاخرًا في حيِّ سوق ساروجا العريق، ظلَّ مقرًّا لعائلته حتى خروجهم منه للسكن في مناطق حديثة عام ١٩٦٤[١٤].

ولكن أكبر إنجازاته وأكثرها ربحًا بالمطلق كان زواجه من بنت محمد سعيد شمدين آغا، أحد زعماء الكرد في دمشق، المكلَّف يومها بتحصيل الضرائب من الأهالي، ممثِّلاً عن الدولة العثمانية[١٥].

كانت أسرة شمدين آغا متنفِّذة وثرية للغاية، وقد تم تعينه حاكمًا على مدينة نابلس، وفي صيف العام ١٨٧٠ أميرًا على حجاج الشَّام، وهو من أجلِّ المناصب الإسلامية، وأعظم الوظائف الدينية.

رابعًا _ معارضة أحمد عزت باشا العابد:

بعد مرور واحد وعشرين سنة على هذا التكليف، قرر محمد شمدين آغا التنازل عن منصبه لصالح سبطه الوحيد، عبد الرحمن اليوسف.

لقد وُلد عبد الرحمن في دمشق سنة ١٨٧١ وتسلَّم إمارة الحج من جده، وهو في التاسعة عشرة من عمره، عام ١٨٩٠. وكل من عرف تعلُّق شمدين آغا الشديد بحفيده لم يستغرب هذا القرار، كونه لم يُرزق بأي ذرية ذكورية، ولم يرغب بأن تذهب إمارة الحج من بعده إلى خارج أبناء الأسرة، مع العلم أن هذا المنصب الكبير لم يكن وراثيًا، وقد وهبه كلَّ ما يملك من مال وأرض وعقارات، فصار اليوسف الشابُّ زعيمًا معتبرًا في دمشق بالرغم من صغر سنه[١٦].

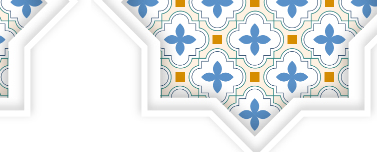
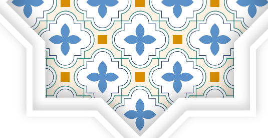
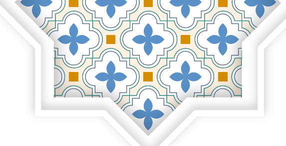
وقد أغضب انتقالُ إمارة الحج بهذا الشكل العائلي غير المؤسساتي الكثيرَ من الأعيان، الذين رأوا فيه تجاوزًا لهم ولأحقيتهم بهذا المنصب الحسَّاس. وأول المعترضين كان أحمد عزت باشا العابد، جار آل اليوسف في حيِّ سوق ساروجا، وأحد أقرب المقرَّبين من السلطان عبد الحميد الثاني، الذي كان

(13) دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ليندا شيلشر، 151-153

(14) Stefan Weber. Damascus: Ottoman Modernity and Urban Transformation, volume II, 299.

(15) أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر هجري، محمد جميل الشطي، 404

(16) الكواكب الدرية، بدران، 25.


قد تولَّى عرش السلطنة عام ١٨٧٦ . ونجح العابد بإقناع السلطان بالعدول عن تعيين اليوسف في إمارة الحج، بحجة صغر سنه وانعدام خبرته(١٧). وكان يريد أن تذهب الإمارة إلى أحد أبناء آل العابد، بعد أن أوصل الكثير من أقربائه إلى مناصب رفيعة، مثل شقيقه مصطفى (والد نازك العابد)، الذي عيَّنه واليًا على الموصل، وصهره حسني سيفي، الذي أوصله إلى منصب متصرف(١٨).

وهنا تدخل الشيخ أبو الهدى الصيَّادي لفضّ الخلاف، وقد كان مثل أحمد عزت العابد، من المستشارين السوريين المقرَّبين من السلطان عبد الحميد. ولم تكن العلاقة طيبة بين الصيَّادي والعابد، وكانا في تنافس دائم على القربى من السلطان. الأول كان من أصول متواضعة، وهو من أبناء بلدة خان شيخون في ريف إدلب، وصل إلى ما وصل إليه من مقام وجاه بسبب علمه الوسيع في الفقه والشؤون الإسلامية. أما العابد فقد كان من الأسر المتنفِّذة حديثة العهد، التي ظهرت على الساحة الدمشقية منذ ستينيات القرن التاسع عشر.

وضع الصيَّادي كامل ثقله خلف عبد الرحمن اليوسف، نكاية بالعابد، وربما دعمًا لجيل الشباب، أو حبًّا بالتجديد.

في مذكراته، يقول جمال باشا، حاكم ولاية سورية خلال الحرب العالمية الأولى، إن الشيخ الصيَّادي دفع ١٢ ليرة ذهبية لتمكين اليوسف في منصبه، وإجهاض اقتراح العابد بعزله(١٩).

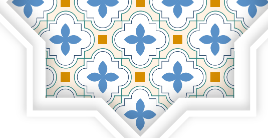
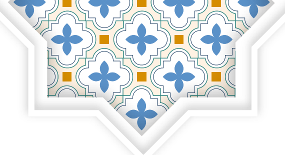
وهذا التدخل أدى إلى نشوب صراع طويل بين عائلتي اليوسف والعابد، جيران الحي في دمشق وزملاء البلاط في إسطنبول، استمرَّ حتى زواج زهراء اليوسف، شقيقة عبد الرحمن باشا، من محمد علي، نجل أحمد عزت باشا، والذي كُتب لهما أن يكونا أول عائلة رئاسية في سورية بعد انتخاب العابد رئيسًا للجمهورية عام ١٩٣٢ .

خامسًا _ محمل الحج الشامي:

قبل التنازل لحفيده عن إمارة الحج، قام شمدين آغا بإحضار أشهر مدرسي إسطنبول، لتعليم عبد الرحمن أصول الفقه والشريعة، ليتمكَّن من أحكام الحج، والتَّبحُّر بعلوم الكيمياء والرياضيات والأدب العربي والتاريخ الإسلامي(٢٠). كانت إمارة الحج الشامي حسَّاسة جداً بالنسبة للعثمانيين، يضعون كامل ثقلهم خلف من يتولاها، لإظهار تمسُّكهم بالإسلام وبمقدساته، وفيها تجسَّدت عظمة الدولة وهيبتها، انطلاقًا من أهمية كل من مكة المكرمة ودمشق، أو «شام شريف» كما كانوا يُطلقون عليها، وهي عندهم أكثر ولايات بلاد الشَّام شأنًا وأعلاها مقامًا.

وكان على مَن يتولَّى الإمارة أن يكون على درجة عالية من الشجاعة والهيبة والهداية لقيادة ركب الحج. فكان عليه مثلاً معرفة الطرق البرية التي يجب سلكها، وتلك التي يجب تجنُّبها، وحفظ جميع المنازل التي تقع على الطريق، ومدى توفُّر المياه في كل واحدةٍ منها. ومن واجبات الأمير كانت معرفة

(17) سورية والعهد العثماني، يوسف الحكيم، 60.
(18) سورية والعهد العثماني، يوسف الحكيم، 59.
(19) المذكرات، جمال باشا، 240.
(20) الكواكب الدرية، بدران، 25.

جميع الناس في ركبه، لتوزيعهم على مجموعات، بناءً إمَّا على الحي الذي جاؤوا منه، أو القرية أو البلدة، مع إعطاء رعاية خاصة للمسنِّين والمرضى.

كان لهذا المنصب جانب اقتصادي مهمٌ أيضًا، يدرُ مالًا وفيرًا على خزينة الدولة العثمانية، وعلى الناس، ومعظم الحجاج كانوا يصلون دمشق في مطلع شهر رمضان، وينزلون إمَّا في خان الحرمين القريب من باب البريد، أو على مقربة من جامع الورد في سوق ساروجا(٢١).

وكان الأعاجم يُقيمون في حيِّ الخراب داخل دمشق القديمة أو في السويقة، حيث يشترون كميات كبيرة من المؤن من أسواق المدينة، تكفيهم طوال مدّة الحج (أي ثلاثة أشهر كاملة)(٢٢). وكانت دمشق تتأهَّب لاستقبال الحجاج القادمين إليها من القوقاز وأذربيجان والبلقان والقرم، وتضع كلَّ إمكاناتها في خدمتهم، من فنادق وأسواق وتجَّار وسماسرة، حيث كانوا يشكِّلون دخلاً سنويًّا ثابتًا للمدينة ولأهلها. وكان تجَّار الشَّام يرسلون بضائعهم إلى الأراضي المقدسة مع محمل الحج، كونه محميًّا من قبل الدولة، ومُعفًى من أي ضريبة، ويستقبلون عن طريقه البضائع القادمة من الهند والصين وأقاصي المعمورة(٢٣).

وكان أمير الحج ينطلق في رحلته السنوية على متن محمل مرفوع على ظهر جمل كبير، مزيَّن بستائر مخملية عليها آيات قرآنية، مجللة بعلم عثماني مصنوع من الحرير. وكان خط مسير المحمل محاطًا دومًا بكثافة عسكرية ومدفعين وفرقة موسيقية ترافقه حتى مشارف المدينة، مع آلاف المُودِّعين من المسؤولين والشيوخ والضباط والأشخاص العاديين، الذين يخرجون لإلقاء التحية على المحمل وأميره، في اليوم الخامس من شهر شعبان.

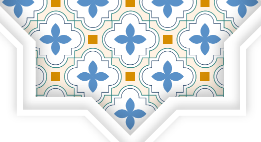
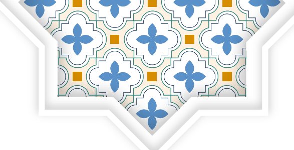
وعرفت الدولة العثمانية خمس محافل كبيرة على هذا الشكل: الأول كان ينطلق من عاصمة الخلافة، والثاني من مصر، والثالث من اليمن، والرابع من العراق، إضافة طبعًا للمحمل الشامي الذي نحن الآن في ذكره(٢٤).

كان عبد الرحمن اليوسف يُرافق المحمل من لحظة الانطلاق حتى العودة، جالسًا داخل المحمل، أما بقية الحجاج فكانوا يتبعونه سيرًا على الأقدام أو على الجمال والخيول والحمير.

وكانت القلعة هي نقطة الانطلاق، عند الركن الشمالي الغربي من سور دمشق، حيث يبدأ المسير باتجاه حيِّ باب الجابية، ثم باب مصلًى في الميدان، ثم قرية الكسوة، التي تبعد ثلاثة عشر كيلو متر من دمشق(٢٥).

ونظرًا لحجم الموكب، وخوفًا من ضياع الحجاج أو تفرُّقهم، كان المسير بطيئًا جداً، لا يتحرَّك إلَّا في الليل، لتفادي هلاك الحجاج والدواب من شدة حرِّ الصحراء. وفي معظم الأحيان كان الموكب لا يَعبر أكثر من أربعين كيلو متر في اليوم الواحد(٢٦).

(21) محمل الحج الشامي، منير كيال، 50.
(22) المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، ليلى الصباغ 95.
(23) محمل الحج الشامي، كيال، 50.
(24) المحمل وقافلة الحج الشامي، بسام ديوب، 24
(25) المحمل وقافلة الحج الشامي، بسام ديوب، 49.
(26) مذكرات، الجزء الأول، خالد العظم، 11.


وكان الطريق إلى مكة مليئًا بالمخاطر واللصوص، فاضطرَّ محمد سعيد شمدين آغا لدفع إتاوة خلال موسم الحج، لعدم مهاجمة القافلة من قبل البدو وقاطعي الطريق. ولكنه قُبَيل تقاعده قرَّر شمدين آغا العدول عن هذا العرف، فجاء عبد الرحمن اليوسف، وأكمل بهذه السياسة، ظنًّا منه أن طريقه سيكون آمنًا وسالكًا. ولكن في أول رحلة له مع الحجاج تعرَّض موكب الأمير لهجوم مُسلح من البدو، حيث قاموا بمحاصرته في معان، قبل أن تصل تعزيزات عسكرية لنجدته، قادمة من دمشق[٢٧].

وصل خبر حادثة معان إلى مسامع أهالي الشَّام، وصارت أخبار الباشا الصغير على كل لسان، يتحدث عنه الناس بإعجاب، ويتناقلون قصصًا عن بسالته ورباطة جأشه في وجه البدو.

وعند عودته إلى دمشق قام الباشا بفتح أبواب قصره أمام الفقراء والمحتاجين، حيث صارت مأدبته الخيرية عرفًا من أعراف سوق ساروجا، يأتيها الناس من كل حدب وصوب، إما لتناول الطعام أو للتوسُّط لدى الباشا لحل مشاكلهم في دوائر الدولة العثمانية. وقد حاول جاهداً مساعدة كل من وصل إليه من الأهالي، لتزداد شعبيته بين الناس، ويزداد احترام العثمانيين له.

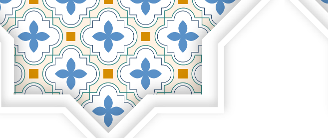
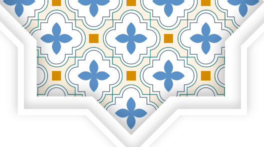
وخلال أوقات المجاعة أو المرض كان الباشا أول المتبرِّعين للمحتاجين، ففي عام ١٩٠٩ مثلاً قدَّم ١٦٠ ليرة ذهبية للجمعيات الخيرية في دمشق، وبعدها بخمس سنوات أيَّد الضريبة التي فرضها العثمانيون على أثرياء دمشق، وقدَّم للحاكم العسكري ٣٥٠٠ ليرة ذهبية، ومعها خمسة آلاف كيلو من الحنطة والشعير، طالبًا من الأعيان المبادرة بالمثل لمساندة الدولة في عجزها المالي[٢٨].

كما تعلَّم الباشا من تجربة والده، الذي استفاد كثيرًا من زواجه من آل شمدين آغا، ومن جده لأبيه، الذي كان متزوجًا من سيدة من آل البرازي، فقام اليوسف بعقد قرانه على «فايزة خانم» كريمة خليل باشا العظم، وهي سليلة أسرة سياسية عريقة وثرية، حكمت دمشق طوال القرن الثامن عشر، وقد تولَّى الكثير من أبنائها إمارة الحج من قبله[٢٩].

أدَّت هذه الزيجة إلى مضاعفة ثروة عبد الرحمن اليوسف، الطائلة أصلاً، وإلى تمتين صلات القربى بينه وبين أعيان دمشق، إضافة لما ورثه عن جدِّه وما اكتسبه من مال عن طريق مصاهرته لآل العظم، وكانت أراضيه الزراعية التي ورثها عن أبيه تدرُّ عليه ما لا يقل عن عشرة آلاف ذهبيّة سنويًا[٣٠].

وكان اليوسف كريمًا جداً مع كل مَن عمل معه، لكسب احترام الناس وولائهم، فعلى سبيل المثال كان راتب وكيله العام عشر ليرات ذهبية في السنة، وهو أعلى راتب عرفته مدينة دمشق في حينها، وكان يدفع خمس ليرات ذهبية سنويًا لكل محاسب، وليرة ونصف الليرة لكل مختار من مخاتير القرى التي كان يملكها، مع نسبة من أرباح عائداتها الزراعية الموسمية[٣١].

(27) وزارة الخارجية البريطانية (195-1765) من أيرز (دمشق) إلى فورد (لندن)، ملف رقم 16، بتاريخ 31 أيار 1892.
(28) Talha Çiçek. War and State Formation in Syria, 241.
(29) محمل الحج الشامي، كيال. 44.
(30) Hanna Batatu: Syria's Peasantry, the Descendants of its lesser rural notables and their politics, 40.
(31)Hanna Batatu: Syria's Peasantry, the Descendants of its lesser rural notables and their politics, 40.

ومع مطلع القرن العشرين كان عبد الرحمن اليوسف يملك كامل الشاطئ الشرقي من بحيرة طبريا، وثلاثَ قرى بأكملها في غوطة دمشق الشرقية، إضافة لخمس قرى في سهل البقاع، وأربع وعشرين قرية في الجولان، مما جعله، بحسب أقاويل الناس في حينها، الرجلَ الأغنى بين المسؤولين العرب في السلطنة العثمانية، لا يضاهيه أحدٌ إلا جارُه ومنافسُه، الذي أصبح لاحقًا صديقَه وقريبه، أحمد عزت باشا العابد(٣٢).

سادسًا _ الباشا والسلطان:

معظم سنوات عمل اليوسف في محمل الحج كانت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي حكم من منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٠٩. وعندما وُليَّ اليوسف إمارة الحج كان السلطان عبد الحميد في السنة السادسة عشرة من حكمه، بعد أن ورث إمبراطورية منهكة اقتصاديًا وسياسيًّا، مهددَّةً من الداخل والخارج معًا. وقد عرفه اليوسف حاكمًا مُصلحًا، وساعيًا لإدخال التطور والعمران على بلاده، دون المس بهويتها القومية أو الدينية.

وكان السلطان يرى أن الحضارة الإسلامية تفوق الغربية بمراحل، على كافة المستويات إلَّا العلوم الحديثة، التي أراد لها أن تدخل بلاده بدلًا من طرق الحياة الغربية أو أنظمة الحكم الموجودة في أوروبا(٣٣).

وفي كانون الأول من العام ١٨٧٦، أُقرَّ الدستور العثماني، وفي آذار ١٨٧٧ افتُتحت جلسات مجلس المبعوثان (البرلمان) في إسطنبول، لتكون أول سلطة تشريعية منتخبة في كافة أرجاء العالم الإسلامي(٣٤). ولكن المخاطر ظلَّت تطارده من روسيا القيصرية، التي كانت ما تزال طامعة بالعودة إلى عاصمتها القديمة، عاصمة الخلافة العثمانية آنذاك، القسطنطينية (أو إسطنبول)، تلك المدينة التاريخية التي كانت حتى منتصف القرن الخامس عشر مركزًا للأورثوذوكسية المسيحية. وقد دخل السلطان العثماني في حرب ضروس مع روسيا سنة ١٨٧٧، أضعفت جيشَه وأفرغت خزينته وكادت أن تُودي بحكمه.

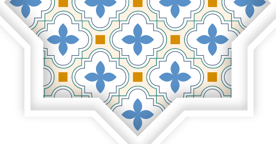
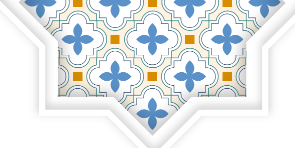
شروط الهدنة المُذلّة التي فرضها الروس على السلطان العثماني قتلت روح التجديد لديه، وحوَّلته إلى حاكم تقليدي وحذر، دائم الخوف من الدسائس والمؤامرات. وبعد الحرب مع روسيا قام بتعطيل البرلمان العثماني، وتعليق العمل بالدستور، ليحكم بيد من حديد خلال سنواته الأخيرة في الحكم. ومُورست رقابة مشددة على الصحف، وتم اعتقال جميع المعارضين لحكمه، وتم زرع المخبرين في طول البلاد وعرضها، وتحديدًا في الجامعات والمدارس والمقاهي، لمراقبة أفكار الناس وتوجهُاتهم السياسية.

ولكن بالرغم من هذا الجو المضطرب، والمشحون قوميًّا، حافظ عبد الرحمن اليوسف على ولائه التام للسلطان عبد الحميد، حتى في أشد لحظات ضعف الأخير، وفي المقابل أكرمه السلطان كثيرًا، وكان ينظر إليه دومًا على أنه نقطة ارتكاز للدولة العثمانية داخل المجتمع الدمشقي، لا يهدد كيانها بالمطلق، وليس له طموح سياسي خارج مشورة الباب العالي ومباركته.

(32)Hanna Batatu: Syria's Peasantry, the Descendants of its lesser rural notables and their politics, 40.

(33) مذكرات السلطان عبد الحميد، السلطان عبد الحميد، 27.

(34) Lord Kinross. The Ottoman Centuries, 529.


لم يُسمع عن عبد الرحمن اليوسف أي معارضة قط لسياسات الدولة العثمانية، لا في مجالسه الخاصة ولا العامة، وكان دومًا يصف السلطان بولي النعم، ويقول أنه جندي مُطيع من جنوده الأوفياء[٣٥].

وانعكس ذلك على الألقاب والرتب التي مُنحت لعبد الرحمن اليوسف في العهد الحميدي، والتي كانت تشير إلى علو مكانته الاجتماعية، ومدى حظوته عند السلطان عبد الحميد. وكانت هذه الألقاب تُطلق على أبناء الطبقة الأرستقراطية من النبلاء، وتُستعمل للدلالة على السلالة والذرية النبيلة، جنبًا إلى جنب مع استعمال أنساق من الألقاب كانت تسبق الاسم، للدلالة على المكانة الاجتماعية.

فعلى سبيل المثال، كان لقب «خاندان‌دن» يعني «النبيل» و«أشرافندن» (الشريف) و«وجوهندن» (الوجيه) و«متحيزاندن» (الحائز على الإنعامات السلطانية). وكانت الرتب الرسمية التي يمنحها السلطان تُقسم إلى فئات: مُلكية، ويقصد بها المدنية، و«قلمية» أو إدارية، و«علمية» في إشارة إلى المراتب الدينية، وأخيرًا «السيفية،» أو العسكرية[٣٦]. وكان لكل واحدة منها لقب مرافق، مثل الباشا والبك والأفندي، ونعوت وألفاظ التخاطب، مثل «دولة» و«عطوفة» وعزة» و«رفعة» وغيرها.

عُرف عبد الرحمن اليوسف في حياته بلقب «عطوفة الباشا»، وكان ذلك بسبب تبرعاته السخية للخزينة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد، وبشكل تلقائي عُرف جميع أولاده، في تذاكر سجلات الأحوال المدنية (النفوس)، بلقب «البك.» وظلَّ هذا اللقب الوراثي ملاصق لهم، رسميًا واجتماعيًا، حتى قيام جمهورية الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨، حيث تم تجريدهم منها، وشطبها نهائيًا من سجلات النفوس، تماشيًا مع السياسات الاشتراكية للرئيس جمال عبد الناصر.

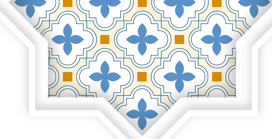
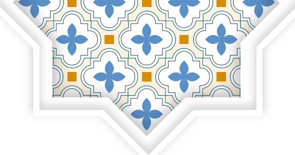
يُذكر أن «الباشاوية» لم تكن مرتبة واحدة، وفي طيَّاتها تسع مراتب وعدة دلالات، أعلاها تلك المقترنة برتبتي الوزير أو المشير، وهما أعلى مراتب في الدولة العثمانية. بذلك يكون محمد فوزي العظم، وزير الأوقاف الإسلامية ووالد الرئيس خالد العظم، من هذه الفئة. وتليهما الرتبة ذات المنشأ العسكري، الملحقة برتبة «فريق أول» والتي كان ترتيبها الثالث ضمن النسق الأول بين المراتب التسع. وبعدها رتبة الباشاوية للفريق، وبعدها أصحاب المناصب الإدارية الرفيعة، الملحقة برتبة «روم أيلي بكلربكي»، وهي الرتبة التي كان يحملها عبد الرحمن اليوسف، وهو من القلائل الذين وصلوا إليها خارج العاصمة إسطنبول[٣٧].

سابعًا _ التقارب مع ألمانيا:

أدَّى اليوسف دورًا مهمًا في التقارب العثماني الألماني، وشارك بالتحضير والتخطيط لزيارة القيصر غليوم الثاني إلى دمشق في تشرين الثاني من العام ١٨٩٨، التي هدفت إلى تقوية التحالف العسكري والسياسي بين البلدين، وإيجاد فرص استثمارية للألمان في بلدان الشرق الأوسط.

تحمَّل اليوسف كافة نفقات إقامة القيصر وصحبه في دمشق، مع كل الهدايا النفيسة التي قُدِّمت

(35) لقاء المؤلف مع زهير اليوسف، حفيد عبد الرحمن باشا اليوسف (دمشق، 1 شباط 2017).
(36) الألقاب في المجتمع السوري بين الأمس واليوم، عمرو الملاح، (2018).
(37) لقاء المؤلف مع الباحث عمرو الملاح (4 آب 2019).

لهم، من مجوهرات وخيول وسجاد وحرير، كما قدَّم دارَه في سوق ساروجا للضيف الكبير، ليُقيم فيهها خلال وجوده بدمشق.

وقام اليوسف أيضًا بشراء عدد كبير من الآليات الزراعية الألمانية، التي كان القيصر غليوم شديد الافتخار بها، ليوزعها على أراضيه، ويُروِّج لها أمام الملاكين السوريين من أقربائه وأصحابه. وقد طلب من هؤلاء مقاطعة البضائع والصناعات الأوروبية، والاعتماد فقط على الصناعة الألمانية، لزيادة مبيعاتها في المنطقة(٣٨).

رد قيصر ألمانيا الجميلَ، وقدَّم ثريا نفيسة للباشا، جاءت معه من إحدى قصوره، عربون وفاء وصداقة، ظلَّت معلقة في القاعة الرئيسية لبيت سوق ساروجا لسنوات طويلة، حتى قيام أحد أبناء الباشا ببيعها في سنوات متقدمة من القرن العشرين، وهي موجودة اليومَ في مقر السفارة الكويتية في بيروت(٣٩).

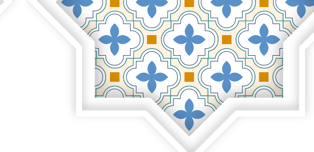
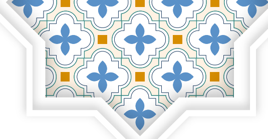
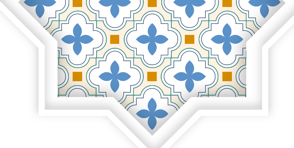
بعد سنتين شارك عبد الرحمن اليوسف بالذكرى الخامسة والعشرين لجلوس السلطان عبد الحميد على العرش، وقام بالمساهمة في تمويل كلية الطب العثماني في حيِّ البرامكة، التي أراد لها عبد الحميد أن تُضاهي جامعة بيروت الأميركية والجامعة اليسوعية. ومعظم التجهيزات المخبرية جاءت من ألمانيا، تقدمةً من عبد الرحمن اليوسف، كما تبرَّع لمشروع محطة الحجاز الحديدي، الذي وقف خلفه خصمُ الأمس وصهر اليوم أحمد عزت باشا العابد، كما قام بشراء الآلات الكهربائية أيضًا من ألمانيا(٤٠).

ثامنًا _ علاقة اليوسف مع جمعية الاتحاد والترقي:

في تموز ١٩٠٨ وقع انقلاب عسكري في إسطنبول، حمل توقيع جمعية الاتحاد والترقي، أول الأحزاب السرية في الدولة العثمانية، وقد أُجبر السلطان عبد الحميد على التخلي عن معظم صلاحياته تحت ضغط من الباشوات الثلاث، طلعت وأنور وجمال. جميعهم كانوا من أصول متواضعة، سياسيًا وعائليًا وثقافيًا، فكان الأول موظفًا مدنيًا صغيرًا في مصلحة البرق والبريد، تحول بين ليلة وضحاها إلى وزير للداخلية، والثاني ضابطًا صغيرًا في السابعة والعشرين من عمره، اختار لنفسه، بعد نجاح الانقلاب، منصب وزير الحربية. أما الثالث، جمال باشا، فقد خدم في الجيش العثماني وتبوّأ منصب وزير البحرية، ثم حاكمًا عسكريًا على ولاية سورية خلال الحرب العالمية الأولى. وهؤلاء فرضوا على السلطان إعادة العمل بالدستور المعلق منذ ثلاثة عقود، وعودة الحياة النيابية.

استُقبل الانقلاب بحفاوة بالغة في دمشق، نظرًا لتذمر الناس من ضيق المعيشة، وتدهور حياتهم الاقتصادية، لعدم قدرة الدولة على تسديد الرواتب للموظفين والعسكريين، وقمعها لأي صوت معارض لسياساتها(٤١).

(38) Çiçek. War and State Formation, 152.
(39) Weber. Damascus, 299.
(40) يوسف (1 شباط 2017).
(41) وزارة الخارجية البريطانية، 195-2122، من ريتشاردز (دمشق) إلى أو كونور (لندن)، ملف رقم 103، تاريخ 2 كانون الأول 1908.


هنا أدرك اليوسف أن أيام عبد الحميد الثاني باتت معدودة، وأنه أصبح مجرد واجهة سياسية لا سلطة حقيقية له في ظلِّ حكم البشوات الثلاث، فسارع لنسج علاقة ودية مع الاتحاديين، دون قطع علاقته بالسلطان، وقدَّم نفسَه كحليف استراتيجي للنظام الجديد، قادرًا على حماية مصالحه ليس فقط في دمشق بل في كافة الولايات العربية داخل السلطنة. ولحسن حظه جاء إلى الحكم في إسطنبول رجل يُدعى حسين حلمي باشا، الذي عُيِّن صدرًا أعظمًا في شباط ١٩٠٩، وكان صديقًا قديمًا لليوسف منذ أن خدم في دمشق نهاية القرن التاسع عشر(٤٢).

قام حلمي باشا بدور الوسيط بين اليوسف والباشاوات الثلاثة، في وقت كان عبد الرحمن اليوسف يقترب من سن الأربعين، ويطمح للعب دور سياسي أكبر من ذلك الموكل إليه بالوراثة منذ عشرين سنة، إذ ضاقت به إمارة الحج وزعامة دمشق، وصار يُفكر بزعامة من نوع آخر، أكثر تأثيرًا بالسياسة العليا للدولة العثمانية.

لم يرغب اليوسف أن ينهي حياته السياسية بالإقصاء والعزل، كما أنهاها كلٌّ من أحمد عزت العابد وأبو الهدى الصيَّادي، اللذان سقطا سقوطًا مدويًا مع سقوط السلطان عبد الحميد. فقد أُقيل العابد من منصبه، واستقلَّ سفينةً حربية بريطانية طالبًا اللجوء السياسي من لندن، ثم أقام في مصر، بعد مصادرة أملاكه في إسطنبول ودمشق، وعُزل نجله محمد علي عن منصبه سفيرًا للدولة العثمانية في واشنطن(٤٣).

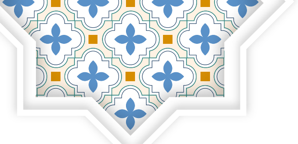
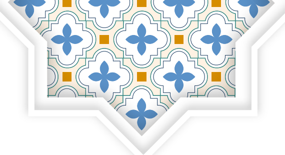
أما الصيَّادي فقد عُزل هو الآخر، ونُفي إلى جزيرة برنكيبو التركية، حيث توفي عن ٥٩ عامًا عام ١٩٠٩.

لم يُرِد اليوسف أن تكون نهايته السياسية مثلَ نهاية هؤلاء، وقد يكون رأى في زوالهم فرصة ذهبية لتعويم نفسه في إسطنبول، كما فعل جاره وصديقه محمد فوزي باشا العظم، ثالث السوريين المحيطين بالسلطان عبد الحميد، الذي تأقلم فورًا مع نظام الحكم الجديد، وتولَّى نظارة الأوقاف الإسلامية في حكومة المشير أحمد مختار، أيام الاتحاديين، في تموز ١٩١٢.

أيَّد اليوسف جمعية الاتحاد والترقي، وطلب أن يكون رئيسًا لفرعها في دمشق(٤٤). وقد ساهم في تطهير المدينة من أي معارضة لحكم الضباط الثلاثة، وقام بإقصاء قائد الدرك عمر جواد بك، وقائد الشرطة خورشيد بك، وكلاهما من الأتراك، والدفتردار سعيد البنا (الدمشقي)، المحسوبين على السلطان عبد الحميد(٤٥).

ولكن وفي نيسان عام ١٩٠٩ وقع انقلاب مضاد في إسطنبول، بقيادة موالين للسلطان من الجيش الأول، كانوا يُطالبون بعودة الأخير إلى الحكم المطلق، وإلى نسف إصلاحات الاتحاديين، من دستور وبرلمان، التي يرونَها أفكارًا مستوردة من الغرب، فُرضت لضرب وحدة الإمبراطورية من الداخل.

(42) وزارة الخارجية البريطانية، 195-1514، من ديكنسون (دمشق) إلى وايت (لندن)، ملف رقم 32، تاريخ 6 تشرين الأول 1885.
(43) سورية والحكم العثماني، الحكيم، 170.
(44) دمشق، شيلشر، 186.
(45) وزارة الخارجية البريطانية، 195-2277، من ديفيه (دمشق) إلى لوثار (لندن)، ملف رقم 33، تاريه 12 آب 1908.


ومن قصره المحصَّن في دمشق، كان اليوسف يتابع أخبار الغوغاء التي كانت تجتاح شوارع إسطنبول، وقد تريَّث كثيرًا قبل اتخاذ موقف علني من الانقلاب الجديد، ولكنه حسم أمره بالوقوف مع الاتحاديين، عكس عزت باشا العابد، الذي أيَّد التمرُّد[٤٦]. وكم كان قرارًا صائبًا بالنسبة له، كونهم استطاعوا التغلب على التمرُّد، وعزل السلطان عبد الحميد نهائيًا عن العرش، واستبداله بشقيقه السلطان محمد رشاد الخامس.

شكَّل اليوسف وفدًا رفيعًا من الأعيان للتوجُّه إلى إسطنبول لمبايعة السلطان الجديد، مؤلَّفًا من الشيخ عبد الرزاق البيطار، ممثلاً عن علماء الشَّام، وعطا الكيلاني، ممثلاً عن مجلس دمشق البلدي[٤٧]، ومع إدراكه الكامل بأن السلطان رشاد لم يكن يتمتع بأي صلاحيات حقيقية انحنى اليوسف أمامه إجلالاً واحترامًا، واعدًا ببسط الأمن والأمان في مدينة دمشق. صحيحٌ أن السلطان فقد صلاحيات كثيرة، مثل قدرته على تعيين الصدر الأعظم مثلاً، ولكنه بقي قادرًا على عزل أمير الحج، لو أراد ذلك، واستبداله بأي شخصية أخرى. وتجنُّبًا لحدوث هذا الأمر، قدَّم له اليوسف فروض الطاعة والولاء، ولم يتوقف عن مصادقة الاتحاديين ودعمهم، ماليًّا وسياسيًّا، وبذلك بقي في منصبه أميرًا للحج حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

تاسعًا _ اليوسف نائبًا في مجلسي المبعوثان والأعيان:

قرَّر اليوسف دخول المعترك السياسي من أوسع أبوابه، فقام بترشيح نفسه للانتخابات التي دعت لها جمعية الاتحاد والترقي، وفاز بمقعد نيابي في إسطنبول، ممثلاً عن ولاية سورية[٤٨].

لقد كانت هذه الانتخابات حقيقية لا صورية، شارك بها جميع المواطنين في الدولة العثمانية، مسلمين ومسيحيين، ممن تجاوز الواحد والعشرين من عمره وحصل على شهادة غير محكوم.

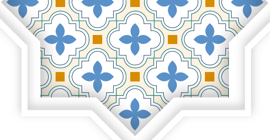
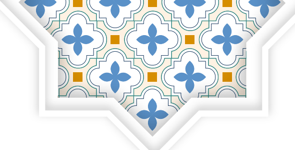
وافتُتح البرلمان الجديد في العاصمة العثمانية يوم ١٧ كانون الأول ١٩٠٩، بحضور ٢٨٨ نائب، ورئاسة السلطان محمد رشاد الخامس[٤٩].

وأُطلقت الألعاب النارية في دمشق، وزُيِّنت الشوارع احتفالاً بافتتاح المجلس، مع واحد وعشرين طلقة مدفع، ترافقت باستعراض عسكري مهيب في ساحة المرجة[٥٠].

وغاب اليوسف عن هذه الاحتفالات، ولم يحضر الجلسة الافتتاحية في إسطنبول، بحجة أنه كان على موعد مع حجاج بيت الله الحرام، لأن تاريخ انطلاق المحمل كان مُقرَّرًا في ١١ كانون الأول، وأنه لا يستطيع التغيُّب عن هذا الموعد، مهما كانت الظروف أو الأسباب[٥١].

كانت علاقة اليوسف مع الاتحاديين نقطة تحول في حياته السياسية، فقد وقف معهم حتى النهاية، بالرغم من ظروف الحرب القاسية، وسياسة «التتريك» التي اتبعوها بعد وصولهم إلى

(46) وزارة الخارجية البريطانية، 195-2277. من ديفيه (دمشق) إلى لوثار (لندن)، ملف رقم 29، تاريخ 3 آب 1908.
(47) جريدة القبس (17 حزيران 1909).
(48) جريدة القبس (20 كانون الأول 1909).
(49) Kinross. The Ottoman Centuries, 576.
(50) وزارة الخارجية البريطانية 195-2277، من دوفيه (دمشق) إلى لاوثر (لندن)، ملف رقم 29، 3 آب 1908.
(51) وزارة الخارجية البريطانية 195-2277، من دوفيه (دمشق) إلى لاوثر (لندن)، ملف رقم 29، 3 آب 1908.

الحكم، وأدَّت إلى خلق فجوة كبيرة بينهم وبين سكان المناطق العربية، بسبب محاربتهم للغة العربية في المدارس والدوائر الحكومية، وتخلِّيهم عن الكثير من الإداريين والموظفين العرب. ولكن عبد الرحمن اليوسف لم يكن من ضحايا «التتريك»، لأنه كان محسوباً على النخبة العربية المقربة جداً من الاتحاديين. وقد أبقى على مقعده النيابي من عام ١٩٠٩ وحتى عام ١٩١٤، عندما عُيِّن عضواً في مجلس الأعيان، مع عدد من الشخصيات البارزة، مثل الشيخ عبد الحميد الزهراوي ممثلاً عن حمص، وأحمد كتخدا ممثلاً عن حلب[٥٢].

كانت السلطة التشريعية في الدولة العثمانية مقسَّمة إلى مجلس مبعوثان (نواب) منتخب، ومجلس أعيان مُعيَّن من قبل السلطان. وعندما علَّق السلطان عبد الحميد أعمال مجلس المبعوثان، أبقى على مجلس الأعيان طوال مدة حكمه، ولكن اليوسف لم يدخل مجلس الأعيان إلَّا في العام ١٩١٤، أي بعد انتهاء عمله في مجلس المبعوثان، لأن القانون العثماني كان يمنع النواب من دخول المجلسين في آن واحد.

ينتهي الجزء الأول من هذا البحث عند هذا الحد، وفي الجزء الثاني منه سيتطرق إلى مسيرة عبد الرحمن باشا في عهد الاتحاديين خلال الحرب العالمية الأولى، وصولاً إلى سقوط السلطنة العثمانية في سورية وتولّي الأمير فيصل بن الحسين زمام الحكم سنة ١٩١٨. في المرحلة الأخيرة من حياته، عمل اليوسف مع الأمير فيصل على مضض، وأسَّس حزبًا سياسيًّا معارضًا، كما انتُخب عضواً في المؤتمر السوري الأول، ثم رئيسًا لمجلس الشورى عشية سقوط دمشق في يد الفرنسيين، وهو المنصب الذي كان فيه عند مقتله في ٢١ آب ١٩٢٠.

ـ مصادر البحث ومراجعه:

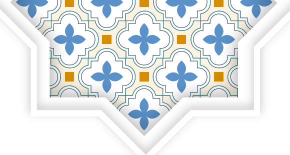
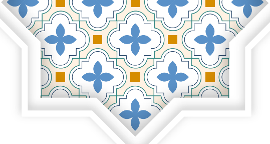
ـ اللقاءات:

ـ السيد زهير اليوسف (دمشق، ١ شباط ٢٠١٧).

ـ السيدة فاتن اليوسف (٥ آذار ٢٠١٩).

ـ الباحث عمرو الملاح (٤ آب ٢٠١٩).

(52) مرآة الشام، عبد العزيز العظمة، 121.



ـ الصحف:

ـ جريدة القبس.

ـ المراجع العربية:

ـ صحافة وسياسة: سورية في القرن العشرين: بابيل، نصوح (دار رياض نجيب الريّس، لندن ١٩٨٧).

ـ الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف: بدران، عبد القادر: (دمشق ١٩٢٠).

ـ مذكرات جمال باشا: جمال باشا، (دار الفارابي، بيروت ٢٠٠٣).

ـ سورية والعهد العثماني: الحكيم، يوسف، (دار النهار، بيروت ١٩٦٦).

ـ سورية والانتداب الفرنسي: الحكيم، يوسف، (دار النهار، بيروت ١٩٨٣).

ـ المحمل وقافلة الحج الدمشقي: ديوب، بسام، (دار الأوس، دمشق ٢٠١٢).

ـ أعيان دمشق في القرن الثالث ونصف القرن الرابع عشر: الشطي، محمد جميل، (دار البشائر، دمشق ١٩٩٤).

ـ دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: شيلشر، ليندا، (دار الجمهورية، دمشق ١٩٩٨).

ـ المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني: الصباغ، ليلى، (وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٣).

ـ مذكرات السلطان عبد الحميد: عبد الحميد الثاني، السلطان، (دار القلم، دمشق ١٩٩١).

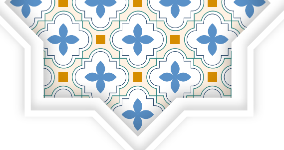
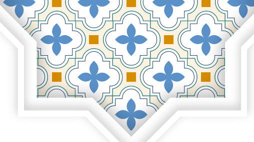
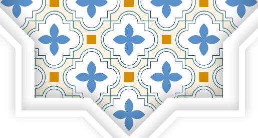
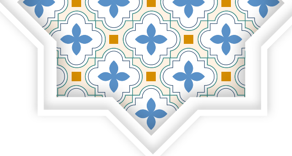
ـ مذكرات خالد العظم: العظم، خالد، ثلاثة أجزاء (الدار المتحدة، بيروت ١٩٧٢).

ـ مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها: العظمة، عبد العزيز، (دار رياض نجيب الريّس، لندن ١٩٨٧).

ـ ميسلون: نهاية عهد: العمري، صبحي، (دار رياض نجيب الريس، لندن ١٩٩١).

ـ محمل الحج الشامي: كيال، منير، (وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦).

ـ الألقاب في المجتمع السوري بين الأمس واليوم: الملاح، عمرو، (موقع التاريخ السوري المعاصر، ٢٠١٨).





Papers on the Al-Abed family

In the handwriting of the Damascene historian, the head of the family

Prof. Dr. Mufeed Raif Al-Abed

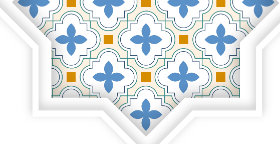
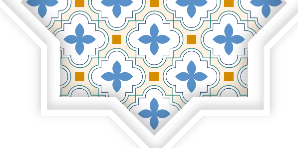




أوراق عن عائلة العابد بخطِّ المؤرِّخ الدمشقي عميد الأسرة

أ.د مفيد رائف العابد(١)

(1) أستاذ التاريخ سابقاً في جامعة دمشق، أستاذ الدراسات العليا حالياً في جامعة ميشيغن الأمريكية.



ملخَّص البحث

يشكل هذا البحث أهمية كبيرة تتعلق بعائلة دمشقية عريقة، كان لها أدوار مهمة في تاريخ دمشق، وهو يأخذ شكل وثيقة كتبها عميد أسرة آل العابد، فمرَّ بنا بنسب هذه العائلة، ثم أهم أعلامها، وأهم أعمالهم وآثارهم(٢).

مراعاة للحيادية المفترضة في البحث التاريخي، الذي يُفترض فيه أن ينشد الكمال، تقتضي قواعد البحث ألا يقوم فرد من أبناء عائلة ما بالكتابة عنها، ومع أنني تمنَّيت على صديقي(٣) الأستاذ الدكتور عمار النهار أن يُكلِّف واحداً من زملائنا الأفاضل المختصين في التاريخ الحديث، إلا أنَّه تمكَّن بلباقته أن يُغلِّب عندي الإحساس بأن مثل هذه المحاولة قد تكون هاديًا لأبحاث مقبلة أوسع، يكتبها باحث لا علاقة له بآل العابد.

وكانت حجة عمار (بحفظ الألقاب) هو أنني سأكون قادرًا أكثر من غيري على الإحاطة بأمور عن العائلة، لم تأت على ذكرها الوثائق المتوفِّرة في المكتبات العامة والخاصة؛ وأيضًا الوصول إلى التواريخ الشفوية والسيَر الذاتية لأفراد من هذه العائلة شغلوا مناصب في الحياة العامة في بلاد الشام أو في دمشق.

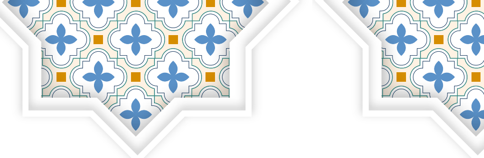
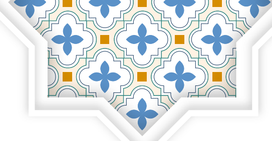
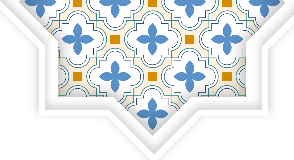
وكانت الحجة الثانية هي ثقة إدارة مجلة تاريخ دمشق بما أتميَّز به، وهو صداقتي للمرحوم الأستاذ الدكتور قيصر فرح (جامعة إنديانا الأمريكية)، الذي كتب أفضل تاريخ عن السلطان عبد الحميد الثاني، اعتماداً على مذكرات أحمد عزت باشا العابد، التي عثر عليها بشكل مخطوط في جامعة توبنجن الألمانية.

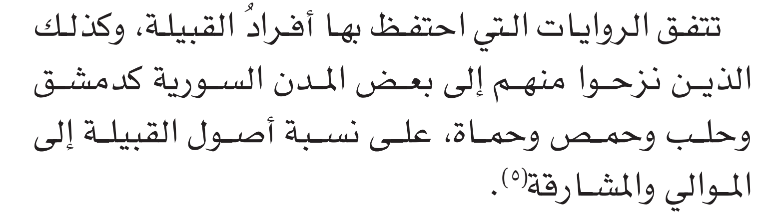
وعلى الرغم من كل هذه المعطيات فلن أزعم بتميُّز بحثي هذا بقدر ما أعدهُ من شرف المحاولة التي يُمكن أن تُوجِّه باحثي المستقبل في هذا الميدان، مقتديًا بكلمة استهل فيها أحد أساتذتي، وهو «W.W. Tarn»، كتابه حينما ذكر في مقدمته: (إلى أفضل من ينتقدني) «To my best Critic».

وأعتقد ــ كما بعض المؤرخين والنسَّابين ــ أن قبيلة الموالي(٤) اكتسبت اسمها من أنها في مدة تكوينها والت الإمام موسى الكاظم رضي الله عنه، في حين لا يُعلم على وجه التحديد لماذا اكتسب الفخذ الذي حمل اسم المشارقة هذا الاسم بعد أن التحق به (آل العابد)، وإن كانوا قد تركَّزوا في مضاربهم في المثلث الكائن بين معرة النعمان شمال غرب وتدمر شرقًا وحماة جنوبًا حتى اليوم.

وحدث أثناء تدريسي في ثانوية أبي العلاء المعري في مدينة معرة النعمان سنة ١٩٦٦ أن تعرفت على طالب في المرحلة الإعدادية، يُدعى أحمد العابد، عرَّفني بدوره على آل العابد الموالي الذين دعوني إلى مضاربهم شتاء سنة ١٩٦٥/١٩٦٦.

(2) أسرة المجلة.
(3) أشكر تواضع أستاذي الدكتور مفيد بجعلي صديقًا له، فغاية الشرف عندي أنِّي تلميذه (المدير ورئيس التحرير).
(4) قبيلة الموالي العربية استوطنت بادية الشام منذ العصر العباسي، وهي ذات أصول عريقة تعود إلى قبيلة بكر بن وائل العربية.





أحمد عزت العابد

تتفق الروايات التي احتفظ بها أفرادُ القبيلة، وكذلك الذين نزحوا منهم إلى بعض المدن السورية كدمشق وحلب وحمص وحماة، على نسبة أصول القبيلة إلى الموالي والمشارقة(٥).

وقد تقاسم آل العابد وآل أبو ريشة (الذين منهم الشاعر الكبير عمر أبو ريشة) مشيخة الموالي والمشارقة لأجيال عدة.

وبالعودة إلى آل العابد، فما زال قسم كبير منهم يعيش البداوة، وقد زرتُ مضاربهم سنة ١٩٦٦ عندما عملت بالتدريس في ثانوية أبي العلاء المعري.

أما القسم الآخر فتكوَّنوا من أحفاد شابٍّ من الموالي، يُدعى عمر بن قانص العابد، تفرَّد ببعض الأعمال التي أزعجت إدارة الدولة العثمانية، فارتأت حينها بعد تكرار هذه الأعمال نحو سنة ١٧٠٠-١٧٠١ وضعَه تحت الإقامة الجبرية في دمشق الشام، بعد منحه بعض الإقطاعات الزراعية لتدبير أمور عيشه، كما مُنح لقب (الآغا)، واختار عمر لإقامته حي الميدان الدمشقي، ونجح في تكوين شعبيته بين سكان الحي، لدرجة أنَّ سكان الحي رشَّحوه لتمثيلهم في مقابلة إبراهيم باشا في بداية حملته عام ١٨٣٠ ضد الدولة العثمانية.

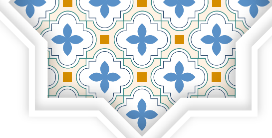
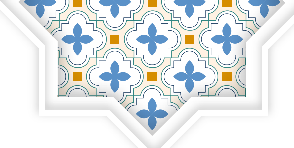
وقام عمر آغا العابد بدعوة إبراهيم باشا إلى مأدبة عشاء، وتذكر الروايات أنه تمَّ خلالها حضور أحد رجالات عمر آغا ليبشر زعيمه بولادة ابن له، حينها طلب المضيف من ضيفه تسمية المولود، فأشار بأن يُسمَّى (أبو الهول)، وفعلاً أصبح اسمًا للمولود، ومع تطور الزمن تحرَّف الاسمُ إلى «هولو».

ويبدو أن بعض الأسر الدمشقية أحبَّت الاسم، وأطلقته على بعض أبنائها فيما بعد، ومنها أسرة بوظو والعظم ومردم بك وغيرها.

عمل معظم أولاد عمر آغا في الإشراف على أراضيهم المجاورة ـ في معظمها ـ لحي الميدان، وبعضها في منطقة الكسوة؛ إضافة إلى تجارة المواشي والحبوب.

وارتبط اسم مؤسس هذه العائلة بحماية الأسر المسيحية في منطقة «التيامنة» باب مصلى (الميدان)، التي عانت مما سُمِّي فيما بعد بـ «طوشة النصارى» عام ١٨٦٠، واشترك مع الشيخ سليم العطار وسعيد آغا النوري والأمير عبد القادر الجزائري في منطقة السويقة (الميدان التحتاني) في إيواء عدد

(5) عشيرة المشارفة إحدى فروع قبيلة الموالي العربية.

كبير من الأسر المسيحية، مثل آل خوري، وآل سلوم، وآل عفلق وغيرهم حتى نهاية الأزمة.

ويُعَدُّ (هولو باشا ١٨٢٤-١٨٩٥) أحد أشهر أبناء مؤسس الأسرة العابدية، وقد عُيِّن (قائمقام) في سهل البقاع، ثم متصرِّفًا على عدد من الألوية التابعة لولاية دمشق، وأدَّى دورًا مهمًّا في تطوير الإدارة المحلية بريف دمشق، وخاصة منطقتي الزبداني وسرغايا، وانتخب عضوًا في مجلس إدارة ولاية بلاد الشام سنة ١٨٧٩، ثم رئيسًا لها سنة ١٨٩٠، وحقَّق نجاحًا كبيرًا في القضاء على الفوضى الإدارية التي سادت في مدة سابقة لتولِّيه هذا المنصب.



هولو باشا العابد

كما ارتبط باسمه إشادة الدار المعروفة باسمه في حي سوق ساروجه، وكان من أرقى أحياء دمشق، ويُطلَق عليه أحيانًا «إستنبول الصغرى»، وكانت الدار واسعة لدرجة أنها امتدت من حارة قولي إلى حارة المفتي، وتذكر الأحداث أن حفيده (محمد علي) عندما انتُخب رئيسًا للجمهورية سنة ١٩٣٢ جعل قسمًا من دار جده مقرًا مؤقتًا للرئاسة عدة أشهر، قبل انتقاله إلى قصر ابن عمه مصطفى باشا في آخر حي المهاجرين.

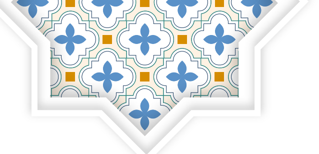
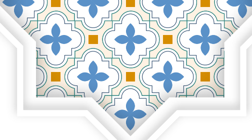
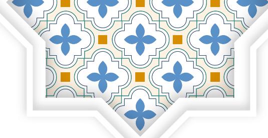
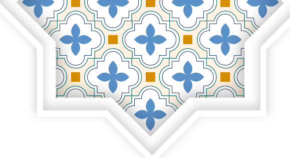
وفي مدة متأخرة اشترى البيت في سوق ساروجه الأستاذ سليم اليازجي، وحوَّله إلى مدرسة ثانوية خاصة.

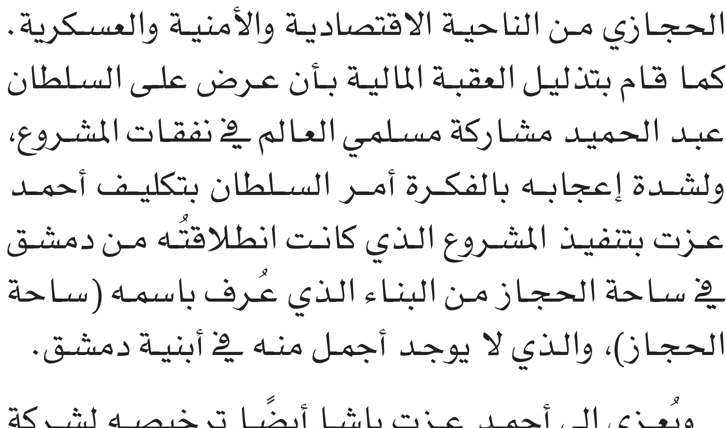
يُعَدُّ أحمد عزت باشا أبرز أبناء هولو باشا، ووُلد كما والده في حي الميدان بدمشق، وتعلَّم في كتاتيبها، وتابع تحصيله في المدرسة البطريركية في بيروت، وعند تخرُّجه منها عُيِّن كاتبًا في مجلس إدارة الولاية، ثم رئيسًا لمحكمة التجارة بدمشق، ومنها رئيسًا لتحرير المجلة الرسمية السورية.

وفي سنة ١٨٧٨ أصدر جريدة أطلق عليها اسم (مجلة دمشق)، وعمل رئيس تحرير لها، ولكنه غادرها عندما عُيِّن مُفتِّشًا لعدلية دمشق، ومنها مُفتِّشًا لمدينة سالونيك في شمال اليونان، وأخيرًا رئيسًا للمحاكم التجارية المختلطة المركزية في إستانبول، وهي المحاكم التي تقضي في النزاعات بين تجار محليين في الدولة العثمانية وتجار من العالم.

وذاع صيت أحمد عزت باشا لدرجة أنَّ السلطان عبد الحميد الثاني عيَّنه عضوًا في مجلس شورى الدولة الذي أسَّسه، وعهد إليه بمنصبِ ثاني أمناء الدولة العلية.

ويُعزى إلى أحمد عزت باشا الفضلُ في إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بأهمية الخط الحديدي



الحجازي من الناحية الاقتصادية والأمنية والعسكرية. كما قام بتذليل العقبة المالية بأن عرض على السلطان عبد الحميد مشاركة مسلمي العالم في نفقات المشروع، ولشدة إعجابه بالفكرة أمر السلطان بتكليف أحمد عزت بتنفيذ المشروع الذي كانت انطلاقتُه من دمشق في ساحة الحجاز من البناء الذي عُرف باسمه (ساحة الحجاز)، والذي لا يوجد أجمل منه في أبنية دمشق.

ويُعزى إلى أحمد عزت باشا أيضًا ترخيصه لشركة بلجيكية بإنشاء خط ترام يربط وسط دمشق ببعض أحيائها، وهي (المهاجرين- ميدان - قصاع)، وخط آخر لربط مركز المدينة ببعض ضواحيها (حرستا — دوما).

واشترى أحمد عزت باشا في ساحة المرجة دار الحكومة القديم، لبناء أضخم فنادق دمشق، وأطلق عليه اسم (المنزل) أو (النُزُل)، الذي شهد صالونه الكبير سنة ١٩١٩ ولادة المؤتمر السوري العام الأول (البرلمان)، برئاسة محمد فوزي باشا العظم.


نازك العابد

وقام رئيس وزراء سورية، المكلف من قبل الملك فيصل، بتشكيل الوزارة السورية الأولى، باستئجار البناء وجعله مقرًا دائمًا للمؤتمر السوري العام، قبل استكمال بنائه الدائم (أول طريق الصالحية).

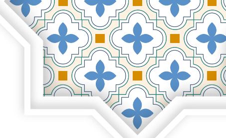
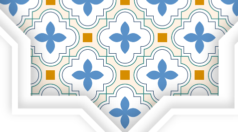
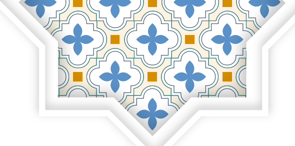
واللافت في بناء المنزل، الذي يُعرف الآن (بناية العابد)، بأن أساساته شُيِّدت على أعمدة خشبية بدل دعائم الإسمنت، إذ إن موقع البناء على ضفة نهر بردى امتلأ عبر السنين بالمياه التي لم تسمح بصب أي نوع من الإسمنت، مما اضطر المهندسين لزرع مجموعة من الأشجار الخشبية الصنوبرية فائقة المتانة.

وليست هناك معلومات مؤكدة على أن (المنزل) (النزل) استُخدم فندقًا في أي مدة من مُدد بنائه، ويبدو أن الحربين العالميتين حالتا دون إمكانية استثماره فندقًا كما خُطِّط له.

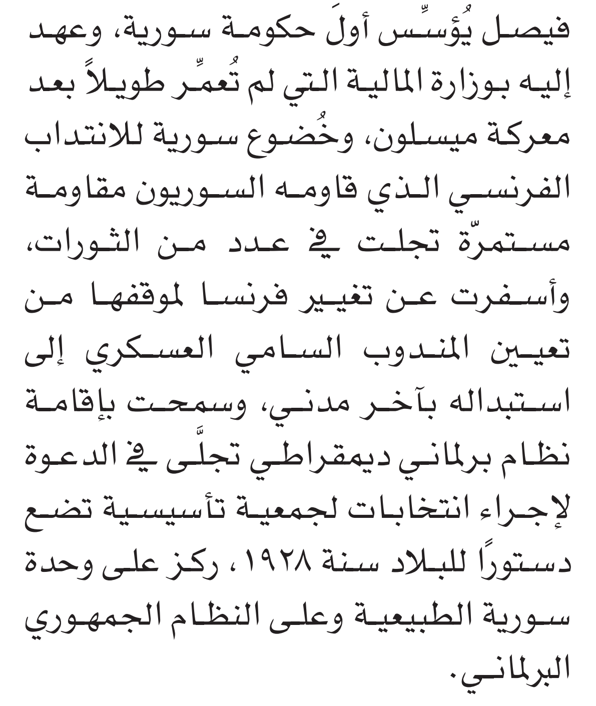
ويُعَدُّ محمد علي (١٨٦٣-١٩٣٩) أبرز أبناء أحمد عزت باشا، وقد انتسب إلى مدرسة (جالاتا سراي) لتحصيل شهادة التعليم الثانوي.

سافر محمد علي بعد ذلك إلى فرنسا، والتحق بكلية الحقوق في جامعة السوربون، مما أهَّله لتعيينه سفير الدولة العثمانية في واشنطن (١٩٠٥-١٩٠٨).

وإثر هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى عاد أحمد عزت إلى دمشق، في وقت كان الملك

فيصل يُؤسِّس أولَ حكومة سورية، وعهد إليه بوزارة المالية التي لم تُعمِّر طويلاً بعد معركة ميسلون، وخُضوع سورية للانتداب الفرنسي الذي قاومه السوريون مقاومة مستمرّة تجلت في عدد من الثورات، وأسفرت عن تغيير فرنسا لموقفها من تعيين المندوب السامي العسكري إلى استبداله بآخر مدني، وسمحت بإقامة نظام برلماني ديمقراطي تجلَّى في الدعوة لإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية تضع دستوراً للبلاد سنة ١٩٢٨، ركز على وحدة سورية الطبيعية وعلى النظام الجمهوري البرلماني.





الرئيس محمد علي العابد

وعندما فشلت الجمعية في تسمية مرشح لرئاسة الجمهورية، نظراً لانقسامها حول تأييد مرشح تؤيده حكومة الانتداب، وآخر يدعمه الوطنيون؛ اتفق الجميع على مرشح تفاوضي مقبول من الجميع خارج الجمعية التأسيسية، وكان هذا المرشح هو محمد علي العابد الذي حكم كأول رئيس جمهورية لسورية لمدة أربع سنين (١٩٣٢-١٩٣٦).

وأذكر هنا نقطة مهمة تتعلق بالتاريخ الشفوي لعائلتنا، إذ أخبرني والدي وعمي ـ رحمهما الله ـ أنه في نهاية مدة رئاسته الأولى (أي محمد علي العابد) جاء زعماء الكتل البرلمانية إلى الرئيس طالبين منه سحب استقالته من منصبه بانتهاء المدة، وأن يُمدِّد رئاسته أربع سنين أخرى بحكم الدستور، فرد عليهم بقوله: «إذا كانت رئاسة الجمهورية مَغنمًا فليَهنأ بها الجميع، وإذا كانت غُرمًا فليدفع ثمنها الجميع»، وأصرَّ على موقفه، وسافر إلى فرنسا، وفيها توفي رحمه الله.

ويُؤثَر عنه أنه خلال مدة رئاسته لم يتقاضَ أي مبلغ من رواتبه، بل كان يُحوِّلها للجمعيات والمؤسسات الخيرية.

وتعد السيدة نازك العابد (١٨٨٧-١٩٥٩) واحدة من أبرز الشخصيات النسائية في سورية من آل العابد، وهي ابنة مصطفى باشا والي الموصل في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وهي التي شاركت في الحياة السياسية والاجتماعية منذ بداية وعيها.





وافتتحت نازك العابد عدداً من المدارس بهدف واضح هو تحرير المرأة من الأمية والجهل وتقاليد المجتمع المُقيِّد لحرية المرأة.

وقد عيَّنها الملك فيصل بعد عودتها من القاهرة مستشارة له مُتأثِّراً بمقالاتها، التي نشرتها في مجلة لسان العرب ومجلة العروس، ودعت فيها إلى منح المرأة حق التصويت في الانتخابات.

وكانت نازك العابد، قبل عملها مستشارة للملك فيصل، قد بدأت العمل على إنشاء أول جمعية نسائية سورية عام ١٩١٤، إلى جانب أول مدرسة في العالم العربي لبنات الشهداء مع صديقتها ماري عجمي.

وأسَّست دعماً لمواقفها سنة ١٩٢٠ أوَّلَ مجلة نسائية أدبية اجتماعية، صدر منها تسعة أعداد.

وعلى الصعيد الدولي حصلت على موافقة الصليب الأحمر العالمي لإنشاء فرع للصليب الأحمر، وترأسته قبل مشاركتها الشهيد يوسف العظمة في معركة ميسلون، مما دفع الملك فيصل إلى منحها رتبة نقيب فخرية في الجيش السوري.

وإثر انتقالها إلى بيروت مع زوجها محمد جميل بيهم أسَّست عصبة المرأة العاملة في بيروت، وترأستها طوال حياتها حتى وفاتها سنة ١٨٥٩.

ولعل من أشهر رجالات هذه العائلة في التاريخ المعاصر: المرحوم الدكتور برهان العابد الأستاذ بكلية الطب بجامعة دمشق، والمرحوم الأستاذ المحامي رياض العابد عضو مجلس الشعب السوري لعدة دورات، والكابتن مأمون العابد الطيار في خطوط الطيران السوري ورئيس الطيارين السوريين في الخطوط نفسها.

وفي الختام أقول: هذه بعض أوراق استذكرتها، وحصلت عليها من شخصيات من آل العابد، هي منطلق نحو دراسات وثائقية تفصيلية أعمق عن هذه الأسرة، أضعها بين أيدي الباحثين علَّهم يستفيدون منها أو يبنون عليها أبحاثهم.

والعذر إن حدث تقصير، فهذا ما أسعفتني به صحتي، وما سمح لي به سنِّي.

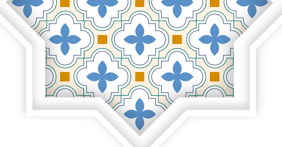
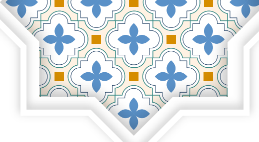
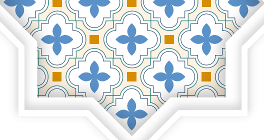
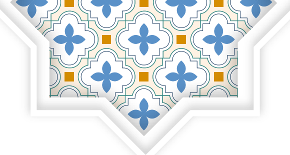
ـ بعض مراجع البحث:

ـ عبقريات شامية في الحكم والسياسة والإدارة: إبراهيم الكيلاني، دمشق، ١٩٦١.

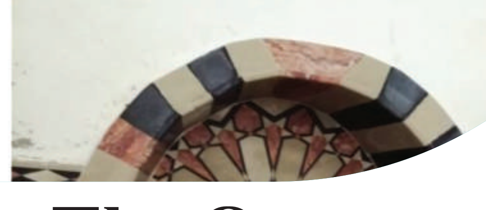
ـ بعض المقابلات الشخصية مع أفراد من العائلة، رحلوا إلى دار البقاء منذ سنوات، منهم الدكتور برهان العابد، والمحامي رياض العابد، وأكرم وعادل العابد.

ـ المعاصرون: محمد كرد علي، دار صادر، بيروت.

ـ مذكرات محمد كرد علي، (١٩٣٩-١٩٥١)، دمشق.



The Ottoman Baths in Al-Midan neighborhood of Damascus

Archaeological study

Dr. Fatima Hindawi

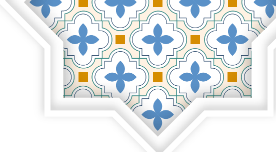
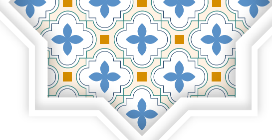
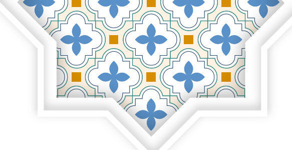




الحمامات العثمانية في حي الميدان الدمشقي دراسة تاريخية أثرية

الدكتورة فاطمة هنداوي(١)

(1) عضو الهيئة التدريسية في قسم الآثار - جامعة دمشق.

ملخص البحث

يتحدث هذا البحث عن الحمامات العثمانية في حي الميدان، وتضمنت الدراسة توضيح تاريخ المبنى ونشأته، مع توصيف لتفاصيله من الناحية المعمارية، إضافة إلى تحليل العناصر الإنشائية، وتحليل نمط البناء والزخرفة في الحمامات العثمانية.

تمهيد:

بدأت مدينة دمشق، في منتصف القرن العاشر الهجري = السادس عشر الميلادي، تشهد توسعات ملحوظة، فامتدّت خارج السور من جهاته الأربع، وخاصّةً الجهة الجنوبيّة.

يقع حي الميدان في الجنوب الغربي من مدينة دمشق، ويعدّ من أكبر أحيائها مساحة وسكاناً. وهو إلى ذلك من أقدم أحياء المدينة خارج السور، إذ تعود بداياته الأولى إلى العصر الأموي، حين كانت أرضه ميداناً لسباقات الخيل والفروسيّة، وتذكر بعض المصادر أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك كان يحضر سباقات الخيل التي كانت تُقام في أرض هذا الميدان الفسيح. كما كان يُخيِّم بأرض الميدان زُوّار المدينة، سواء من القوافل التجارية، أو ممن يرافقون القادة والأمراء، حيث إنّ المدينة القديمة داخل السور أخذت تضيق عن استيعابهم، وشكلت هذه المخيمات النواة الأولى لتشكيل هذا الحي العريق.

وقد اكتسب الحي أهميّة كبيرة نظراً لموقعه الجغرافي الهام، فهو بوابة دمشق ونافذتها إلى جنوب سورية، ونقطة التبادل التجاري مع الأردن والحجاز وفلسطين ومصر. ويُذكر أنّ نهاية الميدان الجنوبيّة عُرفت وما تزال تُعرَف باسم البوابة، اختصاراً لتعبير (بوابة اللّه أو باب اللّه)، لأنها تؤدّي إلى بلاد اللّه، وهي الأماكن المقدسة في الحجاز والقدس[٢].

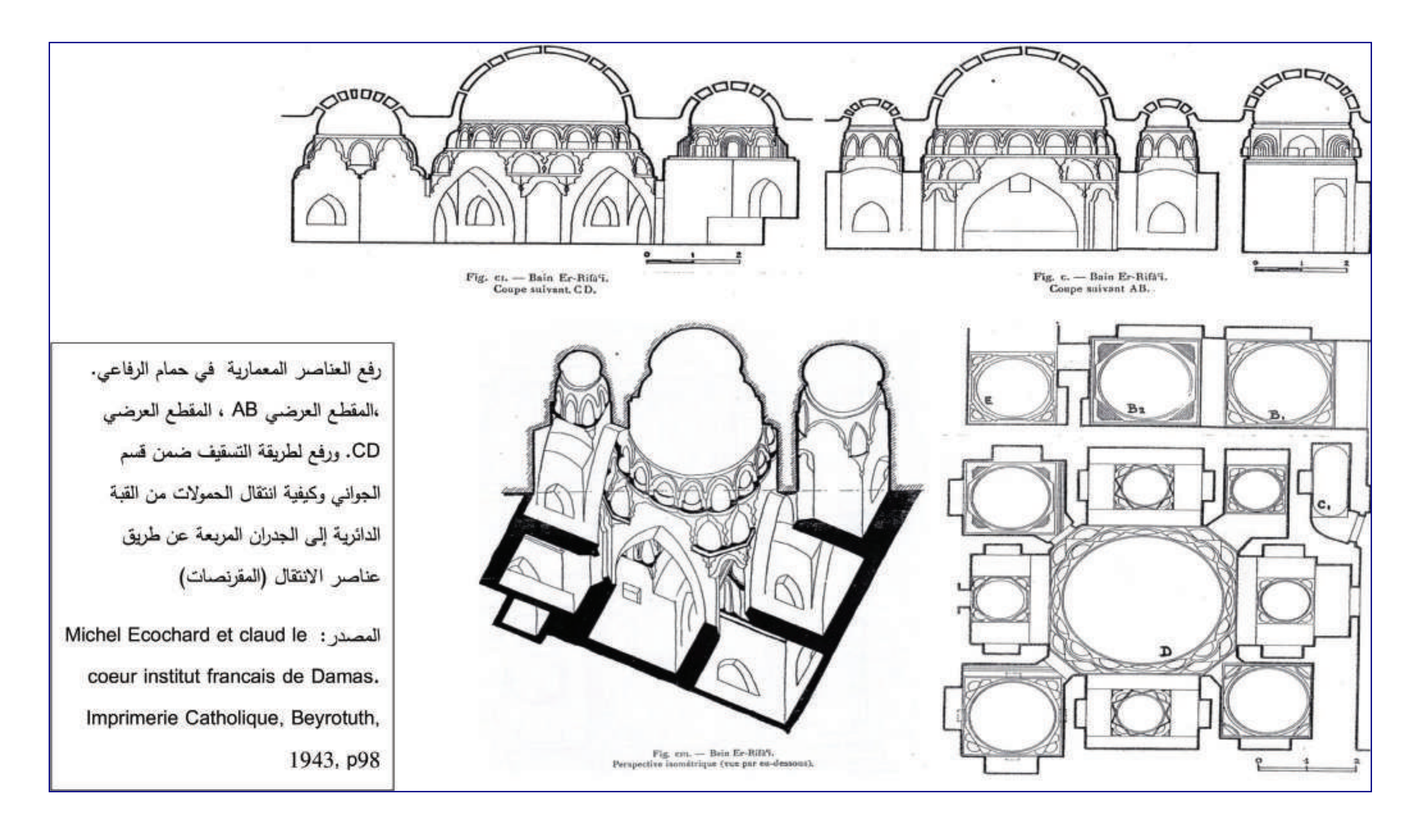
والجدير بالذكر أن لحي الميدان دورًا مهمًّا في تسهيل سفر قافلة الحج الشامي إلى الحجاز، وتزويدها بالمؤن والجمال (المعروفة بموكب الجردة) حيث إنّ القافلة كانت تعبر الحيَّ في طريقها إلى الديار المقدسة، وعند عودتها عبر الطريق الممتدّ من السويقة شمالاً وحتى البوابة جنوباً، الذي يُعرف بالطريق السلطاني (سمي بذلك لكثرة مرور السلاطين والولاة منه)[٣]، وهذا ما دفع في البداية إلى

(2) حي الميدان في العصر العثماني: بريجيت مارينو، ص76

(3) تسمية السلطاني هي من مصطلحات العصر العثماني، تُطلَق في دمشق كثيراً على المواضع التي تُحاذي (الدرب السلطاني)، وهو الطريق الرئيسي الرسمي الذي يقطع الشام وضواحيها، ويمر بجوار السور الغربي للمدينة القديمة عند باب الجابية، بعد أن يكون قد مر بالقلعة وجامع السنجقدار، ثم يجتاز ضاحية الميدان جنوباً حتى يصل إلى بوابتها (بوابة الله)، ومنها ينطلق إلى الحجاز أو فلسطين ومصر.
وهذا الطريق سمي سلطانيًّا، لأنه المعبر الرسمي لكل من محمل الحج وقوافل الجردة والدورة لخفارة طريق الحج من قطاع الطرق. والجدير بالذكر أن الطريق ذاته يمر بسويقة صاروجا (سوق ساروجة)، وتسمى المحلة هناك (ساروجة سلطاني)، ثم ينزل جنوباً باتجاه البحصة البرانية ويلبغا، ثم ساحة المرجة ودار المشيرية، وبعدها يستمر إلى محلة السنجقدار والقلعة.
دمشق في مطلع القرن العشرين: أحمد حلمي العلاف، ص56.







رفع العناصر المعمارية في حمام الرفاعي. المقطع العرضي AB ، المقطع العرضي CD. ورفع لطريقة التسقيف ضمن قسم الجواني وكيفية انتقال الحمولات من القبة الدائرية إلى الجدران المربعة عن طريق عناصر الانتقال (المقرنصات)

المصدر: Michel Ecochard et claud le coeur institut francais de Damas. Imprimerie Catholique, Beyrotuth, 1943, p98

إنشاء أسواق لخدمة الحجاج والتجار، ومن ثَمَّ إنشاء الدور السكنية.

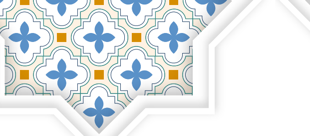
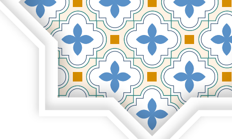
وقد تنوَّعت هذه الأسواق مثل سوق الخيل والجمال والجزماتية والنحاسيات وغيرها، كما تنوَّعت المرافق الخدميّة لتأمين احتياجات الزوار والمارين، سواء كانت مساجد أو زوايا صوفية أو محلات تجارية متخصصة وحمامات وغيرها من المعالم الحضاريّة، التي أكسبت الحيَّ أصالة وغِنًى.

ونظراً لهذه الأهمية فقد استقطب الميدان أعداداً كبيرة من السكان من المناطق المجاورة والبعيدة، قدموا إليه للمتاجرة أو هرباً من الاضطرابات، ولهذا ازداد امتداده باتجاه الجنوب واندمجت به بالتدريج قرية القبيبات، وغدا طول الحي من باب الجابية الذي يربطه بدمشق إلى نهايته الجنوبية ما يزيد على ثلاثة كيلو مترات، ثمّ أخذ بالتوسع على الجانبين، ونظراً إلى هذا الامتداد قسم الميدان اصطلاحاً إلى ثلاثة أقسام: الميدان التحتاني، وهو الأقرب إلى دمشق، والميدان الوسطاني، والميدان الفوقاني الذي ينتهي بالبوابة.

أولاً _ حمامات دمشق:

وكان من الطبيعي أن يشهد حي الميدان عملية بناء مشيدات دينية وأبنية مُخصَّصة لأغراض اقتصاديّة واجتماعيّة، تخدم الحجاج والمسافرين والتجار وسكان الحي عامةً. كما تميّزت منطقة الميدان بكثرة الحمامات المشيدة بها، وذلك بسبب تزايد أعداد الخانات والنزل الخاصة بالتجار والحجّاج المسافرين المنتشرة في الحي.

وقد أجمع الذين ساحوا في أنحاء الممالك العثمانية، وبعض الديار الشرقيَة، على تفضيل حمامات



تحليل خطوط الزخرفة وهي أطباق نجمية تشكلت من وحدات هندسية متكررة على أساس النجمة ذات العشر زوايا فوق هيكل مؤلف من خطوط متوازية في خمس اتجاهات.

المصدر: إيفا ويلسون، ص٧٨.

وحدة هندسية ذات إطار سداسي مزدوج وفي الداخل رسمت نجمة فوق هيكل مؤلف من ثلاث مربعات.

المصدر: إيفا ويلسون،ص٨٩

الصور: الباحثة

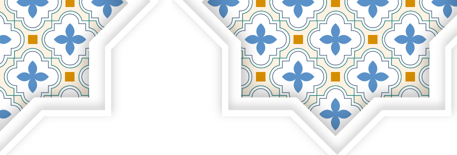
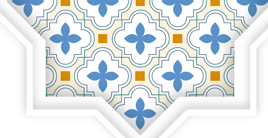
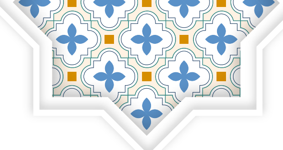
دمشق على غيرها، لما فيها من الإتقان والنظام والهندسة وغزارة المياه وإتقان الخدمة والإكرام والاعتناء[٤]. واشتهر في تصميم الحمامات العامة مخططان اثنان من حيث الشكل، الأول طغت فيه القاعة الدافئة على ما سواها، فكانت ثمانية الأضلاع أو باثني عشر ضلعًا، أمّا المخطط الثاني فهو طولي، تصطف فيه قاعات مستطيلة، وتحتل القاعة الأولى مركز الصدارة، وفي أحيانٍ كثيرةٍ كان يُكتفى بثلاث قاعات البراني والوسطاني والجواني:

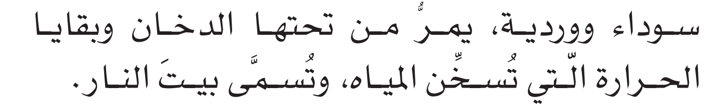
١ــ البراني: وهو باحة مسقوفة بعدد من العقود المتقاطعة، الّتي تتلاقى في قبة، تصطفُ في جوانبها النوافذ الملونة والزجاج، في أعلاها رقبة ترتفع مشكلة ما يُشبه المنور أو البرج، وهو مؤلف من مجموعة نوافذ تجتمع لتكون ختمة القبة.

ويتّخذ البراني شكلاً رباعيّاً، تنتصب في وسطه بحرة من الرخام الملون، وفي وسطها نافورة تنطلق منها المياه لتنثر الرطوبة والنشاط في البراني. أمّا الأرضية فهي مرصوفة بحجارة مصقولة، ويتخلّلها تشكيلات بديعة من الرخام، تتضمَّن أشكالاً هندسية تتتالى في انتظام وتناظر بديع للنفور من الفراغ. والجدران عادة مؤلفة من أقواس حجرية تستند عليها القبة، وتحت كل قوس أُقيمت مصطبة، وهذه المصاطب يخلع الزبائن عليها ألبستهم قبل الدخول، أو تستخدم للاستراحة بعد الاستحمام.

٢ــ الوسطاني: ندخل إليه عن طريق باب في البراني، يؤدي إلى دهليز، تقع في ركن من أركانه أماكن الراحة (المراحيض). ومنه تنتقل إلى بهو ذي مصطبتين، وفيه يمرُّ ممشى مبلط ببلاطات حجرية

(4) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء: نعمان القساطلي. ص108-109



سـوداء ووردية، يمـرُّ مـن تحتهـا الدخـان وبقايـا الحـرارة الّـتي تُسـخِّن الميـاه، وتُسـمَّى بيـتَ النـار.

٣ــ الجوانـي: وهـو القسـم الداخلـي مـن الحمـام، ويتألـف مـن ممـرٍّ أوسـط، يُسـمَّى بيـتَ النـار، وهـو أشـدُّ حـرارة مـن الوسـطاني، وعلـى جانبيـه إيوانـان تتصدرهمـا الأجـران الّـتي تتدفـق إليهـا الميـاه الحـارة والبـاردة، وعلـى جانـبي كل إيـوان وفي صـدره تنفتـح أبـواب ذات أقـواس معقـودة مـن الآجـر أو الحجـر.

القميـم: وهـي الجنـاح الخارجـي مـن الحمـام، ويضمّ الخزانـة، وهـي حجـرة سـقفها منخفـض، تسـاعد علـى عـدم تبريـد بخـار المـاء. ويتـمُّ تأمـين الإضـاءة نهـاراً بشـبابيك علويـة محكمـة القفـل مـن الزجـاج.

وتسـتمدّ الحمامـاتُ الميـاهَ مـن الطوالـع القريبـة، الّـتي تُـزوِّد مدينـة دمشـق بالميـاه المسـتمدة بدورهـا مـن الأنهـار القريبـة.(٥)



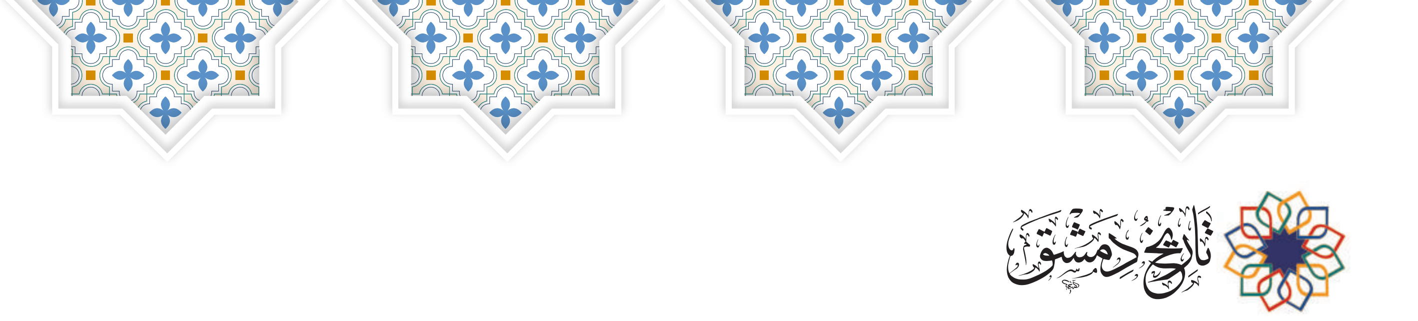
مخطط يوضح موقع الحمامات والجوامع في مدينة دمشق وضواحيها وتمديدات المياه إليها(٦).

وهنـا يتضـح أن الجوامـع والحمامـات في حـي الميـدان قـد اسـتمدّت الميـاه مـن نهـر القنـوات والديرانـي. ونهـر القنـوات: هـو الفـرع الرئيسـي الـذي يـزوّد أحيـاء دمشـق القديمـة بالميـاه، ينقسـم قسـمين، قسـم يـروي الأحيـاء الجنوبيـة مـن دمشـق، وقسـم يجـري شـرقاً، حيـث تُـوزَّع الميـاه إلى الطوالـع، لتُغـذِّي البيـوت والمسـاجد والكنائـس والحمامـات.

نهـر الديرانـي: فـرع مـن فـروع نهـر بـردى، يسـقي أراضـي داريـا وكفرسوسـة والقـدم وبعـض بسـاتين الميـدان والمـزّة وبعـض بسـاتين الشـاغور، يُعـرف أيضـاً بنهـر داريـا وبنهـر الدارانـي.(٧)

ولقـد ارتبـط عـدد الحمامـات في دمشـق بعـدد سـكانها، وتوسُّـعها العمرانـي، وتناقـص عـدد هـذه الحمامـات مع الزمـن بدءاً مـن القرن الثامـن الهجري حتـى الحادي عشَـر تحديداً ثم بدأ يتزايد. وتوارث العمـل في الحمامـات أسـرٌ معينـة، وكان لهـذه الحرفـة شـيخها، شـأنها شـأن بقيـة الحـرف، وغالبـاً مـا يتـمّ اللقـاء في حمامـات الحـارات القريبـة مـن منـازل الأسـر، إلاّ أننّـا نلاحـظ أن بعـض الحمامـات كانـت وقفـاً علـى فئـات اجتماعيـة معينـة.

(5) التاريخ العمراني لدمشق بين 923-1373هـ/1516-1918م: لطفي فؤاد لطفي. ص329.
(6) دراسة تاريخية واجتماعية حول الماضي والحاضر. المؤسسة العامة لمياه عين الفيجة بدمشق.
(7) معجم دمشق التاريخي: قتيبة الشهابي. ص327.



رسم لنماذج الأجران

عن ايكوشار

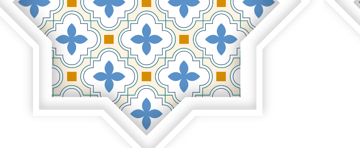
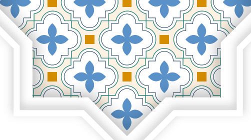
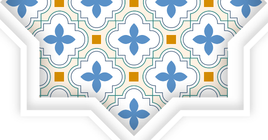
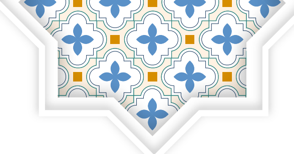
نماذج الأجران في حمام الرفاعي، المصدر : الباحثة

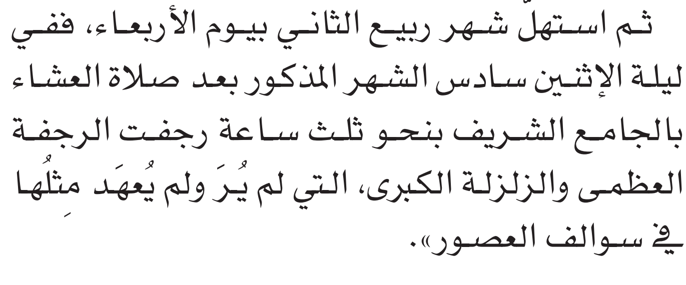
ثانياً _ حمامات حي الميدان:

وقد تأثّرت المشيدات المعمارية في حي الميدان بعدد من المعطيات، كانت سببًا في إعادة ترميم أو تجديد أو إعادة بناء عدد من المباني. نذكر منها أولاً زلزال ١١٧٣هـ، الذي ألحق الضرر بمآذن بعض المساجد، كما تصدّعت جدران العديد من المباني وتشقّقت، وأدّت الزلزلة إلى هدم السقوف، في حين انهدمت بيوت لا تُحصى .

«إنه في سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف سادس ربيع الأول، في الساعة العاشرة من الليل، قد رجفت الأرض مقلقة لرياح عواصف ورعود قواصف، فطاشت لها العقول وحصل العياذ بالله غاية الذهول، وتخلّعت السقوف، وتشقّقت الجدران، وهُدِّمت في الشام بيوتٌ لا تُحصى، وسقطت رؤوس مآذن دمشق.

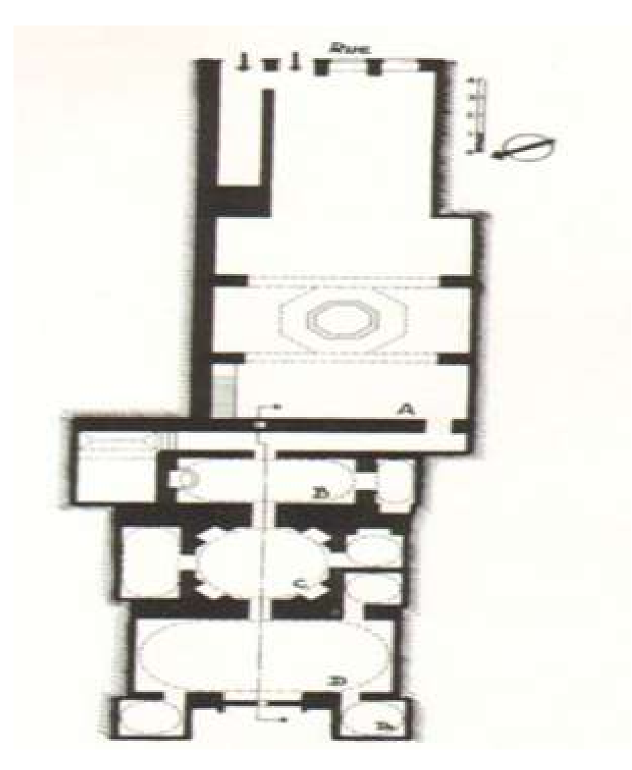
وفي ثاني يوم من تلك الليلة صحوة النهار رجفت الأرض وزلزلت زلزلة شديدة، فسقط جزءٌ من منارة الجامع الشريف الأموي الشرقية، وما من منارة إلا وهى بناؤها، حتى إن منارة السليمية بصالحية دمشق طارت منها حصة وافية وسقطت، والجامع المظفري بها أيضًا ومنارة سيباي والجامع المعلق وجامع حسان وجامع الأمير منجك بمحلة مسجد الأقصاب وبمحلة الميدان، وبقية منارات جوامع دمشق تقصَّفت، ولم يسلم منها إلا النزر القليل.



ثم استهلّ شهر ربيع الثاني بيوم الأربعاء، ففي ليلة الإثنين سادس الشهر المذكور بعد صلاة العشاء بالجامع الشريف بنحو ثلث ساعة رجفت الرجفة العظمى والزلزلة الكبرى، التي لم يُرَ ولم يُعهَد مِثلُها في سوالف العصور».

ومن الأحداث التي شهدها الحي معركة الميدان وذلك يوم الجمعة في ٧ أيار سنة ١٩٢٦، فقد أقضَّ مجاهدو الميدان مضاجع الفرنسيين، واشتبكوا مع القوات الفرنسية بمعركة استمرَّت زهاء خمس ساعات، بقيادة الشيخ محمد الأشمر. كانت خسائر حي الميدان ٩٠٪ من دكاكين وحوانيت و٢٥٪ من البيوت، وقُتل من النفوس البريئة عدد كبير بتأثير القنابل المدمرة، ودكَّت الحملة مساجد الرفاعي والساحة والدقاق.



مخطط حمام الدرب(١١)

وقد نشر إيكوشار ولوكو عام ١٣٦٠هـ دراسات قيّمة عن حمامات دمشق[٨]، ذكر فيها أسماء ستين حماماً، وفي الميدان ورد ذكر الحمامات الآتية:

١_ حمام التوتة:

في الميدان، شمالي الملجأ، ويُسمَّى حمام التوتية، وكان من الحمامات العاملة حتى عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

٢_ حمام الجديد:

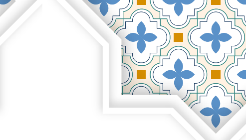
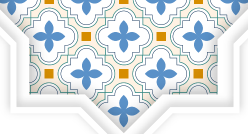
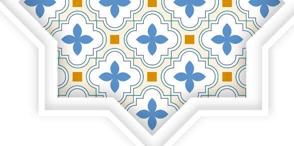
غربي الطريق العام، إلى الشمال من حمام الدرب، أُغلق عام ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م، ثم تحوَّل إلى قاعة لصنع النشاء. وبعدها تحوَّل إلى منشرة للخشب، واتُّخذ الباقي دوراً للسكن.[٩]

٣_ حمام الدرب:

يقع الحمام في حي الدقاق في ميدان سلطاني غرب الطريق العام، مقابل جامع القبيبات (الكريمي). وكان يقع إلى شماليِّه حمام الجديد، وإبان الثورة السورية قُصف وجَدَّدته حسيبة النوري. وقد هُدم الحمام منذ سنوات، ولا زال الشارع يحمل اسمه. ذكره إيكوشار ووصفه منير كيال بالتالي:

« يقع في ميدان سلطاني، وقد جُدّد عام ١٣٤٦هـ، جدّدته الحاجة حسيبة بنت سليم النوري، بعدما ضُرب وخُرِّب أثناء الثورة السورية عَام ١٩٢٥م، ويدلّ على ذلك لافتة رخامية مثبَّتة فوق بابه كُتب عليها: من يطلب العافية من الرب فليقصد حمام الدرب، وقد ذكره إيكوشار كما ذكره المنجد.[١٠]

(8) حمامات دمشق وتقاليدها: منير كيال. ص55
(9) خطط دمشق ودراسات في تاريخ دمشق الطبوغرافي وآثارها القديمة: صلاح الدين المنجد. ص55.
(10) حمامات دمشق وتقاليدها: منير كيال. ص106

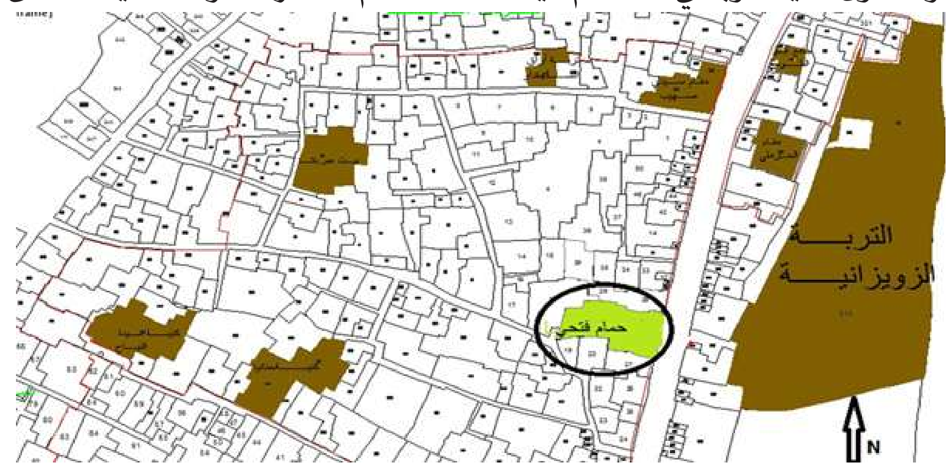

٤- حمام عقيل:

يقع في ميدان حقلة، مقابل جامع الشيخ يعقوب، هو من حمامات القرن الثالث عشر، بُني سنة ١٢٢٠هـ، جدَّده السيد سليم النوري، وقد أقفل أبوابه سنة ١٣٧٥هـ.(١٢) وما يزال البناء قائماً إلّا أنّه فقد وظيفته، وهُجِر بعد تهدُّم معظم حيطانه وسقفه.

ذكره إيكوشار كما ذكره المنجد، ووصفه منير كيال بقوله: «كان هذا الحمام يستقبل الرجال في فترة ما قبل الظهر، والسيدات من الظهر حتى غروب الشمس، وهو يحتاج إلى عناية كبيرة ليستطيع الاستمرار في كونه حماماً، لأنّ القائمين عليه كما يبدو لايهمُّهم من أمر الحمام أكثر من جمع المال واعتبار أن مردوده قليل، فإن عمليات التخريب والترقيع ستستمر حتى يخرب. وهذا الحمام يعتمد على مياه بئر فيه لاستعمالاته المختلفة ومياه الفيجة للشرب. وكذلك يَستعمل كغيره القمامةَ والنشارة كمادة الوقود».(١٣)

٥- حمام فتحي:

يقع في حي الميدان الوسطاني غرب الطريق العام، جنوب مقام سيدي صهيب، يعود للقرن الثامن عشر الميلادي، وقد اعتبرته المديرية العامة للآثار والمتاحف نموذجًا للآثار العثمانية، وسجلته بالرقم ٢١. بناه فتحي أفندي الدفتردار(١٤)عام١١٥٦هـ/١٧٤٣م. وهو الذي بنى مدرسته المعروفة في القيمرية، وبنى الحمام ليكون وقفًا عليها لا ليغتسل فيه الناس مجانًا، ويأخذ كل واحد « قرصين من الصفيحة» كما يقول الأستاذ منير كيال، جدَّد السيدان شفيق ومحمود ولدي عارف آغا النوري الحمام عام ١٣٦١هـ كما هو مدون عليه، وبقي الحمام قيد الاستخدام لعشر سنوات، حيثُ أغلق عام ١٣٧١هـ،

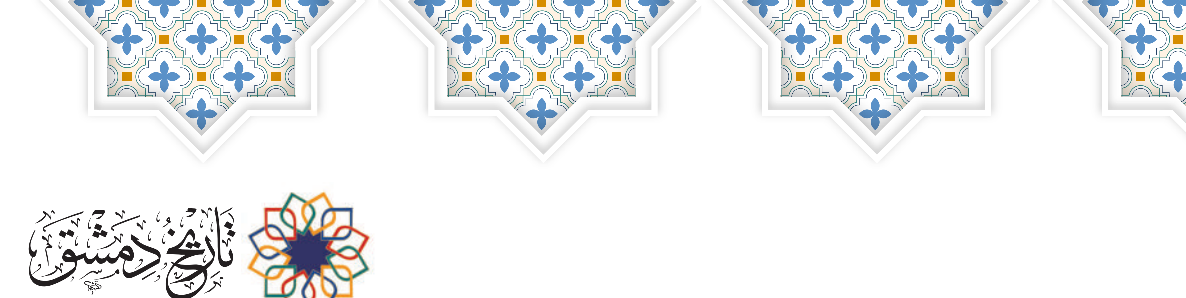


(11) Jacques Langhade: Damas Extra- Muros. Midan Sultani. Damas. 1994. P53.

(12) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين 906-922هـ/ 1500-1520م: أكرم حسن العلبي. ص525

(13) حمامات دمشق وتقاليدها: منير كيال. ص103

(14) فتحي أفندي الدفتردار: هو فتحي بن محمد بن محمود القلاقنسي، من عائلة كانت تعمل في مجال الحياكة، ثم أصبح فتحي الدفتردار أمين الخزينة في دمشق، ولشأنه الكبير كثر اتباعه وخدمه، وغدت داره منتدى الأدباء وأصحاب الموسيقى والألحان، وتردد عليه الأدباء والشعراء، ثم تعاظم نفوذه حتى بات يُعرف باسم سلطان دمشق (بنى مسجدًا في القيمرية وحمامًا في الميدان)، توفي 1159هـ.
أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة: إحسان سعيد خلوصي، ص 275



العناصر المعمارية في حمام فتحي، مقطع طولي AB

المصدر: المديرية العامة للآثار والمتاحف

رسم واجهة حمام فتحي. المصدر: المديرية العامة للآثار والمتاحف

وتحوَّل إلى مستودع للحبوب ثم مستودع للأخشاب.[١٥]

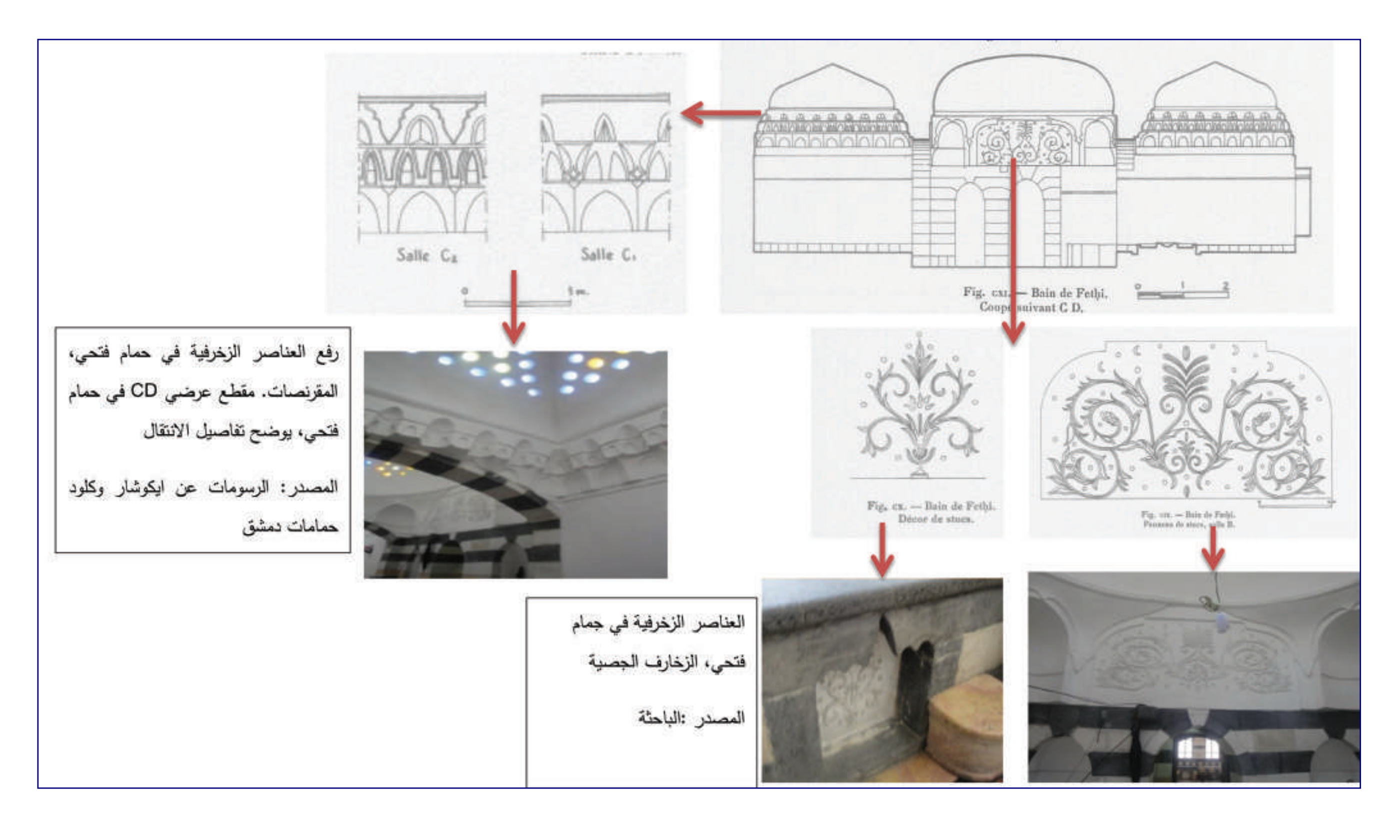
وفي بيان المديرية العامة للمصالح العقارية يُذكر أنّه تمّ الحجز على ملكية ضياع النوري لمصلحة المحافظة، ورهنه لمصلحة السلطات الأثرية.

يتميّز الحمام بواجهته الخارجية المطلّة على الشارع العام، تتألف من قوسين، كلٌّ منها (ثلاثي الفصوص)، الأول يتضمن بابًا خشبيًا بمصراعين يعلوه ساكف قوسي، ويحفُ بالقوس زخارف حجرية ذات شكل هندسي، ويعلوه صفٌ من المزررات المتناوبة بين الأسود والبرتقالي، أمّا الإيوان الثاني فيتضمن سبيل ماء، وهو متناظر مع الإيوان الأول حيث يعلو السبيل نقش حجري، ويعلو قوسه أيضاً صفٌ من المزررات، وبين الإيوانين أربعة نوافذ خشبية بمصراعين ذات شبك حديدي، يعلو كلاً منها قوسٌ عاتق مزين بزخارف هندسية في الوسط، ونباتية في الزوايا.

وفي أعلى ومنتصف الواجهة دائرتان مزينتان بزخارف نباتية وهندسية، وبين الدائرتين مستطيل مزخرف بأشكال هندسية، يحيط به مستطيل رخامي، ذو لون برتقالي، يليه مستطيل آخر ذو زخارف هندسية ونباتية، والواجهة مأطرة بشريط حجري من الفسيفساء، والواجهة حاليّاً ذات مداميك متناوبة من الحجر الأبيض والأسود والبرتقالي، قديماً وقبل عمليات الترميم كان القسم العلوي فقط أبلق، بينما القسم السفلي من الحجر الأسود، وفي الأعلى نافذة خشبية صغيرة ومربعة، في حين

(15) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين 906-922هـ/ 1500-1520م: أكرم حسن العلبي. ص526





رفع العناصر الزخرفية في حمام فتحي، المقرنصات. مقّطع عرضي CD في حمام فتحي، يوضح تفاصيل الانتقال

المصدر: الرسومات عن ايكوشار وكلود حمامات دمشق

العناصر الزخرفية في جمام فتحي، الزخارف الجصية

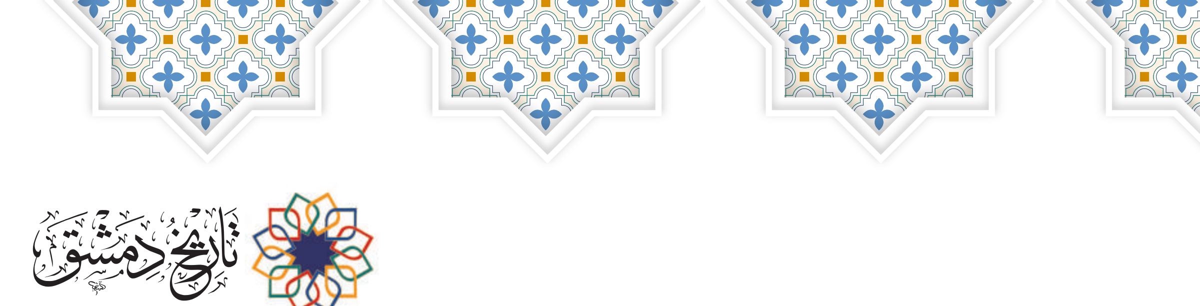
المصدر :الباحثة

توضَّع مكان النافذة الثانية بابٌ كان يفتح مباشرة على البراني، تم إغلاقه وتحويله إلى نافذة إثر عملية الترميم.

ويؤدي الباب إلى دهليز ضيق قصير، يوجد عن يمينه غرفة صغيرة، كانت تستخدم كمستودع، ثم ينحرف الدهليز إلى الجنوب لينفذ عبر باب صغير إلى **البراني**، الّذي يتشكّل من صحن مربع مسقف بقبة، ترتكز على رقبة تضمُ ستَّ عشرة نافذة. وتحت القبة بركة ماء مثمَّنة، في وسطها نافورة ماء، البركة من الداخل مغطاة بطبقة إسمنتية، ومن الخارج مكسوة بالرخام الملون والمقسم إلى مربعات مزينة بنجمات رباعية أو سداسية أو مثمنة.

أمّا أرض البراني فهي مرصوفة بالرخام والحجر الكلسي البرتقالي اللون والأسود. ويُطلّ على الصحن أربعة أواوين، الشمالي والجنوبي مرتفعان عن مستوى الأرضية على شكل مصطبة يُصعَد إليها بدرجتين نصف دائريتين من الحجر الكلسي، وأسفل كل مصطبة أربع كوات صغيرة لوضع الأحذية. وفي جدار الإيوان الشمالي كتبية. في حين يضم جدار الإيوان الشرقي ثلاثَ نوافذ تطلّ على الشارع، وقد كان مدخل الباب القديم يفصله إلى مصطبتين، يُصعد إليهما بدرجتين أيضاً، وعلى جداره ثلاث لوحات خشبية كُتب عليها آيات قرآنية «ما شاءاللّه. باللّه المستعان. توكلت على اللّه».

ومن الإيوان الغربي يتم الانتقال إلى الوسطاني المقسم إلى قسمين، الأول: ويتم الولوج إليه عبر باب يؤدي إلى ممر مستطيل يتوضَّع في الجهة الجنوبية منه دورات المياه (مرحاضان)، ويتابع الممر شمالاً، في الجدار الغربي عبر باب ذي ساكف قوسي، يُفضي إلى الوسطاني الأول، وهو عبارة عن صحن





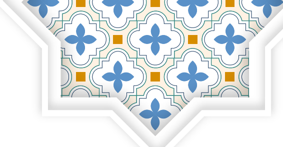
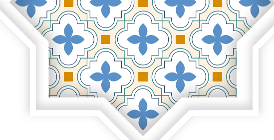
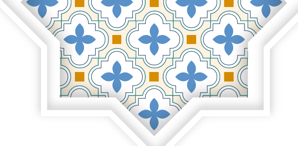
مخطط تفصيلي لأرضية حمام فتحي يوضح تنوع الأشكال الزخرفية

المصدر: ايكوشار وكلود حمامات دمشق، الصور: الباحثة

متوسط مسقف بقبة نصف دائرية، متمركزة على مقرنصات جصية، يتخلّل القبة كواتُ التهوية المغطاة بالزجاج الملون، ويتوضَّع في الطرفان الشمالي والجنوبي مصطبتان متناظرتان من حيث الشكل، يُصعد لكل منهما بدرجة صغيرة نصف دائرية، سُقف كل منها بقبة ذات كوات مغطاة بالزجاج الملون.

ومن الباب المتوضع في الجدار الغربي ذي القوس العاتق يتم الانتقال إلى الوسطاني الثاني: الذي يضم ثلاثة أقسام، الشمالي والجنوبي متناظران، يتألف كل منهما من غرفة مربعة الشكل، سقفها عبارة عن قبة ترتكز على مقرنصات جصية مرفوعة على الجدران المطلية بالكلس الأبيض والأزرق. ويتوضع في الغرفة الشمالية جرن ماء مربع الشكل يصب إليه الماء من صنبور يشبه رأس الثور. أمّا الأرضية فقد رُصفت بالرخام ذي اللون البرتقالي والحجر الأسود، بينما الأرضية في الغرفة الجنوبية مرصوفة بالحجر الأسود والأبيض. أمّا القسم الأوسط فيتشكل من صالة مستطيلة، سُقفت بقبة نصف دائرية، ترتكز على مقرنصات ثلاثية الأقواس، يتخلَّل القبة كواتٌ مغطاة بالزجاج الملون، وأرضية الصالة مرصوفة بالحجر الأسود والرخام الملون، وتضمُّ قناتين للماء.

وبجانب الجدار الغربي جرنان حجريان مربعا الشكل، وباب ذو قوس عاتق يفضي إلى القسم الجواني: وهو أيضاً مقسم إلى ثلاثة أقسام، القسم الأوسط مستطيل الشكل، سقفه قبة ذات كوات مغطاة بالزجاج الملون، ترتكز القبة على أربعة أقواس، وفي الشرق تتوضع مصطبة صغيرة، أمّا إلى الغرب فتوجد فتحة بيت النار، حيث تتوضَّع حلتان حجريتان كبيرتان للماء، وجرنان حجريان مربعا الشكل، أمّا الأرضية فمكسوّة بالحجر الأسود والرخام الأبيض، الّذي يتخلّله قناتان للماء. في حين طُليت الجدران بالكلسة البيضاء والزرقاء.

أما القسمان الشمالي والجنوبي فهما متناظران ومتشابهان من حيث الشكل والتوزيع، ويتألف كل منهما من إيوان ينفتح بقوس على القسم الأوسط، طُليت جدران الإيوان بالكلس الأبيض والأزرق، وفي الإيوان الشمالي جرنان حجريان مربعا الشكل، وفي الإيوان الجنوبي جرنان دائريان. ولكل إيوان بابان شرقي وغربي، يفضي كل باب إلى مقصورة إفرادية صغيرة مربعة الشكل، سُقفت بقبة ترتكز على مقرنصات جصية، ويتخلل القبة كوات إضاءة وتهوية مغطاة بالزجاج الملون. كُسيت أرضية المقصورات الشمالية بالرخام والحجر الأسود والبرتقالي، ويوجد في كل مقصورة جرنان دائريان، أحدهما من الرخام والآخر من الحجر. أما المقصورات الجنوبية فالأرضية مكسوة بالحجر الأسود والأبيض، وفي كل مقصورة جرنان من الحجر.

شُيِّد الحمام بمواد البناء المتوفرة في دمشق، حيث استُخدم الحجر كمادة أساسية في إنشاء الجدران، كما استُخدم الآجر في بناء القباب والقبوات، لأن الحجر والآجر يتميزان بكونهما من مواد البناء ذات السعة الحرارية العالية، التي تُحافظ على حرارة صالات الاستحمام كونها تؤمن عزل الفراغ الداخلي عن الخارج، وبالتالي التخفيف من الخسران أو الكسب الحراري.

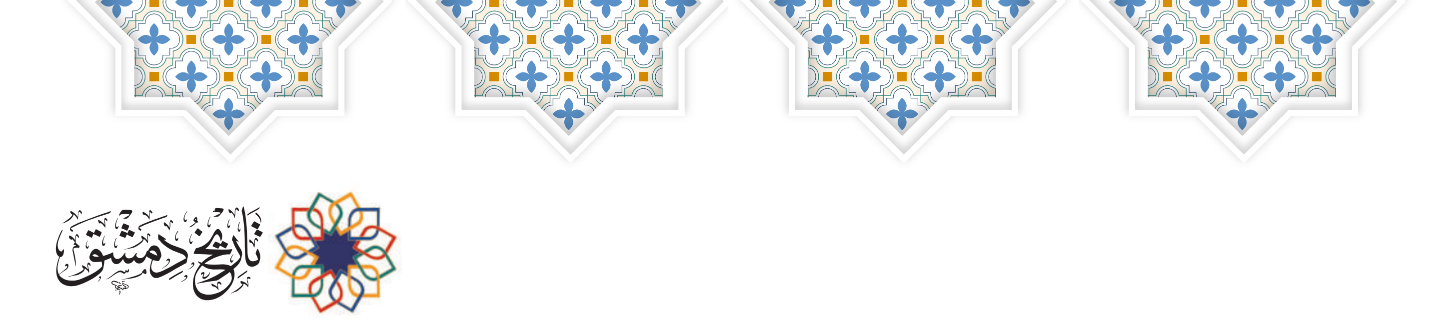
من خلال الدراسة الميدانية وتوثيق وتوصيف المبنى ودراسة مخططه المعماري تبيّن أنّه يمتاز بمسقط خطي طولي يمتد باتجاه شرق غرب، حيث إن أقسامه تتوضّع بترتيب متتال ممّا يعطي امتداداً طوليّاً لمسقط الحمام. كما تميّز الحمام بأن صالة البراني كانت واسعة وكبيرة نسبةً لغيره من الحمامات في تلك الحقبة، مما يؤكد أهميّة موقع الحمام في الحي، وكانت العادة في تشيد الجواني أن يكون مستطيل الشكل تعلوه قبة متطاولة، إلا أنه في حمام فتحي اعتُمد على الفراغات المربعة الشكل الّتي تعلوها قبوة كبيرة، في البراني والجواني، حيث استُبدلت القبوة المتطاولة في الجواني بقبة دائرية كبيرة تقارب في حجمها حجم القبة التي كانت تُغطي فراغ البراني، لكنها انهارت واستُبدلت بسقف مستو حديث. في حين اعتمد في تسقيف قسم الخدمات على جوائز خشبية محمولة على أقواس تنقّل بدورها الحمولات إلى الجدران.

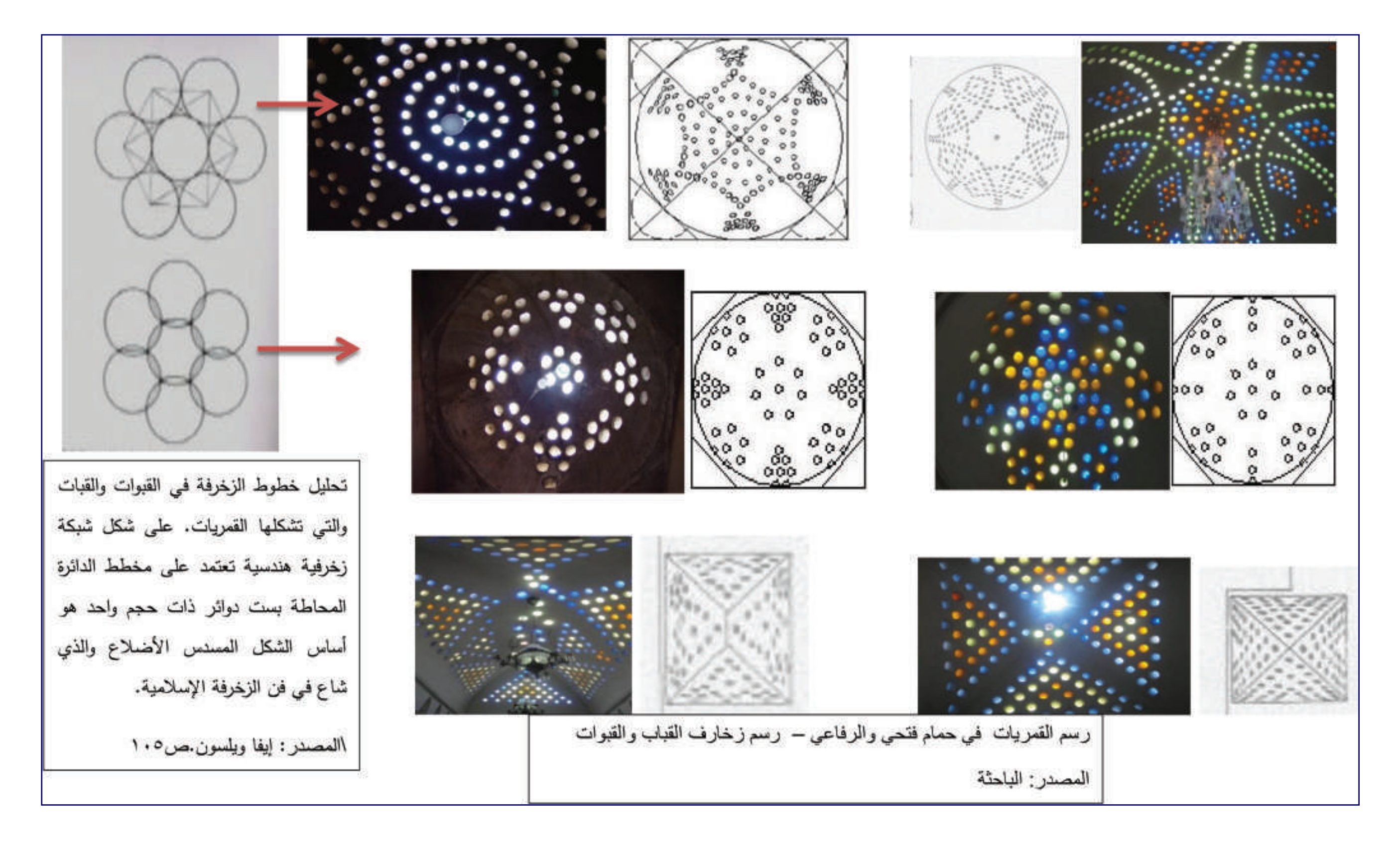
أما بقية الأقسام فقد سُقفت بقبوات متصالبة ذات شكل رباعي مبنية من الآجر، ترتكز على قاعدة مربعة ويتم الانتقال من القبوة إلى القاعدة المربعة بالاعتماد على الحنايا الركنية أو المثلثات الكروية، التي تنقل بدورها حمولة السقف إلى الجدران ومنها إلى الأرض.

من العناصر المعمارية الهامة أيضاً في الحمام الأقواس. حيث استُخدم القوس نصف الدائري المجزوء، الذي تقل فتحته عن نصف دائرة في الأبواب والشبابيك، كذلك استُخدم القوس الجديد الذي يختلف عن القوس الذي ظهر في العصر العباسي، وهو عبارة عن قوس مكسور مؤلَّف من جزأين الرأسي مستقيم والسفلي محدب، أما في العصر العثماني فقد أصبح القسم المستقيم مُقعَّراً قليلاً نحو الخارج[١٦].

---

(16) مدينة دمشق تراثها ومعالمها: عبد القادر ريحاوي. ص222





تحليل خطوط الزخرفة في القبوات والقبات والتي تشكلها القمريات، على شكل شبكة زخرفية هندسية تعتمد على مخطط الدائرة المحاطة بست دوائر ذات حجم واحد هو أساس الشكل المسدس الأضلاع والذي شاع في فن الزخرفة الإسلامية.

المصدر: إيفا ويلسون.ص١٠٥

رسم القمريات في حمام فتحي والرفاعي – رسم زخارف القباب والقبوات

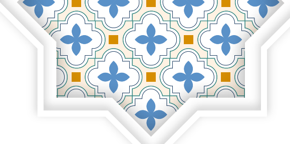
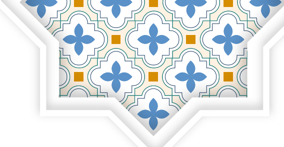
المصدر: الباحثة

ويلاحظ في صالة البراني وصالات الاستحمام ظهور عنصر معماري متميز يتمثل بالخزن الجدارية أو الكتبيات، والتي تنوَّعت قياساتها مع الحفاظ على الشكل المستطيل، وتعلوها قوس مدبَّبة، وتميَّزت الكتبيات في فراغ البراني بعمق كبير نسبيّاً، أما الكتبيات الداخلية فهي عبارة عن فتحات جدارية قوسية، استُخدمت في البراني لتنضيد ملابس الزبائن، وفي الداخل كرفوف لوضع أدوات الاستحمام، أضافت فضلاً عن تأديتها لدورها الوظيفي جماليةً للجدران وأغنت الواجهات الداخلية.

ومن الناحية الزخرفية فإنّ المظهر الداخلي لحمام فتحي مترف وغني بالتفاصيل الكثيرة والمتنوعة، حيث يضمُّ غالبية أنواع الزخارف التي ازدهرت في العصر العثماني، وهذا يؤكد أهمية مركز الحمام الاجتماعي.

وبرزت الزخارف بشكل رئيسي في أرضيات صالات الحمام كافة، وتميّزت بتشكيلاتها الرخامية والحجرية، التي رُصفت وفق أشكال هندسية، تعقَّدت نوعاً ما أحياناً وبألوان متعددة، وكانت بمعظمها تُؤطَّر بإطار يحيط بتلك الزخرفة، ونُفِّذت بالرخام الأبيض المكحَّل بالأسود والرخام المزاوي والحجر الأسود والوردي، كما استُخدمت الزخرفة بالمشقَّف وهي عبارة عن تشكيل قطع الرخام الملونة على شكل زخرفة في الأرضيات وفي واجهة البحرات التزيينية.

وقد احتوى الحمام على بحرة في البراني، وأخرى في الوسطاني، وهي بحرة رخامية ثمانية الأضلاع، مكسوة برخام أبيض مكحل بالأسود، ذي نقوش هندسية مربعة الشكل. ونظراً لكون



الوسطاني مكاناً للجلوس والاستراحة للمستحمين فإن هذه البحرات تعطي جمالية للفراغ، فضلاً عن دورها في تعديل المناخ ونشر الرطوبة، والإفادة منها كمصدر للماء البارد.

ومن العناصر الزخرفية المتميزة في حمام فتحي المقرنصات التي وُجدت بأشكال عديدة ومتنوعة في كافة فراغات الاستحمام، كما استُخدمت في زوايا القباب كعنصر انتقال بين الفراغ المربع والقبة الدائرية، وتجدر الإشارة إلى أن المقرنصات استُخدمت أيضاً أسفل القبوات، كعنصر زخرفي وإنشائي في آن واحد، وتنوعت أشكالها كطاسة المحراب تارة أو محززة كالصدفة تارة أخرى.

أما الزخارف الجصية فنجدها في حمام فتحي أسفل المصاطب في البراني، وفي فراغ الوسطاني، واحد أعلى باب الدخول، وأخرى مشابهة له تماماً في الباب المقابل، المؤدي إلى القسم الأول من الجواني. وتشكلت الزخارف الجصية على هيئة زخارف نباتية تمثل زهرة اللوتس، وعروق نباتية محيطة بها تعتبر من أهم أشكال الفن الإسلامي.

كما توجد تشكيلات زخرفية مميزة في الحمام من خلال طريقة توزُّع القمريات المخترقة للقباب والقبوات، والتي توزَّعت بشكل زخرفي هندسي نجمي، أو بشكل دروب متتالية، وتختلف في حمام فتحي كل قبة أو قبوة عن الأخرى بطريقة توزُّع تلك القمريات.

٦- حمام الرفاعي:

يقع في محلة الجزماتية، جنوب جامع الرفاعي، شرق الطريق العام. المسجل لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف بالقرار رقم (س-٤٣٧) لكونه من الحمامات الأثرية. عدّه إيكوشار من حمامات القرن السادس عشر الميلادي_ العاشر الهجري تعرّض للحريق عام ١٩٢٥ نتيجة قصف القوات الفرنسية لحي الميدان، وجدّده رضا العابد.

يعتمد على مياه بئر لاستعمالات العامة، وعلى مياه نبع الفيجة للشرب، وكان يستخدم القمامة والمواد القابلة للاشتعال كوقود لتسخين الماء.

يطلّ الحمام على الشارع العام عبر بوابة ذات مصراع خشبي من ردفين، وليس له أي واجهة خارجية مطلة على الشارع، باستثناء هذا الباب الذي يؤدي عبر ممر إلى **البراني**، وهو حديث أُعيد إعماره بعد الحريق على غرار ما كان عليه سابقاً وبمواد تقليدية.

والبراني عبارة عن ردهة مستطيلة يتوسطها بحرة ثمانية الأضلاع، يحفُّ بها من جهة الشمال والجنوب مصاطب مرتفعة بدرجتين، يتوسط الجدار الجنوبي نافذتان تطلان على شارع فرعي، أما الجهة الغربية فيفصلها مدخل الحمام إلى مصطبتين، ويتصدر الجهة الشرقية إيوان تحيط به المصاطب.

والسقف عبارة عن قبة تستند على رقبة مثمنة، ترتكز على أربع دعائم، في الزاوية الشمالية الشرقية مدخل منخفض يعلوه ساكف حجري على شكل قوس نصف دائري، يُفضي إلى ردهة صغيرة





تضم المراحيض ومصاطب على الجانبين، سُقفت بقبتين ذات كوى مغطاة بالزجاج الملون، ترتكز القبتان على قوس نصف دائري في الوسط ومقرنصات جصية في الزوايا، ويوجد في الدهليز جرن ماء حجري مستدير الشكل، أما أرض المدخل فقد كُسيت بالحجر الأسود، والجدران مغطاة بالرخام الملون. ويوجد مدخل ذو ساكف، قوسه نصف دائري منخفض، يؤدي إلى المشلح، وهو على شكل مقصورة مستطيلة مبلطة بالرخام الأبيض المكحل بالأسود، سُقفت بقبة ذات كوى مغطاة بالزجاج، ترتكز على أربعة أقواس، جدرانها مطلية بالكلس، أما القسم السفلي من الجدران فمغطًى بالرخام الملون للحد من تأثير الماء والرطوبة، وتحتوي المقصورة على ستة أجران، ثلاثة منها حجرية وثلاثة رخامية، وفي الشرق إيوان يضم ثلاثة أجران، وعبر ردهة جنوب الوسطاني الثاني ننتقل إلى الجواني.

والردهة سقفها قبة نصف دائرية ترتكز على دعائم، يتفرع من الردهة شرقاً إيوان منفرد، سقفه مقبًى وفيه جرن واحد، وعبر باب إلى الجنوب من القسم الوسطاني ننتقل إلى القسم الجواني المسقَّف بقبة نصف دائرية، ترتكز على أربعة أقواس، كل قوس منها فتحة إيوان يطلّ على الجواني، وفي الزوايا الأربعة مقرنصات حجرية يتخلّلها قمريات مغطاة بالزجاج الملون. والأواوين الأربعة سُقفت بقباب يتخلّلها قمريات مغطاة بالزجاج، وترتكز القبة في كل إيوان على أربعة أقواس. وقد كُسيت جدران الجواني بالرخام المشقف، وفي كلا الإيوانين الشمالي والجنوبي فجوتان جداريتان صغيرتان فيهما حوض ماء. وفي كلا الإيوانين الشرقي والغربي جرن ماء.

ويفصل بين الأواوين الأربعة أربعة صالات مربعة، اثنتان شماليتان، أرضياتهما مرصوفة بالحجر الأبيض والأحمر، وفي وسط كل منها قناة جر للمياه، وجدرانها مطلية بالكلس الأبيض، وفي كل غرفة يوجد جرن ماء رخامي.





يختلف حمام الرفاعي عن حمام فتحي من حيث المسقط، حيث لم يأخذ حمام الرفاعي المسقط الطولي، كما هو الحال في حمام فتحي، وإنما له مسقط مختلف تطغى فيه القاعة الدافئة من حيث الحجم وطريقة التوزيع. بحيث ارتبط البراني بقسم الخدمات بشكل غير مباشر عبر ممر طويل ومنكسر، وذلك للحماية من الظروف المناخية، كما أنّ الممر المنكسر يحجب الرؤية من الخارج للداخل. ومن الناحية الإنشائية تميَّز الحمام ببنية معمارية مختلفة، حيث إن القسم البراني مستوى أرضيته أعلى من بقية أقسام الحمام، وذلك يحقق الفصل الوظيفي، كما له دور تقني يتعلق بعملية ضخ المياه، حيث إن الأرضيات في القسم الجواني أيضاً تميل ميلاً خفيفًا باتجاه مجاري التصريف لتحقيق سهولة تصريف المياه.

امتاز الحمام بنظام توزيع مياه مدروس بدقة، يمنع تسرُّب المياه، وهذا النظام مشابه من حيث المبدأ لنظام تصريف المياه في حمام فتحي، وحال غالبية الحمامات الدمشقية القديمة، نظراً إلى أن الماء يجري بصورة دائمة وبغزارة على الأرض، وعليه فإن تصريف المياه يجب أن يُدرس وينفّذ بعناية، وذلك لتجنُّب الصعوبات التي يُمكن أن يتسبَّب عنها تسرُّب المياه.

البراني هو الفراغ الوحيد الذي لا يحوي تصريفًا مباشرًا للماء، حيث يوجد فتحة بالقرب من البحرة، وكذلك فتحة في الردهة المؤدية إلى القسم الجواني، تبعث المياه إلى المجرور مروراً بقساطل تصريف دورات المياه، والبلاط في الممر المؤدي إلى الوسطاني، وكذلك في قسمي الوسطاني والجواني، يُغطِّي مجراية الدخان (بيت النار)، ويشكل أساس تصريف مياه الحمام.[١٧]

ومن ناحية أخرى فإن جميع المقصورات يميل البلاط فيها بصورة خفيفة لتسهيل تصريف المياه. وبالتالي فإن تصريف المياه في الحمامات على نوعين:

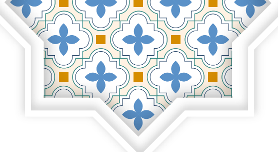
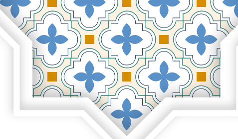
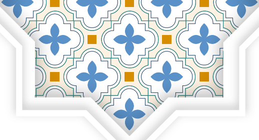
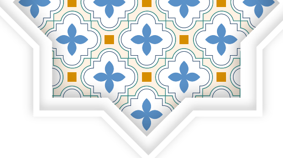
- تصريف على وجه البلاط.
- تصريف عن طريق القناة الممتدة تحت الأرض.

ويتشابه حمام الرفاعي مع حمام فتحي في مواد البناء، وقد تميّز حمام الرفاعي بإكساء الجدران بالرخام والحجر الأسود، وذلك بهدف عزل الرطوبة العالية في الحمام، وخاصة في الأقسام المخصصة للاستحمام، نظراً للتعرض الدائم والغزير للمياه. وتمّ تنفيذه من خلال تشكيلات هندسية بسيطة وغير معقدة، ولكنها متوازنة في نسبها ومتنوعة في ألوانها وتعود للفن الاسلامي الأصيل، وتُسمَّى أطباقًا نجمية[١٨].

ومن ناحية العناصر الفنية والزخرفية فقد تميَّز حمام الرفاعي بعدم المبالغة بزخارفه، حيث بدت بسيطة ومتنوعة، برزت بشكل أساسي في أرضيات كافة الصالات بتشكيلات رخامية وحجرية

(17) دراسة الحالة الإبداعية في تصميم حمامات مدينة دمشق القديمة: جوسلين مراد. ص163.

(18) الأطباق النجمية أو المثمنات أو المضلعات النجمية هي من أساسيات الزخرفة الإسلامية الهندسية، فالطبق النجمي يبدأ برسم مربع، داخله دائرة تمس أضلاعه، ومن ثم يبدأ التقسيم. تُقسم الدائرة لتكون شكلاً نجمياً بعد التصنيف ورسم الأوتار والأقواس. الأطباق النجمية لها مقاسات كثيرة تبدأ من ثماني الأضلاع وتصل إلى 32 ضلعاً، ألوانها تتسق مع ألوان التصاميم والطراز الإسلامي كالأحمر، البني، الأخضر والأزرق بدرجاته، يستخدم في تعشيق الأخشاب لتصميم منابر المسجد، وكذلك المشغولات التي تطعم بالصدف. ويرى مفهوم المركزية في الفن الإسلامي في الأشكال الهندسية، والتي يعبر عنها الطبق النجمي، فهو عبرة عن صورة اشعاعية تتحرك في اتجاه معين ولكن بصورة ثابتة في مركز الزخرفة.

رُصفت وفق أشكال هندسية، نُفِّذت بالرخام الأبيض المكحَّل بالأسود والرخامي المزاوي والحجر الأسود والوردي. كما استُخدمت البحرات والقمريات والمقرنصات والسقف العجمي.

ومن العناصر المتميزة في الحمام الأجران، التي تُمثِّل الوعاء الذي يستقبل مياه الاستحمام في الصالات المُخصَّصة لذلك، حيث يوجد في كل صالة عدد من الأجران، التي كانت تُوضع ليجتمع حولها المستحمين.

وفي الحمام عدد كبير من الأجران بعضها حجرية، والبعض الآخر رخامية بألوان مختلفة، تتميَّز بتشكيلات هندسية متنوعة، وبعضها ذو نقوش وأزهار نافرة.

في الختام: هذا عن حمامات الميدان في العصر العثماني، وهي بحاجة إلى عناية ومتابعة، وإلى اهتمام أكبر من المعنيين بآثار دمشق، وعدد منها يحتاج إلى ترميم، وبعضها الآخر يتطلب إصلاحات عديدة.

ـ مصادر البحث ومراجعه:

ـ أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة: خلوصي، إحسان سعيد، دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع، د.م.ن، ١٩٩٤ م.

ـ التاريخ العمراني لدمشق بين ٩٢٣-١٣٧٣هـ/١٥١٦-١٩١٨م: لطفي، لطفي فؤاد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١١.

ـ تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي: آل جندي، أدهم، مطبعة الاتحاد، ١٩٦٠.

ـ حي الميدان في العصر العثماني: مارينو، بريجيت، تر: ماهر الشريف، دمشق، دار المدى، ٢٠٠٠.

ـ خطط دمشق ودراسات في تاريخ دمشق الطبوغرافي وآثارها القديمة: المنجد، صلاح الدين، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤٩.

ـ دراسة تاريخية واجتماعية حول الماضي والحاضر. المؤسسة العامة لمياه عين الفيجة بدمشق.

ـ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥٢٠م دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية: العلبي، أكرم حسن، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٩.

ـ دمشق في مطلع القرن العشرين: العلاف، أحمد حلمي، تع: علي جميل نعيسة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦.

ـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء: القساطلي، نعمان، دار طلاس، دمشق، ٢٠٠٤.

ـ الزلزلة العظمى: الغزي، محمد فهمي، مجلة الشرق، مج ٦، ج٩، ١٩٨٥.

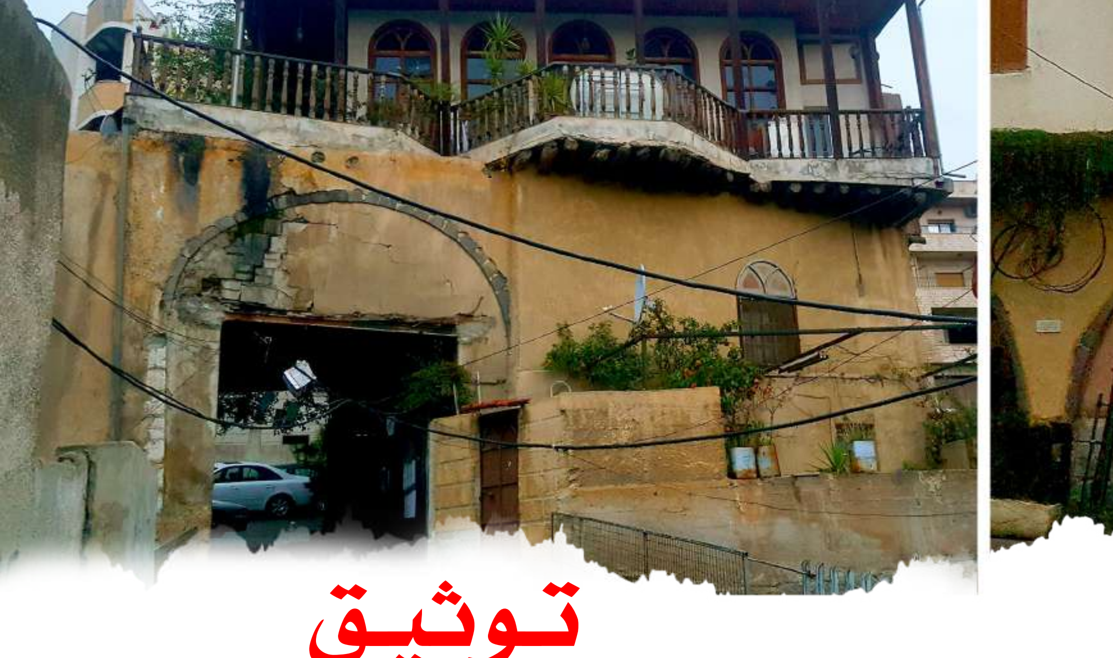
ـ حمامات دمشق وتقاليدها: كيال، منير. مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٦.

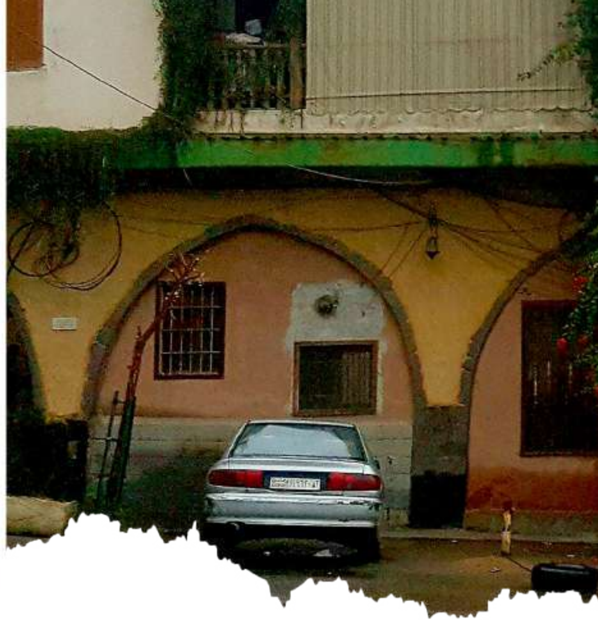
ـ مدينة دمشق تراثها ومعالمها: ريحاوي، عبد القادر، دار البشائر، ١٩٦٩.

ـ معجم دمشق التاريخي: الشهابي، قتيبة، ج١، د ن.

- Damas Extra- Muros. Midan Sultani. Damas: Jacques Langhade. 1994.

- Michel Ecochard et claud le coeur institut francais de Damas. Imprimerie Catholique, Beyrotuth, 1943.





توثيق

بقلم وتصوير: رئيس التَّحرير

اكتشاف منزل ابن فضل الله العمري الدمشقي

عالم عصر المماليك المؤرِّخ ابن فضل الله العمري الدمشقي (٧٠٠ - ٧٤٩هـ = ١٣٠١ - ١٣٤٩م)، وقد اكتشفنا منزله من خلال تتبُّع ما قاله معاصره المؤرِّخ الكبير ابن كثير (ت ٧٧٤هـ = ١٣٧٤م).

يقول ابن كثير: «وفي يوم عرفة، وكان يوم السبت، توفي القاضي شهاب الدين بن فضل الله، كاتب الأسرار الشريفة بالديار المصرية والبلاد الشامية، ثم عُزل عن ذلك ومات، وليس يباشر شيئاً من ذلك من رئاسة وسعادة وأموال جزيلة، وأملاك ومرتَّبات كثيرة، وعمَّر داراً هائلة بسفح قاسيون، بالقرب من الرُكنية(١) شرقيها، ليس بالسفح مثلها، وقد انتهت إليه رئاسة الإنشاء، وكان يُشبَّه بالقاضي الفاضل في زمانه، وله مصنَّفات عديدة بعبارات سعيدة، وكان حسن المذاكرة سريع الاستحضار جيد الحفظ فصيح اللسان جميل الأخلاق، يحب العلماء والفقراء، ولم يجاوز الخمسين»(٢).

وبمتابعتي ومعاينتي: يشغل المنزل اليوم عائلة من آل بوظو، وكان قد شغله محمود باشا بوظو أمير الحج للديار المقدسة، وشغله كذلك شريف بك وانلي قائد محمية دمشق، وللأسف فإنَّ هذا البناء مسجَّل من الأبنية الأثرية على أنَّ بناءه يعود لنهاية القرن الثامن عشر.



(1) وهي المدرسة الرُّكنية البرانية، منشئها الأمير ركن الدين منكورس الفلكي، قرابة سنة 625 هـ، وهي قائمة اليوم في حي ركن الدين، عند ساحة شمدين، وهي بحالة جيدة. انظر الدَّارس في تاريخ المدارس: عبد القادر النعيمي، دراسة وإعداد وتقديم: عمار محمد النهار، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2014م، ص108.

(2) البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تح: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1988م، ج14، ص264.





ـ أن يكون البحث المقدَّم للمجلة مكتوباً باللغة العربية، وخالياً من الأخطاء النحوية والإملائية والمطبعية، وأن يكون مشفوعاً بملخَّص بالعربية، وآخر بالإنكليزية أو الفرنسية.

– أن يكون موضوع البحث من ضمن اهتمامات المجلة وأغراضها.

ـ أن يكون عدد كلمات البحث بين ٦٠٠٠ و٨٠٠٠ كلمة، وأن يكون مطبوعاً على الحاسوب، ومُرفَقاً بالسيرة الذاتية للباحث.

ـ أن يلتزم الباحث بمنهجية البحث العلمي وخطواته، وبالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة بحسب مجال بحثه.

ـ أن يتَّسم البحث بالعلمية والأصالة والجدّة والتَّنظيم والتَّرابط، وأن يستوفي شروط التوثيق والتخريج، واستعمال المصادر والمراجع، وفق الأسس العلمية.

ـ ألا يكون البحث جزءاً من رسالة علمية، وألا يكون منشوراً سابقاً، أو مُرسَلاً إلى جهة للنشر.

ـ يتحمل الباحث المسؤولية الكاملة تجاه كل المعلومات والبيانات والحقائق الواردة في بحثه.

– ترتيب البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

– تُحال البحوث المرسلة إلى المجلة على التقويم، ويُوافَى الباحثُ برسالة تتضمَّن مصير بحثه.

– يتقاضى الباحث تعويضاً ماليّاً عن بحثه، ويستحقُّ التعويض عند إبلاغه بقبول البحث.

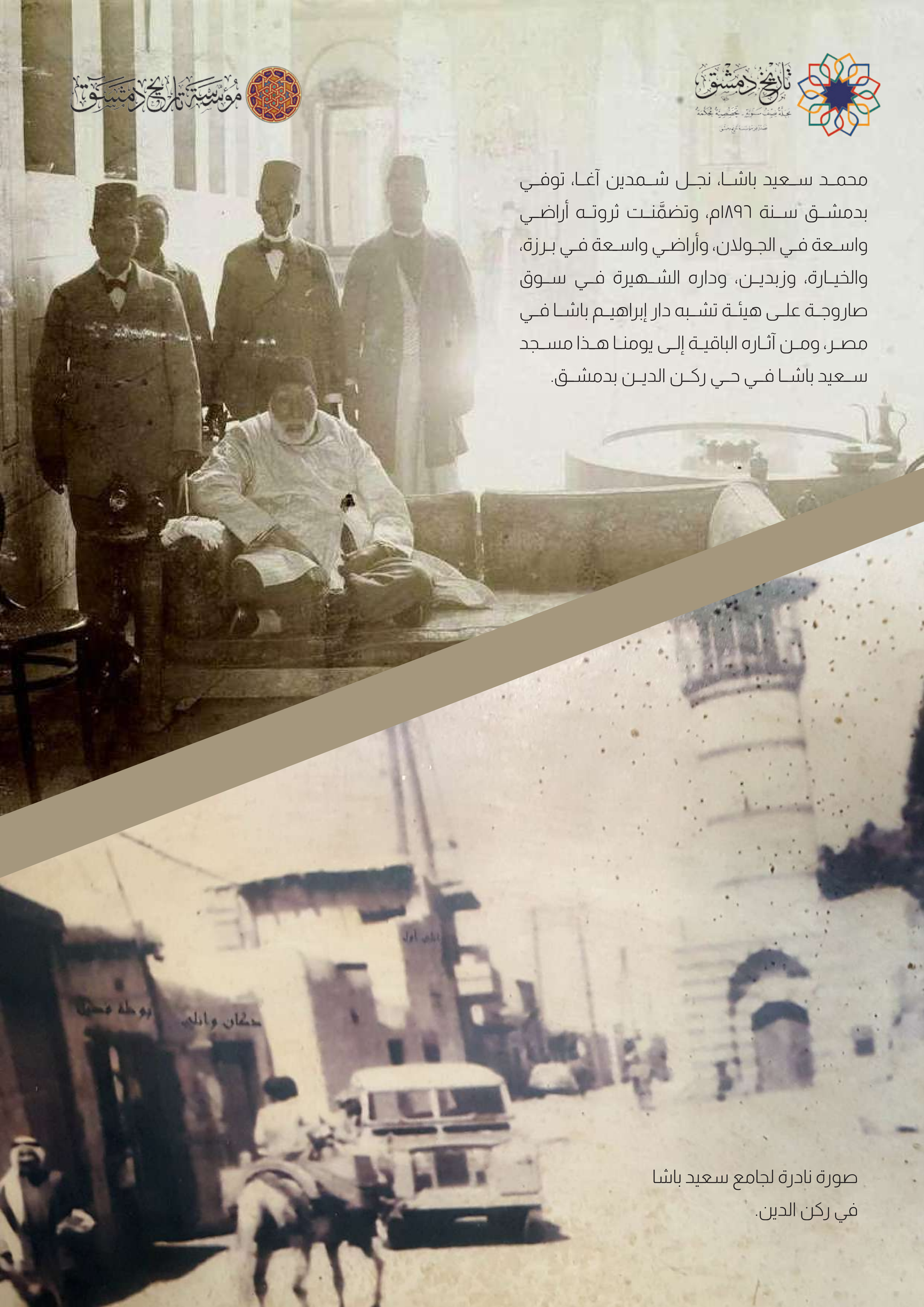
– تُرسل البحوث إلى رئيس التحرير على أحد البريدين الالكترونيين:

publishing@dimashq.cc
dimashq@damascus-foundation.org

– يمكن متابعة تفاصيل قواعد التوثيق على موقع مجلة تاريخ دمشق أو موقع مؤسسة تاريخ دمشق:

www.dimashq.cc
www.damascus-foundation.org


انتقلنا إلى فرع جديد
دمشق المالكي جادة عبد المنعم رياض
جانب المالكي أفينيو (ماسة مول سابقاً)



محمد سعيد باشا، نجل شمدين آغا، توفي بدمشق سنة ١٨٩٦م، وتضمَّنت ثروته أراضي واسعة في الجولان، وأراضي واسعة في برزة، والخيارة، وزبدين، وداره الشهيرة في سوق صاروجة على هيئة تشبه دار إبراهيم باشا في مصر، ومن آثاره الباقية إلى يومنا هذا مسجد سعيد باشا في حي ركن الدين بدمشق.

صورة نادرة لجامع سعيد باشا في ركن الدين.